

الطريق



تأليف : ميقيل ديليبس
ترجمة : يسام ياسين رشيد
مراجعة : سليمان الططار

170



المشروع القومي للترجمة

اهداءات ٢٠٠٢
مجلس الاعلى للثقافة
القاهرة

المشروع القومي للترجمة

الطريق

تأليف

ميغيل دليبيس

ترجمة

بسام ياسين رشيد

مراجعة

سليمان العطار



٢٠٠٠

المقدمة

« أبنائى لكل منا فى الواقع طريق محدّد فى الحياة علينا أن نواصله دائماً وألا نحيد عنه ... قد يفقد البعض نصيبهم الذى خصّصه الله لهم من السعادة ، قد يفقدونه وهم يبحثون ، طمع فى نفوسهم ، عن طريق أسهل ، والسعادة ، فى الواقع ، لا تكمن فى الأعلى ولا فى أكبر ولا فى الأرفع ولا فى الأشهر ، بل فى اتفاق خطواتنا مع الطريق الذى حدّده الرب لنا على الطريق ، وإن كان ذلك الطريق سهلاً متواضعاً » .

هذا هو مفهوم « الطريق » الذى جعله الروائى الإسباني ميغيل ديليبس (١٩٢٠) عنواناً لروايته التى ظهرت عام ١٩٥٠ . أما المتكلم هنا فراهب ورع تقى ، وأما المعنيان بالأمر من المخاطبين فهما صبى فى الحادية عشرة ووالده الجبان الذى قرر من سنين خلت أن يبعث بولده إلى المدينة ليواصل دراسته الثانوية فيها ويصبح من ثمّ ذا شأن ومكانة فى الحياة : « ولا سيكون للولد شأن آخر .. كونى على ثقة من ذلك . إنه لن يقضى حياته مربوطاً إلى هذه الدكّة مثل العبد ... أو قولى مثلى » . ولكن الابن كان يرى فى قرار أبيه خروجاً عن الطريق الذى حدده له الرب : « وفكر دانييل هو يتذكر ذلك أنه انحرف عن طريقه مدفوعاً بطموح أبيه ، وكظم رعشة فى داخله » . وهكذا فإن المؤلف يطرح ومنذ البداية فكرة التناقض هذه بين ما يريده الأب لابنه وما يحلم به الابن لنفسه ؛ قرارات لا تقبل النقض بازاء أحلام لا تقبل التحقيق :

— « القضية محسومة فلا تفتحى باب الموضوع ثانية »

- « لو كان بيده لاكتفى بزواج من الأبقار ودكان جبن صغير ، ولا كتفى بالبستان (الجنينة) الصغيرة الكائنة خلف بيتهم » وفي هذا تعريج على إحدى سمات أدب ميغيل دلبيس الواقعي الاجتماعي والمتمثلة بانتقاده لظواهر المجتمع السلبية .

لقد وصفت رواية « الطريق » بأنها من أدب الطفولة لأن مؤلفها اعتمد مجموعة من الصبيان محوراً لأحداث روايته وواجهة لعرض أفكارهم وعوالمهم المرححة الساذجة :

- « ما أجملها دانييل ، أليس كذلك ؟ إنها بقرة حلوب - قالت له أمه .

- لا أمه ... إنها ليست حلوباً ... انظري ... إنها لا تحمل جراراً وضحكت الأم من سذاجة ولدها وضمته إلى صدرها قائلة :
- البقرة الحلوب لا تحمل جراراً يا ولدى .
» ولع في عيني (الأقرع) بريق نكاء غريب :

- فليس اللقلق إذا من يأتى بالأطفال ! لقد كان يبدو لي ذلك غريباً ، حتى انني كنت أقول لنفسى : لماذا يزور اللقلق أمى عشر مرات وهي لا ترغب في كثرة الأولاد بينما لا يزور جارتنا ولا مرة وهي التي تتمنى أن يكون لها ولد ١٩ »

ولكن يحدث أن يذهب المؤلف بعيداً في تقدير درجة نضوج أبطال روايته من الفتية الصغار فيضع على ألسنتهم ما لا يصدر عادة إلا عن إنسان كبير في عمره ناضج في فكره :

– « ولطالما وقف دانييل يتأمل دروب بلدته المتعرجة وساحتها المليئة بالبر والحصى وأبنيتها الكئيبة التى صُممت بحس خدمى محض . ولكنه ما كان يستاء من ذلك . فالشوارع والساحات والأبنية لا تصنع البلدة ولا ترسم معالمها بل هورجالها وتاريخها » .

كان الصبى دانييل يعشق بلدته ويعشق الوادى الذى يضمها ويعشق كل ما فيها وما فيه : « إنه غير معنى بالتقدم ، والتقدم عنده لا يساوى قرشاً . تهمة ، فى المقابل ، القاطرات التى يتأملها ضئيلة من بعيد ، والبيوت البيض والحقول ومزارع الذرة المجزأة و(بركة الإنكليزى) وتيارات النهر الصاخبة المجنونة وملعب الصولجان ودقات أجراس النواقيس وقط (الفلقة) ورائحة قوالب الجبن الملوثة الحامضة وقطع الروث تصاغ بعناية ووقار وفن . وتهمة الزوايا الكئيبة الموحشة التى يرقد فيها وإلى الأبد صديقه جيرمان (الأقرع) ونقيق الضفادع الرتيب من تحت الأحجار فى الليالى الرطبة ، ونمش وجه أوكا-أوكا وحركات أمه البطيئة وهى تقوم بأعمال البيت ، وخضوع أسماك النهر الصغيرة واستسلامها واثقة مطمئنة ، وغيرها وغيرها من الأشياء » .

ولذلك نراه ، وقد اقترب موعد رحيله عن البلدة ودنت ساعة الفراق ، يستعرض كل ما أسعفته به ذاكرته الغضة الفتية من صور ومواقف عاشها مع صديقيه الحميمين روكى (البعور) وجيرمان (الأقرع) وكل ما جرى له ولهما من أحداث ومفارقات مع بقية شخوص الرواية . إن « الطريق » رواية استرجاعية من الطراز الأول .

ولا كان ميغيل دليبيس صاحب نزعة واقعية اجتماعية ومعنياً بوصف عالم الناس البسطاء ولا سيما في القرى وفي مدن الأطراف والمحافظات فقد عمد إلى حشد نماذج كثيرة ومتنوعة من الشخصوس ذوى السلوك المتناقض والعادات البلدية والأفكار الغريبة سلباً وإيجاباً ، ثم راح يروى الحوادث تباعاً وينثر الآراء والأفكار على ألسنة ذلك الحشد جاعلاً من الرواية مجموعة من القصص والحكايات المنفصلة فى أحداثها ، المتصلة فى شخصوسها وفى مكان وقوعها وزمانه .

أما أبطال الرواية فهم ثلاثة أولاد : دانييل (البوم) الذى يمتاز بذكائه ودقة ملاحظاته ورومانسيته وروكى (البعرور) الذى يمتاز بقوته وولعه بالمجازفة واستعراض مهاراته البدنية وجيرمان (الأقرع) الخبير بالطيور والعارف بأنواعها وطباعها . وغير هؤلاء الفتية ، العديد من الرجال والنساء :

حدّاد قوى الجسم مفتول العضلات لا يحلم لولده بدراسة ولا بتقديم وراهب ورع تقى يراه الناس قديساً عظيماً ولكنهم يلجأون إليه فى ضرائهم دون سرائهم .

وملحد غير مؤمن يعلن على رؤوس الأشهاد أن لا جدوى من الورع والتقوى وأنه لن يطأ عتبة الكنيسة مستقبلاً .

واسكافى مغرم بإنجاب الأولاد والمزاوجة بين الطيور والتطلع ملياً إلى سيقان النسوة المارات من أمام ورشته .

و(أقطع) يغرم بمسلولة فيتزوجها بعد أن يصد عن ثانية تقدم على الانتحار غيرة عليه واحتجاجاً على زواجه .

ومعلم لا يكف عن معاقبة طلابه ولا يفتأ يتحدث عن عصامية لم تورثه إلا الفقر والجوع . وشقيقتان عانستان ترفع كبراهن علم الفضيلة وتحشر أنفها في كل صغيرة وكبيرة وتضرب الثانية بالفضيلة عرض الحائط وتفرّ مع من سلبها لبّها وعفافها ثم نقودها قبل أن يتركها ذليلة خائبة .

ومهاجر يغادر بلدته الصغيرة إلى المكسيك وهو نصف مغفل ليعود إليها بعد عشرين عاماً وقد صار من نوى الجاه والثروة .
وغير هؤلاء وأولئك الكثير .

بل إن المؤلف يشرك الطبيعة نفسها في بطولة روايته ويجعل منها عنصراً حاضراً على الدوام ، فمن جبل لا يكف صبيّنا عن التطلع إليه ، ومن بركة يتردد عليها للسباحة فيها مع صاحبيه أيام الصيف ، ومن نهر صاحب بمائه جارف بتياراته ، ومن وادٍ هو كل شيء في حياته .

أما خبرة ميغيل ديليبس الذاتية في الطيور فيودعها في شخص جيرمان (الأقرع) . وأما تجربته الشخصية في الصيد فينقلها إلينا من خلال ولع الجبّان بهذه الممارسة .

لقد حظيت « الطريق » وهى الثالثة في أعمال ميغيل ديليبس الروائية ، بقبول النقد وحسن ثنائهم ، وعدوها بداية مرحلة في مسيرته التى بدأها قبل ذلك بروايتين هما : « ظلال شجرة السرو وارفة (١٩٤٦) » و « مازال الوقت نهراً (١٩٤٧) » . وتتمثل جدتها في الجو المرح البريء الذى يشيعه المؤلف فى أحداثها وأبطالها وصولاً فى بعض الأحيان إلى

رسم صور كاريكاتورية لبعضهم : « كان دون مويسيس رجلاً طويلاً هزيل الجسم متوتر الأعصاب ، كان هيكلاً من العظام المكسوة بالجلد ، وقد اعتاد قتل فمه فكأنه يحاول عض شحمة أذنه . وكانت حالة الإنبساط تزيد من استدارة فمه ليصل في انفراجه حتى سالفتيه » ؛ وفي اعتماده أسلوباً سلساً لا يعكره إغراق في الوصف ولا مبالغة في استخدام الصفات ، وفي خروجه من مبدأ العقدة الواحدة في الرواية واعتماده أسلوب القصص المختلفة بأحداثها المتنوعة بعقدها .

وهكذا عدت رواية « الطريق » البداية الحقيقية لأدب ميغيل دليبيس الروائي ، وصنفت ضمن قائمة أفضل الروايات الإسبانية المعاصرة وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية وصدرت في الولايات المتحدة الأمريكية طبعة خصصت لطلبة المدارس كما جرت محاولة لنقل الرواية إلى السينما . أما ميغيل دليبيس فقد تكرر بعد صدور هذه الرواية واحداً من أبرز روائى إسبانيا المعاصرين وواحداً من أفضل ثلاثة مثلوا الأدب الروائي الإسباني في فترة ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) جنباً إلى جنب مع لافوريت وكاميلو خوسيه ثيلا .

وبعد فهذه رواية « الطريق » نقدمها إلى القارئ العربى لتكون اسهاماً بسيطاً يقرّبه من عالم واسع وغريب يعطيه أدب عريض وعريق هو جزء من أدب الإنسانية وحضارتها وثقافتها . فغسى أن تنال الرواية والترجمة رضا .

المترجم

الطريق

كان يمكن للأمور أن تجري على نحو مختلف ، ولكنها جرت على هذا النحو . لم يكن دانييل (اليوم) ، من أعماق سنيه الاحدى عشرة ، راضياً عن سير الأمور هكذا ، وأن تقبلها حقيقة مقدرة . فإذا كان طموح ابيه فى جعله أكثر من مجرد جبان يبعث الاعتزاز فى نفس الأب ، فماذا عنه هو ؟ أبوه يسمى ذلك « تقدماً » ، ولكن دانييل (اليوم) لم يكن مقتنعاً بذلك تماماً . فربما يعنى إكمال الثانوية فى المدينة تقدماً على المدى البعيد . خذ مثلاً على ذلك رامون ابن الصيدلى : إنه يدرس الحماماء فى المدينة ويأتى فى العطلة مختالاً كالطاووس متعالياً على الناس ، حتى أنه يسمح لنفسه عند انصرافه من قدّاس الأحاد والأعياد بتصحيح الكلمات التى كان دون خوسيه ، وهو القديس العظيم ، تفوّه بها من على المنبر . فإذا كان هذا تقدماً فلا ريب أن إكمال الثانوية فى المدينة هو أساسه . ولكن شكوكاً كثيرة تملأ رأس دانييل (اليوم) إنه يجد نفسه ملمّاً بكل ما فى مقدور الإنسان الإلمام به : يحتفظ عن ظهر قلب ويكتب ما هو مفهوم ويتقن العمليات الأربع ويحسن تطبيقها . فهل فى وسع العقل الطبيعى أن يلمّ بما هو أكثر من ذلك ؟ يقال ، فى المقابل ، أن دراسة الثانوية فى المدينة تستغرق سبع سنوات تتبعها سبع أخرى ، فى الأقل ، للدراسة الجامعية ، فهل يوجد فى الدنيا ما تحتاج معرفته إلى أربعة عشر عاماً من الجهد ، أى ما يزيد على عمره بثلاثة أعوام ؟ « لا بدّ أن الحياة فى المدينة تعنى إضاعة الكثير من الوقت ، ثم يأتى ، وبعد أربعة عشر عاماً من الدراسة ، من لا يحسن التمييز بين طائر ابى زريق والحسون أو بين البعر

والروث . فما أغرب الحياة وما أشد عبثها وتعسفها . إنها عمل وكد في مالا نفع فيه أو ما هو قليل الجدوى .

وتقلّب دانييل (البوم) على فراشة فصدر عن نوابض السرير الحديدي صرير مزعج . انها ، فيما يذكر . المرة الأولى التي لا يغط فيها نائماً بمجرد الاستلقاء على الفراش . ففكره الليلة مشغول بأمور كثيرة ، وقد لا يكون الغد مناسباً للتفكير فيها إذ سيستقل عند التاسعة صباحاً القطار السريع الصاعد ولن يعود إلى بلده حتى أعياد الميلاد : ثلاثة أشهر من الحجر المدرسي . وبدا لدانييل (البوم) أن صدره يضيق ، فاستنشق الهواء بقوة مرتين أو ثلاثاً . واستحضر مشهد السفر ، وقلّد أنه لن يستطيع في غده حبس دموعه وإن قال له صديقه روكي (البعور) إن الرجل الحق هو من لا يبكي ولو مات أبوه .

وليس (البعور) بالشخص الاعتيادي ، وأن كبره بعامين دون أن يبدأ الثانوية ، ولن يبدأها مادام باكو الحداد لا يحلم بالتقدم لولده ، بل يكفيه أن يصبح حداداً مثله وأن يمتلك من المهارة ما يلزمه ليكيف الحديد على هواه فيا لها من صنعة لا يحتاج من يريد ممارستها أن يدرس أربعة عشر عاماً ولا ثلاثة عشر ولا اثني عشر ولا عشرة أعوام ولا تسعة ولا عاماً واحداً ، صنعة تجعله رجلاً قوياً مقتول العضلات كما هو حال باكو والد (البعور)

لم يكن دانييل (البوم) يملّ التطلع إلى باكو الحداد وهو يتصّرف بالحديد في الكور . كانت تستهويه تلكما الذراعان الغليظتان كجذعي الشجرة ، المكسوتان بالشعر الأحمر الكثيف والمليّتان بالعضلات والأوردة

« لا شك أنه قادر على رفع أريكة حجرتة بواحدة من ذراعيه الجبارتين دون أن ينال منه التعب » . وصدرة ؟ ماذا عن صدره ؟ . فلطالما اشتغل الحدّاد وهو يرتدى قميصه الداخلى ، فبدا صدره الهرقلّى فى صعوده وهبوطه مثل صدر فيل جريح . « هذه هى الرجولة الحقة ، رجولة الحدّاد لا رجولة رامون ابن الصيدلى ، المتأنق المشدود الشاحب الذى يبدو مثل بنت ناعمة متغطرة » . فاذا كان التقدم يعنى هذا فإنه زاهد فى التقدم . ولو كان الأمر بيده لاكتفى بزواج من الأبقار ودكان جبن صغير ولا كتفى بالبستان الصغيرة الكائنة خلف بيتهم . إنه لا يطمع فى أكثر من ذلك : يصنع الجبن كأبيه طيلة أيام الأسبوع ويتسلى أيام الأحد بالقنص بالبندقية أو بصيد السمك فى النهر أو بلعب الصولجان .

كانت فكرة السفر تثير الغم فى نفس دانييل (البوم) . وينفذ ضوء الطابق السفلى من خلال شقوق الأرضية وتسقط حزمة منه على السقف فتتسمر فوقه . ستنتضى ثلاثة أشهر دون أن يشاهد ذلك الخيط الفسفورى ودون أن يسمع حركات أمه الهادئة وهى تقوم بأعمال البيت ، أو همهمات أبيه المتجهّم على الدوام خشنة جافة . ثلاثة أشهر من دون أن يستنشق ذلك الهواء الذى يدخل الآن عبر النافذة المفتوحة مثقلاً برائحة العشب الحصيد والروث المجفّف . يا الهى ، ما أطوله من وقت ! .

ربما كان بمقدوره التمرّد على فكرة السفر ، ولكن ما عاد ذلك ممكناً الآن . لقد أجهشت أمه بالبكاء ، قبل ساعات من هذا وهى تعدّ معه قائمة ملابسه :

- انظر يا صغيرى . هذه شراشفك . لقد طرزت عليها الحروف الأولى من اسمك . وهذه قمصانك الداخلية ، وهذه سراويلك وجواربك

كلّما تحمل الحرف الأول من اسمك كيلا تضيق ، فعددكم فى المدرسة سيكون كبيراً .

ولاحظ دانييل (اليوم) نبرة غير مألوفة فى صوتها بدت مثل جسم غريب ، ثم إنها مسحت طرف أنفها الأخرى بظاها يدها وابتلعت ريقها . فقال فى نفسه : « لأبْد أن الظرف خاص جداً . فأمرى تسمح لنفسها بما تمنعنى منه فى أوقات أخرى » ، وأحس برغبة شديدة وصداقة فى البكاء . وواصلت أمّه كلامها :

- - اعتن بنفسك وبملايسك يا ولدى . فأنت تعلم كم كلف أباك كل هذا . اننا فقراء . ولكن أباك يريد أن يكون لك شأن فى الحياة . إنّه لا يريد أن تشقى وتتعب مثله .

وأردفت وهى تنظر إليه حاملة :

- إن بإمكانك أن تصبح ذا شأن ، ذا شأن كبير فى الحياة يا صغيرى أنا وأبوك لم نرد أن يبد من ناحيتنا أى تقصير .

عاودت ابتلاع ريقها وسكتت . وردد (اليوم) مع نفسه : « ذو شأن كبير فى الحياة » . وهزّ رأسه . إنه لا يدري كيف يمكن للإنسان أن يصبح ذا شأن كبير فى الحياة . إنه يحاول جاهداً إدراك ذلك . ذو الشأن الكبير عنده رجل مثل پاكو الحدّاد بصدرة الواسع وبعارضيه المرتفعين وشعره الكث الأحمر وبمظهره القاسى المتجهّم الذى يذكّر بوجه اله قديم . وذو الشأن الكبير عنده أبوه الذى جندل من ثلاث سنين مضت حداة عظيمة تبلغ الترين باعاً . لكنّ أمّه لا تقصد هذا النوع من العظمة ،

إنها تفكر فى تلك التى يتصف بها دون مويسيس المعلم أو دون رامون الصيدلى الذى نصّب عمدة للبلدة من أشهر . إن والديه يتطلعان أن يبلغ عظمة من هذا القبيل ، لكنه ما كان راغباً فى هذه الأنواع من العظمة ، بل لم يكن معنياً بعظمة ولا راغباً فى تقدّم .

وتقلّب فى الفراش وانكفاً على وجهه محاولاً التخفيف من إحساسه بالقلق الذى بدأ يكوى جوفه ، فهكذا يشعر براحة أكبر ، وهكذا يتحكم بعض الشيء بقلقه . ولكن ما الفرق بين الانكفاء على الوجه أو الاستلقاء على الظهر مادام سيركب فى غده قطار التاسعة السريع المتّجه إلى المدينة ويودّع حينها كلّ شيء . لو أنه . . . ولكن الوقت قد فات . فمئذ سنوات وهذا المشروع يداعب فكر أبيه ، فليس فى مقدوره إذاً أن يغامر بتدمير كل شيء فى خبطة رأس عابرة . إن أباه يريد أن يحقق فيه كل ما لم يقدر هو على تحقيقه . إنها مسألة هوى ليس غير ، ولل كبار فى أهوائهم أحياناً عناد وغرابة تفوقان ما لدى الصغار منهما . والغريب أن فكرة تغيير نمط الحياة التى تعذب دانييل الآن كانت من أشهر مضت تروقه له . فمئذ ستة أعوام تقريباً وهو يعلم بخطط أبيه بشأن مستقبله . فلطالما تنصت على والديه ، وهما يتحدثان فى الطابق السفلى أثناء الليل بعد إيوائه إلى الفراش ، رغم أن القس دون خوسيه ، وهو قديس عظيم ، يردد دائماً أن التنصت على أحاديث الآخرين خطيئة . فمن بين شقوق الأرضية الخشبية كان يمكنه مشاهدة الموقد وطاولة الصنوبر والمقاعد وطاولة صنع الجبن وكل معدات المعمل ولوازمه . كان دانييل (اليوم) يتنصت وهو مستلق على الأرض فى مكانه ذاك . كانت تلك عادة فيه . ومع همس الحديث كانت تتصاعد من

الطابق السفلى رائحة اللبن الحامضة وقوالب القش المستسخة . كانت تعجبه رائحة اللبن المختمر الحادة والأدمية تقريباً .

كان أبوه ليلتها متكئاً على طاولة صنع الجبن بينما راحت أمه ترفع فضلة العشاء . مضت ستة أعوام تقريباً منذ أن رأى دانييل (البوم) ذلك المشهد ، مع ذلك فقد ظل ارتباطه بحياته قوياً حتى أنه ليتذكره الآن بكل تفاصيله .

- لا . سيكون للولد شأن آخر . كونى على ثقة من ذلك . إنه لن يقضى حياته مربوطاً إلى هذه الدكة مثل العبد ، أو قولى مثلى .

وتفوه بكلمة نابية وضرب بقبضة متشنجة على الطاولة . لقد بدا وكأنه ساخط على أحد ، وأن يقلح دانييل (البوم) فى معرفة من يكون ذلك الاحد . لم يكن دانييل حينها يدرك أن الرجال قد يسخطون على الدنيا وعلى نظام للأشياء يعتبرونه مهيناً وجائراً . كان يعجبه أن يرى أباه مغتاظاً لأن عينيه تقدحان ساعة الغضب شرراً ولأن عضلات وجهه تتقلص فيعتقد عندها شبه بينه وبين باكرو الحداد .

- ولكن ليس فى مقدورنا مفارقتة ، إنه ولدنا الوحيد . لو كانت لدينا بنت على الاقل ، ولكن بطنى ، كما تعلم ، يس وماعدنا قادرين على إنجاب البنت ، وقد قال دون ريكاردو آخر مرة إننى صرت عاقراً بعد الإجهاض .

وأطلق الأب شتمة أخرى ثم أضاف دون أن يبدل جلسته :

- اتركى الكلام فى هذا الموضوع ، فما عاد من فائدة . ولا تنقري فى أمور منتهية .

وتأوهت الأم وهي تجمع فى علبة صدئة فتات الخبز من على الطاولة
ثم أضافت :

- ربما لا يصلح الولد للدراسة . إن من السابق لأوانه الحديث عن كل هذا . كما أن إقامته فى المدينة تكلف الكثير . ونحن لا نقدر على ما يقدر عليه الصيدلى رامون أو السيد القاضى لأننا لا مال لدينا .

وراح الأب يحرك قلب جن بين يديه بعصبية . وأدرك دانييل (اليوم) أن أباه يجاهد نفسه كى لا يزيد فى آلام زوجته . وأضاف بعد برهة :

- دعى تدبير هذا الأمر لى . إما أن يصلح الولد للدراسة أو لا يصلح فذلك يعتمد على ماعنده من مال . أظن كلامى مفهوماً . ونهض الأب وراح يبعثر بالعصا الجمرات التى كانت ماتزال متوهجة فى الموقد . أما الأم فقد جلست مسبلة يديها الحشتتين على حجرها منهكة خائرة خاوية وبلا حول .

وعاود الأب توجيه كلامه إليها :

- القضية محسومة فلا تفتحى باب الموضوع ثانية . سيذهب الولد إلى المدينة عندما يبلغ الحادية عشرة ليبدأ دراسته الثانوية . ولم تردّ الأم بشئ بل تنهّدت مستسلمة . أما دانييل (اليوم) فقد رقد وهو يتساءل عن معنى قول أمه إن بطنها قد ييس وإنها صارت عاقراً بعد الإجهاض .

الفصل الثانى

ولكن دانييل (البوم) يعرف الآن معنى أن يكون البطن يابسا ويعرف المقصود بالإجهاض . وفكّر فى روكى (البعور) الذى لولاه لبقى ، على عمره ، جاهلاً بمعنى البطن اليابس والإجهاض . فروكى (البعور) يعرف الشيء الكثير عن « هذا » . ولطالما نصحته أمه بالابتعاد عن روكى لأن (البعور) نشأ محروماً من أمه ولأنه يعرف الكثير من البذاءات . ولطالما رددت (الفلفلات) أنه لكثرة مصاحبته (البعور) صار مثله صعلوكا قليل الأدب .

أمّا دانييل (البوم) فكان ينبرى دائماً للدفاع عن صاحبه ، ولكن أهل البلدة ما كانوا يفهمونه أو ما كانوا يريدون أن يفهموه . فأن يعرف روكى الكثير عن « هذا » لا يعنى أنه قليل الادب ، وأن يكون قوى الجسم كالثور أو كأيّيه الخدّاد لا يعنى أنه شرير ، وأن يحتفظ أبوه الخدّاد بقربة النبيل إلى جوار الكور يعبّ منها بين الحين والحين لا يعنى أنه سكير مدمن ، كما لا يصحّ الجزم بأن روكى (البعور) صعلوك كأيّيه لمجرد العلم بأن « العصا من العصية » . دانييل (البوم) يعلم جيداً أنها سلسلة من الأكاذيب وحسب ، لأنه يعرف روكى وأباه حق المعرفة . أما موت امرأة پاكو الخدّاد ساعة وضعها (البعور) فلا ذنب لأحد فيه ، كما لا ذنب لأحد فى ألاّ تحسن أخته سارة تربيته وهى التى فيها من الفظاظة والصرامة ما يخرج بها من خانة بنات حواء . كانت سارة فتاة حمراء الشعر شعثناء ، جسيمة قوية كأيّيه وأخيها ، وقد تولت مسؤولية البيت منذ موت أمها ، وكان دانييل (البوم) يتصور أحياناً أن أم روكى (البعور) لم تمت إلاّ لأن شعرها

لم يكن أحمر ، فقد يكون الشعر الأحمر بالفعل سبباً في إطالة العمر أو على الأقل ضرباً من التعاويذ التي تقى الانسان وتحفظه . ومهما يكن من شيء فقد ماتت أم (البعور) ساعة ولادته ، ومنذ ذلك الحين تعاملت معه أخته التي تكبره بثلاثة عشر عاماً وكأنه قاتل لا يرجى له صلاح . إنها فتاة ضيقة الصدر وذات طبع حاد نزق ، وقد رآها دانييل (اليوم) أول ما رآها وهي تنزل السلم راكضة في إثر أخيها شعشاء تبعث على الرعب وتصرخ كالمجنونة :

- حيوان وأكثر من حيوان ، بل إنك حيوان من قبل أن تولد .

بعد ذلك سمعها تردد هذه المقطوعة ماثت بل آلاف المرات ، ولكن روكي (البعور) ما كان يأبه لذلك . ولا شك أن أشد ما جعل سارة حادة الطبع صعبة الأخلاق هو فشلها اللدريج في أسلوبها التربوي . لقد ثمرّد (البعور) منذ صغره على (البعيع) و (صاحب الجراب) والغول ، وكان له في قوته البدنية ما ألهمه تلك الاستهانة التامة بكل ما ليس هو من صنف الرجال الحقيقيين ، بعظامهم وعضلاتهم ودمهم الذي يجرى في عروقهم . وعندما كانت سارة تهدد أخاها قائلة : « روكي ، لا تفعل هذا وإلا جءك البعيع » ، كان (البعور) يبتسم بخبث وكأنه يقول متحدياً : « وأنا بانتظاره ، فليأت » . لم يكن عمره يتجاوز آنذاك الثلاث سنين وما كان بعد قادراً على الكلام . فتستشيط سارة غيظاً وهي ترى تهديدها يقابل بلامبالاة الصغير واستهزائه .

وصار (البعور) يكبر شيئاً فشيئاً ، وراحت أخته تلجأ إلى طرق أخرى ، فاعتادت ، إن هو ارتكب حماقة ، أن تحبسه في المتبن لترتل عليه من خارجه ويصوت متأن كثيب صلاة المحتضر .

ومازال دانييل (اليوم) يذكر احدى زياراته الأولى لبيت صديقه .
كان الباب نصف مفتوح والدار تبدو خالية فما كان يشاهد فى داخلها من
أحد ولا يسمع فيها صوت . كان السلم المؤدى إلى الطابق العلوى يتصب
أمامه يغريه بالصعود ، ولكنه اكتفى بالنظر إليه والإمساك بمحجره . كان
وقتها قد سمع بسارة ، ثم إن السكون الغريب كان يبعث فى قلبه رهبة
غامضة . وبينما هو مشغول بالإمساك بسحلية كانت تحاول النفاذ بين
بلاطات مدخل الدار طرقت سمعه رشقة من الشتائم الغاضبة انبعثت من
فوق متبوعة بصفقة باب مدوية وهنا قرّر أن ينادى وهو متهيّب بعض
الشيء :

- بعرو يا بعرو .

فانهال عليه سيل من عبارات التوبيخ أحس معها بالانكماش :

- من يكون هذا الوقح الذى ينادى ؟ ليس بيننا من يتسمّى بـ
(البعرو) كلنا فى هذا البيت لنا أسماء قديسين . هيّا انصرف من هنا .

ولم يدرك دانييل (اليوم) لماذا بقى وقتها ورغم كل شيء مسمرًا على
الأرض كالصنم . لقد بدا جامداً أخرس مقطوع النفس . وسمع حينها
صوت سارة يأتى من فوق فأصغى إليه . كانت عباراتها الفخمة تنهمر من
خلال السلم مثل مطر قاتم كثيب :

- عندما تخبرنى قدمائى ، وهى بلا حراك ، بأن طريقي فى هذا
العالم موشك على نهايته .

ويأتى صوت (البعرو) من بعد قائماً حقيماً وكأنه ينبعث من غيابة

بئر :

- رحماك يا يسوع .
- عندما تسمّر عيناى المزججتان الجاحظتان نظراتهما الواهنة المحتضرة
فيك فرقاً من الموت الوشيك . . .
- رحماك يا يسوع .
- ويسيطر على دانييل (البوم) رعب غامض يصيبه بقشعريرة . أما
تلك الترتيلة الكثيبة فكانت تدغدغه فى نخاع عظمه . لكنه مع ذلك لم
يتحرك من مكانه بسبب فضول مبهم غريب كان يلح عليه . ويعود صوت
سارة رتيباً :
- عندما أفقد حواسى ويختفى العالم من ناظرى وأئن تحت وطأة
النزع الأخير ومغالبة الموت .
- ويعود صوت (البعور) واهناً مبهماً هادئاً وهو ينبعث من المتبن :
- رحماك يا يسوع .
- ولما انتهت سارة من عقابها الشفوى بدا نفاذ صبر على روكى :
- هل انتهيت ؟
- نعم .
- افتحى إذاً .
- ولكن السؤال اللاحق كان ينم عن غيظ لم تحسن سارة كظمه :
- هل اتعظت ؟
- كلا .
- لن أفتح إذاً .

- افتحى وإلا كسرت الباب ، فقد انتهت العقوبة .
- وفتحت له سارة مرغمة . أما (البعور) فقال وهو يمر من أمامها :
- لم تخيفينى اليوم كبقية الأيام .
- وفقدت الأخت أعصابها فقالت وهى تستشيط غضباً :
- اخرس أيها الخنزير . يوماً ما سأقطع لسانك ، يوماً ما . . يوماً ما . . لا أدري ماذا سأفعل بك يوماً ما .
- لا ، سارة ، لا تقربى ناحيتى ، فلم يخلق بعد من يمسنى بأذى .
إئنى أحذرك .
- وتوقع دانييل (اليوم) سماع دوى صفعة ، ولكن يبدو أن سارة فكرت فى الأمر جيداً فلم يحدث ما توقعه . وسمع دانييل وقع خطوات صاحبه وهو ينزل بشقة على درجات السلم . فخرج من الباب المردود تدفعه غريزة الكتمان والعفة لينتظره فى الشارع . ولما صار (البعور) إلى جانبه قال له :
- هل سمعت ما قالت سارة ؟
- ولم يجرؤ دانييل (اليوم) على الكذب فقال :
- نعم سمعتها .
- أرايت كم هى ثرثرة ملعونة ؟
- الحق أنها أخافتنى - أجابه (اليوم) مضطرباً .
- لا عليك يا صاحبي ، فكل ما قالته عن العيون الجامدة والأقدام

التي لا تتحرك إنما هو محض هراء . فأبى يقول أنك عندما تسلم الروح
فلن تشعر بشيء .

وحرك (اليوم) رأسه متشككاً :

- وكيف يعرف أبوك ذلك ؟

لم يكن روكى (البعور) فكّر فى ذلك من قبل ، فتردد لحظة ثم
قال :

- وما أدرانى أنا فلعل أمى قالت له ذلك وهى تموت . أنا لا أذكر
ذلك .

ومنذ ذلك اليوم صار (البعور) محط إعجاب دانييل (اليوم) .

لم يكن (البعور) ذكياً ، ولكنه يظهر حيثما تتأرم الأمور مع الكبار .
كان يبدو أحياناً رجلاً فى جرائه وشخصيته . أنه لا يرضخ لمواقف مفروضة
ولا لعدالة متذبذبة متقلبة الأهواء ، كتلك السائدة فى المنزل بالطبع . أخته
تحترمه ، وليست كلمته صفراً على الشمال كما هو الحال معه ، بل إنها
تعادل كلمة رجل يحسب له حساب سواء فى البيت أم فى الشارع ،
فللبعور شخصيته . ومع مرور الوقت ازداد إعجاب (اليوم) بـ
(البعور) . كان هذا دائم العراك مع صبيان البلدة ، وكان هو الغالب
دائماً دون أن يصاب بسوء يذكر . لقد شاهد دانييل ذات مساء وهو يشبع
طبال فرقة شعبية ضرباً بالعصا ، ولما تعب من ضربه حشر رأسه فى الطبل
فبدأ كالقبة على رأسه . وضحك الناس كثيراً . كان عمر الطبال يقرب
من العشرين بينما لم يتجاوز (البعور) حينها الحادية عشرة . ومن ساعتها

أدرك (اليوم) أن روكى شجرة كبيرة يمكنه الاحتماء بها فلازمه على الرغم من أن تلك الصداقة كانت تدفعه أحياناً إلى مضاعفة جرائه ، وربما أوردته بضع مسطرات من دون موييس المعلم ، ولكن ما أكثر ما حماه (البعور) ودفع عنه الأذى . مع هذا فليس من حق أم دانييل ولا دون خوسيه القس ولا دون موييس المعلم ولا (الفلقة) الكبرى ولا (الأرنبات) أن يصفوا روكى بأنه صعلوك قليل الأدب فما كان (البعور) يتشاجر إلا لقضية عادلة أو لهدف نبيل ، ولم يحدث أن تشاجر مرة باطلاً أو لمجرد الرغبة في الشجار .

أما أبوه باكو الحداد فشأنه مختلف . فهو يعمل أكثر من أى إنسان آخر ويكسب من المال ما يكفي . وبما أن أهل البلدة فى رأى (الفلقة) الكبرى و (الأرنبات) صنفان : صنف يكسب القليل ، يقولون عنه إنه حشد من الكسالى المتسكعين ، وصنف يكسب الكثير ، يقولون عنه إنه صنف الذين يعملون لينفقوا مالهم فى شرب النبيذ ، فقد كانوا يطالبون بحال وسط يصعب بلوغه والوصول إليه . ولكن باكو الحداد ، والحق يقال ، ما كان يشرب إلا لحاجة ، ودانييل (اليوم) يدرك ذلك تماماً لأنه يعرف باكو حق المعرفة : فإن هو لم يشرب فإن الكور لن يشتعل ، ولطالما ردّ قائلاً : « حتى السيارات لا تسير من دون وقود » ليتناول جرعة وليعاود بعدها عمله بحماس أكبر ومثابرة أشد . وكل هذا يصب أولاً وأخيراً فى مصلحة البلدة ولكن البلدة ما كانت تشكر له ذلك بل تصفه بقلّة الحياء والعريضة . ومن حسن الحظ أن الحداد صبور كولدته ، فما كانت تلك الشتائم تثير حفيظته حتى أن دانييل (اليوم) كان يعتقد أنه إن حدث

وغضب الحداد يوماً فلن يبقى في البلدة حجراً على حجر بل سيدمر كل شيء كالإعصار .

وما كان يصح أيضاً اتهام الحداد بالتحرش بالفتيات المآرات من أمام دكانه ودعوته لهن بالجلوس معه برهة لتبادل الحديث وتناول الشراب . فهو رجل أرمل وعمره يؤهله للزواج ثانية كما أن له في ضخامة جسمه ما يحببه إلى النساء . ألم يتزوج دون انطونينو (الماركيز) ثلاث مرّات ومع ذلك واصل الناس مناداته بدون انطونينو وواصلوا رفع قبعاتهم تحية له عند ملاقاته وواصل هو احتفاظه بلقب (الماركيز) ؟ . ولكن لئن لم يتزوج باكرو الحداد ثانية فلن لا يأتي لأولاده بزوجة أب وليس لكى يوفر النقود اللازمة لشرايه كما تدعى بخبث (الفلقة) الكبرى و (الأرنبات) .

كان باكرو الحداد يشرب أيام الأحد والأعياد في حانة (الجانو) حتى الشمال . هذا ، على الأقل ، ما تقوله (الفلقة) الكبرى و (الأرنبات) عنه . وه صبح ما يقلن ، فلا بد أن للحداد دوافعه القوية التي تتمثل في نسيان ستة أيام من العمل انقضت وستة أخرى قادمة لن يذوق فيها طعماً للراحة . فما أكثر ما تكلف الحياة الرجال ، وما أقل ما ترحمهم .

وقد يعكر الكحول مزاج باكرو فيدخل في مشادات حامية في حانة (الجانو) ولكنه ما كان يبلغ حد إشهار السكاكين وأن أقدم خصومه على ذلك . وتصفه (الفلقة) الكبرى و (الأرنبات) بأنه شقى مقرف وهو الذى ما كان يتشاجر إلا بصدر مكشوف والابأعلى مراتب الشهامة . والحق إن ما يغضب (الفلقة) الكبرى و (الأرنبات) والمعلم والقيمة على بيت (الماركيز) وأم دانييل والسقس هي عضلات الحداد المقتولة وشخصيته

الفئة وقوته البدنية . ولو كان پاكو وولده هزيلين ناحلين لما ألقى الناس أن يكونا سكيرين أو معردين ، لأن في مقدورهم حينها الإطاحة بالاثنين بصفحة واحدة . ولكن الأمر يختلف عندما يكون الجسم ضخماً قوياً ، ولذا فهم يكتفون بشتهم غيبة . وما أحسن ما كان يقول اندريس الاسكافي :

« عندما تختفى العضلات من الذراعين تظهر في اللسان » .

حتى دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ، كان يحمل في داخله الاعجاب لپاكو الحداد مع أنه يجاهر بإدائه على تجاوراته . وهو مهما حمل على الحداد فإنه لن ينسى ما حدث في « عيد العذراء » من أعوام مضت عندما مرض توماس ولم يقدر على الحضور لرفع المحقة ، وعندما اضطر خوليان ، وهو من حملتها الدائم أيضاً ، إلى مغادرة المكان لسفر مفاجئ . وساءت الأمور إذ لم يظهر البديل ، وفكر دون خوسيه القس في تأجيل الموكب ، ولكن پاكو الحداد حضر إلى الكنيسة ليقول بتواضع :

- إن رغبتم ، حضرة القس ، فإن في مقدوري الطواف بالعذراء في البلدة ، ولكن بشرط أن أقوم بذلك لوحدي .

وابتسم دون خوسيه بخبث للحداد :

- اشكرك يا ولدي على همتك ، وأنا لا أشك في مقدرتك ، ولكن التمثال يزن أكثر من مائتي كيلو .

وطأطأ پاكو الحداد رأسه تواضعاً وقال :

- في استطاعتي ، سيدي القس ، حمل مائة أخرى . ثم إنها ليست

المرّة الأولى . وطافت العذراء بالبلدة محمولة على كتفى پاكو الحداد القويتين ، طافت بخطى بطيئة ، وتوقفت فى أربع محطّات : فى الساحة وأمام البلدية ومقابل البريد وفى فناء الكنيسة عند العودة حيث أنشدت ، كما جرت العادة ، تحية العذراء . وعند انتهاء الموكب أحاط الصبية بپاكو الحداد يرمقونه بنظرات الاعجاب بينما راح هو يطلب منهم وقد رسم على وجهه ابتسامة صبيانية أن يعاينوا قميصه فى الصدر والظهر وتحت الإبطيين :
- انظروا ، انظروا ، لم أعرق ، لم أعرق ، لم تخرج منى قطرة عرق واحدة .

ولامت (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) القس دون خوسيه أن سمح لاشد سكان البلدة لخطيئة أن يرفع محفة العذراء على كتفيه ، وعدّوا ما قام به پاكو الحداد من فعل خيّر مجرد استعراض قوة أثيم . ولكن دانييل (البوم) كان محقّقاً فى ظنّه : فما لا يمكن غفرانه لپاكو الحداد يكمن فى بنيته ، فى كونه أقوى رجال الوادى ، كل الوادى .

الفصل الثالث

الوادی ذلك الوادی یعنی الكثير بالنسبة إلى دانییل (البوم) ، بل هو كل شيء عنده . ففيه ولد ، ولم يتخط في سنّيه الإحدى عشرة سلسلة الجبال العالية التي تحيط به ، بل لم يشعر بالحاجة إلى ذلك . وكان دانییل (البوم) أحيانا يوافق أباه والقس والمعلم اذ يشبهون الوادی بقدر كبير مستقل ومنعزل تماما عن العالم الخارجى ، مع ذلك فليس هو كما يصفون ، فللوادی حبله السرى ، بل حبله السريان اللذان يمدّانه بالقوة والنشاط من جهة ، وبالضعف والانحلال من جهة أخرى . أنهما سكة القطار والطريق العام يقطعانه من جنوبه إلى شماله : يصدران من سهول قشتالة البنية الجافة وينحدران صوب سهول البحر السماوية ليشكّلا حلقة وصل بين عالمين واسعين متناقضين .

وتشابه سكة القطار والطريق العام والنهر ألف مرة ومرة وهى تقطع الوادی مكوّنة مخطّطا مضطربا من الجسور والأنفاق ونقاط مرور القطارات والقناطر . أمّا النهر فينضم إليهما بعد أن يندفع فى ثورة من الانحدارات والسيول المتدفقة من أعالي قمة جبل راندو . كان روكى (البعور) ودانییل (البوم) قد اعتادا أيام الربيع والصيف الجلوس ساعة الأصيل فوق أى مرتفع بسيط من الأرض ليتأملا ، وقد أعياهما ما يوشك أن يكون تعبدا ، حيوية الوادی الفاترة المتواصلة . كانت السكة والطريق يرسمان فى الوادی خطوطا متعرجة حادة وكثيرة ، تتجاذب أحيانا وتتنافر أحيانا أخرى ولكنها تبدو فى المخطط دائما مثل أخدودين أبيضين مفتوحين فى خضرة

كثيفة من المروج وحقول الذرة . ومن بعيد كانت القطارات والسيارات والبيوت البيض تتضاءل فتبدو كتمائيل « الميلاد » بعيدة إلى درجة لا تصدق وفي متناول اليد إلى درجة غير مفهومة .

وقد يظهر قطاران أو ثلاثة في وقت واحد وقد ارتفعت فوق كل منها كتلة من الدخان معلقة في الفضاء يتصدّع لها تناسق المرج النباتي الرضاء . وكم هو ممتع خروج القطارات من فتحات الأنفاق . انها تطلّ كالجلداجد التي كان هو و (البعور) يتبولان عليها حتى تغرق في جحورها . فالقطار والجلداجد يبديان ، وهما يخرجان من جحريهما ، تعبيرا واحدا قوامه اللهات والفزع والاختناق . كان يروق لـ (البوم) الاحساس بأن الوادى يلفه بهدوئه الساكن الرائق ، ويعجبه تأمل المساحات الخضراء المجزأة والمزروعة بالضياح المتناثرة ، أو بقع غابات الكستناء الداكنة الكثيفة أو سلم الألوان الفاتحة الخامدة الذي تولّفه غابات أشجار الكينا . أو الجبال البعيدة التي انتصبت في كل الانحاء والتي تبدّل هيأتها بحسب الفصول والمناخات لتتراوح بين شحة نباتية ظاهرة وكثافة داكنة رمادية جامدة في الأيام المعتمة ما كان يروق لـ (البوم) شيء أكثر من ذلك المشهد ، ربما لأنه لم يألّف غيره . وكان يعجبه التحقق من خمود الحقل وثورة الخضرة ودفقات الصخب والحركة القادمين من المدينة بين وقت وآخر في دقة تضاهي دقة الساعة .

ولطالما فقد ، وهما يرقبان توقف الطبيعة وسكونها ، الاحساس بالوقت فيدركهما الليل ، وتمتلىء قبة السماء بالنجوم فيرتاع روكى (البعور) بتأثير ضرب من الفزع الكوني . كانت ترد على باله في مثل هذه الأحوال

من الظلمة والانقطاع عن العالم ، أفكار غريبة وخواطر لا تشغل باله فى الأحوال الاعتيادية .

سأل مرة :

- (بوم) ، لو أن نجمة من تلك سقطت فهل يمكن ألا تصل إلى القاع أبدا ؟

ونظر دانييل (البوم) إلى صديقه وقد بدا عليه أنه لم يفهمه :

- لا أفهم ماذا تقصد .

كان (البعور) يجاهد قصوره فى التعبير ، حرك يديه مرارا ليقول فى النهاية :

- النجوم فى الهواء ، أليس كذلك ؟

- بلى .

- والأرض هى الأخرى فى الهواء كبقية النجوم ، أليس كذلك ؟

- بلى . هذا ما يقوله المعلم على الأقل .

- حسناً هذا ما أقصده . فلو أن نجمة سقطت ولم تصطدم لا بالأرض ولا بأية نجمة أخرى فهل ستصل إلى القاع ؟ أليس لهذا الهواء الذى يحيط بالنجوم من قاع ؟

وأطرق دانييل (البوم) مفكراً للحظة ، وقد بدأ اضطراب كونه مبهم يسيطر عليه ، فخرج الصوت من حنجرتة مترددا مرهفا وكأنه بكاء :

- (بعور)

- ماذا ؟

- كُفّ عن هذه الاسئلة فقد أصبت بدوار .

- دوار أم خوف ؟

- ربما بالاثنتين .

وضحك (البعور) ضحكة متقطعة ثم قال :

- سأقول لك شيئا .

- ماذا ؟

- أنا كذلك أخاف من النجوم ومن كل هذه الأشياء التى لا يحيط بها شئ ولا تعرف لها نهاية . ولكن اسمع ، لا تقل ذلك لأحد . لا أريد أن تعرف أختى سارة عن ذلك شيئا على الاطلاق .

كان (البعور) دائما يختار أوقات الهدوء والعزلة هذه للبحر بأسراره فقد كانت الجبال الشامخة بقممها الضخمة المتصدعة فوق الأفق تملأ (البعور) بإحساس مهين بالضآلة . وفكر دانييل (البوم) : لو عرفت سارة بنقطة الضعف هذه لسيطرت على (البعور) بسهولة . لكنه بالطبع لن يصّرح لها بشئ ، فسارة بنت مكروهة وقاسية ، أمّا روكى فهو خير أصدقائه ، فلتكتشف بنفسها الرعب المبهم الذى تبعثه النجوم فى قلب (البعور) .

كان نبض الحياة فى الوادى يبدو ، ساعة العودة إلى البلدة مساء ، أشد وضوحا وحضورا . فمن قطارات تطلق صفاراتها فى المحطات المتناثرة لتجرح الفضاء بصفيرها الحاد كالسكين ، ومن أرض تعقب برائحة التراب

الندى وروث البقر ، ومن عشب تنبعث منه رائحة قوية أو خفيفة تبعاً لحالة الجو أو لهطول المطر .

كانت تلك الروائح تروق لدانييل (البوم) كما كان يروق له أن يسمع فى هدأة الليل خوار بقرة ناعساً أو أنين عربية رتيباً وهى تتقدم على الطريق متعثرة تجرّها الثيران .

أما فى الصيف ، ومع تبدل الوقت ، فكانا يعودان إلى البلدة والوقت نهار . كانا يسيران فوق النفق ساعة مرور قطار المحافظات ، ويتظران وصوله بشوق وقد انبطحا على التل وأطلا بأنفيهما على الهاية . وتنبتهما الجلبة المنبعثة من جوف الوادى باقتراب القطار . وما إن يخرج القطار من النفق متلفعا بسحابة دخان كثيفة حتى ينفجر الاثنان فى نوبات من العطاس والضحك . أما القطار فينسحب تحت بصريهما بطيئاً هادئاً رتيباً فيوشكان أن يمساها بأيديهما .

وينزلان من هناك سالكين درب الرعاة للوصول إلى الطريق العام . كان النهر يمرّ من تحت الجسر هادراً كالشلال ، إنه سيل ينحدر من الجبل مندفعاً بقوة بين صخور عظيمة لا تتأثر بتعرية ولا بتآكل .

ولكن سرعان ما يهدأ صخب مياهه الداكنة بعد عشرين متراً حيث تمتد « بركة الانكليزى » التى اعتادوا الاستحمام فيها ساعات القيقظ الصيفية .

عند ملتقى النهر بالطريق العام وعلى مسافة كيلو متر واحد من البلدة تقع حانة كينو (الأقطع) . ويتذكر دانييل (البوم) أيام الخير ، أيام الصفقات السهلة الرخيصة ، أيام كان كينو (الأقطع) يقدم لهما قدحاً

كبيراً من عصير التفاح المحفوظ مقابل خمسة سنتات فضلاً عن الحديث معهما . ولكن الأمور تغيرت مؤخراً . وما عاد كينو (الأقطع) يقدم لهما لقاء ذلك المبلغ غير الكلام .

كانت الحانة خالية من الرواد معظم الوقت . وكان (الأقطع) كريماً إلى حد الإسراف ، وإن من الطيش أن يكون المرء كريماً في هذه الأيام ، ولكن الحانة ما عادت تقدم لسبب أو لآخر غير نبئذ ردىء ، يطفىء به عمال وعاملات معمل المسامير الكائن على مسافة ٥٠٠ متر إلى الجنوب ظمأهم

ويلى الحانة ، بعد اجتياز آخر منعطف إلى جهة اليسار ، دكان والد (البوم) ، وتقع قبالته المحطة المتوغلة قليلاً فى الحقول ، وإلى جوارها بيت كوكو ، مأمور المحطة ، بلونيه الأبيض والأحمر وبمظهره البهيج . وبعد ذلك ، ومع نهاية الانحدار ، تبدأ البلدة بمعناها المحدد الصحيح . أنها بلدة صغيرة منزوية عادية . لبيوتها الحجرية شبايك خشبية مفتوحة ومعلقة ومطلية عموماً بلون أرزق يقف فى الربيع والصيف ازاء الأنخضر والأحمر فى الجيرانىو الذى يملأ الشاييك والشرفات .

والصيدلية هى أول ما يظهر من المباني على جهة اليسار ، تليها اصطبيلات دون رامون الصيدلى العمدة وهى اصطبيلات رائعة مليئة بالابقار المنتفخة مرضاً أو عافية . وفى باب الصيدلية جلجل يصرف برنينه دون رامون عن واجباته البلدية ويعيده خلال دقائق إلى مهنته . وتتقدم صعودا فنصادف قصر (الماركيز) المسور بسياج عال من الحجر الأملس الصلب ، ثم ورشة الاسكافى ، ثم البلدية وقد ظهر شعار قديم على واجهتها . ثم دكان (الفلقات) ذو الواجهة الزجاجية الملونة التى أعيد ترميمها ،

ثم الفندق الذى يحتل بشرفته الزجاجية الشهيرة اثنين من جوانب البناية . وعلى يمين الفندق تقع الساحة المغطاة بالبرور والحصى وقد توسعتها نافورة ذات ماسورتين . وتنتهى الساحة من الطرف الآخر ببناية المصرف تليها ثلاثة بيوت لكل منها حديقته الأمامية . أما على اليمين مقابل الصيدلية فتقع مزرعة خيرادو (الأمريكى) التى تنتج أفضل ثمار المنطقة واصطبل بانجو (الملحد) حيث أقيمت دار السينما ، وحانة جانو ثم ورشة (الحداد) ثم دائرة الهاتف التى تديرها (الأرنبات) ثم متجر انطونيو (الحوصلة) ثم بيت دون خوسيه القس ومكتبه فى الطابق الأرضى منه . على بعد ٣٠٠ متر نزولاً تقع الكنيسة ذات البناء الحجرى والطرار المعمارى غير المحدد والبرج المنتصب الرشيق . وبازائها بناية المدرسة الجديدة المطلية بالكلس الأبيض بشبابيكها الخضراء ثم سكن دون موسيس المعلم . فالبلدة ، وبمنظرة سريعة كهذه ، لا تختلف عن سواها الكثير . . أما بالنسبة إلى دانييل (البوم) فكل ما فى بلدته يختلف تماماً عما فى غيرها فمشاكلها ليست اعتيادية ، ونظام الحياة فيها يفصح عن أصالة وجميع نشاطاتها تقريباً محمودة العواقب وإن لم يشأ الآخرون الإقرار بكل ذلك .

ولطالما وقف دانييل (البوم) يتأمل دروبها المتعرجة وساحتها المليئة بالبر والحصى وأبنيتها الكثيرة التى صممت بحسّ خدعى محض . ولكنه ما كان يستاء لذلك ، فالشوارع والساحات والأبنية لا تصنع البلدة ولا ترسم معالمها بل هم رجالها وتاريخها . ويعلم دانييل (البوم) أن هذه الشوارع المغطاة بالروث الطرى وهذه البيوت المحيطة بها شهدت مرور رجال عظام هم الآن مجرد ذكرى ولكنهم منحوا البلدة والوادى معنى وتناسقاً وأعرافاً ووقعاً وأسلوباً خاصاً ومنفرداً فى الحياة .

أيقول دون رامون العمدة إن البلدة تتصف بتزعة فردانية متطرفة وأن لا مكان فيها للمؤسسات العامة ؟ ، حسناً . إن (اليوم) لا يفهم معنى « النزعة الفردانية » ولا معنى « المؤسسة العامة » ولا ينكر ذلك ، ولكن إن كان هذا صحيحاً فإن عواقبه لا تتعدى حدود البلدة ، وبالتالي فالسكان يدفعون بأنفسهم ثمن خطاياهم .

أيقولون أنهم يفضلون عدم رصف الساحة إلا بعد زيادة الضرائب عليهم ؟ لا بأس ، ألم يمنع هذا أن تجرى الدماء أنهاراً . وينتهز دون رامون أية فرصة ويتكلم صارخاً « ما أسوأ الأمور العامة . إنها كارثة . فكل واحد ينظر إلى أموره الخاصة ناسياً أن هناك أموراً تخص الجماعة وأن من الواجب الالتفات إليها » . وليس هناك من يدرك أن هذه الأنانية إنما هي رهرة أو شوكة ، فضيلة أو رذيلة يتّصف بها جنس بأكمله .

ولكن ليس بالإمكان ، لأى من هذه الأسباب ، تجريد البلدة من صفات الكفاءة والجد والرصانة . صحيح أن كل انسان وشأنه ، ولكن المتسكعين ليسوا متسكعين لمجرد عدم رغبتهم فى المشاركة فى أعمال الآخرين . والبلدة ، بلا شك ، تمتلك كفاءة معتدلة ورصانة بناءة ، أما أن يقال عن (الفلقة) الكبرى وعن كوكو ، موظف المحطة ، إنها ثمانان ، فلا جسد يخلو من شامة . أما عن « فردانية » البلدة ، أفلا يكفى التقاء الشباب من فتية وبنات أماسى السبت والأحد ؟ . ولطالما صرّح دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ، مثلاً : « من المؤسف أن يحيا كل متألّذاته فى جميع شؤونه ، ثم لا نلتقى إلا لنغضب الرب » . ولكن دون خوسيه ما كان يريد هو الآخر أن يفهم أن هذه الحسية إنما هي رهرة أو شوكة ، فضيلة أو رذيلة يتّصف بها جنس بأكمله .

الفصل الرابع

مضت الأشياء فى وقتها ، ولكن دانييل (البوم) يتذكرها الآن بتلذذ كان الجبّان قد فكّر فى اسم لولده ولما يولد الصغير بعد . جهّز الاسم وصار يلقّيه ويحنو عليه فكأنه رزق بالولد حقاً . تم ولد دانييل . واستحضر (البوم) خطواته الأولى فى الحياة . كانت تنبعث من أبيه رائحة نفاذة ، فكأنه قطعة جبن عظيمة طرية بيضاء اللون ثقيلة الوزن . ولكن دانييل (البوم) كان يستمتع بتلك الرائحة التى تضمّخ أباه وتفيض عليه عندما يداعبه الأب فى ليالى الشتاء وهو يحكى له ، أمام الموقد ، حكاية اسمه . كان الجبّان يريد الولد ليكون فى مقدوره ، وقبل كل شيء ، أن يسميه دانييل . كان يحكى ذلك لـ (البوم) ولما يتجاوز هذا الثالثة من عمره وعندما كانت مداعبة جسمه الصغير المكّور البدين تعدل إطالة الوقوف أمام طاولة صنع الجبن . كان فى مقدور الجبّان أن يسمي ولده ساعة التعميد بألف اسم غير اسمه ، لكنه فضل أن يسميه « دانييل » .

- هل تعلم أن دانييل كان نبياً حشر فى قفص مع عشرة أسود لكنها لم تجرؤ على إيذائه ؟ - كان يقول له وهو يضمّه بقوة إلى صدره . إن رجلاً قادراً على ترويض جماعة من الأسود بنظرانه له قوة تفوق ما لدى الرجال جميعاً . كان حادثاً فريداً رائعاً فتن الجبّان منذ طفولته .

- أبى ، ماذا تفعل الأسود ؟

- تعصّ وتخمش .

- هل هى أسود من الذئاب .
- إنها أشد وحشية .
- ماذا ؟
- كان الجبان يسيطر الأشياء لولده كما تمضغ الأم الطعام قبل تقديمه إلى صغيها .
- أى إنها تؤذى أكثر من الذئاب ، هل فهمت ؟
- ولا يشبع دانييل (البوم) من السؤال :
- وهل صحيح أن الأسود أكبر من الكلاب ؟
- نعم ، إنها أكبر .
- ولماذا لم تؤذ دانييل ؟
- كان الجبان يجد متعة وهو يفصل الكلام حول تلك الحكاية :
- كان يغلبها بمجرد النظر إليها . لأنه يمتلك قوة الرب فى عينيه .
- ماذا ؟
- ويضم الولد إليه :
- لأنه من أولياء الله .
- وماذا يعنى هذا ؟
- وهنا تتدخل الام متحطة :
- دع الولد فإنك تعلمه أشياء أكبر من عمره .

وتنتزعه من أبيه وترقده . كانت رائحة اللبن المحلى والجبن القريش تنبعث من أمه أيضاً . فكل شيء فى بيتهم له تلك الرائحة بل كانوا هم أنفسهم رائحة لبن خالصة . وكان أبوه يحمل تلك الرائحة القوية حتى فى نهايات أظفاره السود . وما كان دانييل (اليوم) يفهم كيف تكون أظفار أبيه سوداً وهو الذى يشتغل فى اللبن ، أو كيف يخرج الجبن أبيض وقد مر من بين تلك الأظفار الداكنة السواد .

ومالئ أبوه أن ابتعد عنه ، فما عاد يداعبه ولا يلاعبه بعد أن أدرك أن الولد أصبح قادراً على التعلم بنفسه . حدث هذا عندما بدأ دانييل الذهاب إلى المدرسة وعندما لجأ إلى (البعور) بحثاً عن معين . مع ذلك فقد ظل أبوه وظلت أمه وكل ما فى الدار يحملون رائحة اللبن المحلى والجبن القريش وظلت تلك الرائحة تروق له رغم نفور روكى (البعور) منها وقوله بأنها تشبه رائحة القدمين .

ابتعد عنه أبوه كمن يبتعد عن شيء صار واكتمل وما عاد بحاجة إلى العناية ، وأصيب الأب بالخيبة وهو يرى ابنه مستقلاً غير محتاج إلى رعايته وحمايته . وبدا الجبان كذلك متجهماً الوجه معكر المزاج وهو الذى كان حتى ذلك الوقت مثل الكمثرى المجففة المحلاة بالسكر ، على حد وصف امرأته ؛ لقد غيّر حرصه المحموم على جمع المال طبعه ، والاقتصاد عندما يقوم على أساس التقصير فى الضروريات فإنه يحدث فى طبع الإنسان حدة ولؤماً . وهذا هو ما حدث للجبان ، فصار ينزعج لأى إنفاق طفيف أو أى مصروف إضافى . كان يريد الادخار وبأية طريقة ليصبح ابنه دانييل رجلاً فى المدينة وليتقدم فلا يكون مثله ، مجرد جبان معدم .

ولكن ما لا يفهمه دانييل (البوم) هو أنه ما من أحد يستفيد من هذا كله ، فأبوه يعانى ، وأمه تعاني ، وهو نفسه يعانى ولو انتهت معاناته فستتهى معاناة الآخرين . ولكن ذلك سيعنى التخلي عن الطريق والتسليم بأن دانييل ما عاد يريد التقدم ، وهو ما لن يقبل به أبوه الجبان ، فلا بد للولد أن يتقدم وإن كان الثمن تضحية العائلة كلها بدءاً به . كلا . إن دانييل (البوم) لن يفهم هذه الأمور أبداً ، لن يفهم عناد الرجال الذين يبررون سلوكهم بأنه رغبة منطقية فى التحرر . ولكن ، التحرر من ماذا ؟ وأين سيكون هو أكثر تحرراً : أفى المدرسة والجامعة أم فى مروج الوادى وهو يتراشق بالروث مع (البعور) ؟ . قد يكون على خطأ ولكنه لن يفهم هذه الأمور أبداً .

لم يدرك الأب كذلك ما أقدم عليه عندما سمى ولده دانييل ، فجميع الآباء تقريباً يجهلون ما يقدمون عليه ساعة تعمد أبنائهم . فلا أبو المعلم ولا أبو كينو (الاقطع) ولا أبو أنطونيو (الحوصلة) ، صاحب المتجر ، كانوا يدركون ما هم مقدمون عليه لحظة يصبّ دون خوسيه ، الماء المبارك على رأس الوليد ، ولو أنهم كانوا يدركون ذلك فلماذا أقدموا عليه مع علمهم بعدم جدواه ؟ وهكذا لم يدم لدانييل (البوم) اسمه إلا بمقدار ما دامت له طفولته الأولى ، حتى إذا دخل المدرسة عافه اسمه فما عاد يسمّى دانييل ، تماماً كما حدث لدون مويسيس المعلم بعد وقت قصير من وصوله إلى البلدة .

كان دون مويسيس رجلاً طويلاً هزيل الجسم متوتر الأعصاب ، كان هيكلاً من العظام المكسوة بالجلد . وقد اعتاد فتح فمه فكانه يحاول

عض شحمة أذنه ، وكانت حالة الانبساط تزيد من استدارة فمه ليصل فى انفراجه حتى سالفتيه . كان أمر ذلك الرجل غريباً ، حتى إنه أخاف دانييل (اليوم) وأثار اهتمامه من أول يوم عرفه . وصار هذا يدعو به (البيدق) كبقية الأولاد دون أن يعرف لتلك التسمية سبباً . وعندما قالوا له إن القاضى أطلق عليه هذه التسمية لأن دون مويسيس « يتقدم إلى الأمام ويأكل من الجانب » بدا عليه أنه فهم ولكنه واصل جهله سبب التسمية وواصل اطلاق اسم (البيدق) عن غير فهم .

أما دانييل (اليوم) فكان محباً للاستطلاع فعلاً . وكان يرى فى كل ما يحيط به جديداً ويعدّه حريقاً بالتأمل . وقد أثارت المدرسة ، كما هو طبيعى ، فضوله أكثر من بقية الأشياء ، وأثار فضوله ، أكثر من المدرسة نفسها ، (البيدق) المعلم وفمه المضطرب الذى لا يعرف الكلل وسالفتاه السوداوان الكتّان اللتان تدكران بسالفتى قاطع طريق .

وكان جيرمان ولد الاسكافى أول من لاحظ طريقة دانييل فى النظر إلى الأشياء ، إنها طريقة يقظة مدققة متطلعة .

- ألا ترون أنه ينظر إلى الأشياء كالمفزع ؟

ونظر إليه الجميع بإمعان قاتل . وأضاف أحد أبناء أخ (الماركيز) :

- وعيناه خضراوان ومستديرتان كعيني القط .

ثم حدّد آخر الوصف وقرّبه ليصيب فى الهدف :

- إنه ينظر كالهوم .

ولازمته التسمية رغما عن ابيه وعن النبی دانیيل وعن الأسود العشرة
المحبوسة معه في القفص وعن قدرة عينيه التنويمية .

وما كانت نظرات دانیيل (اليوم) قادرة ، خلافا لرغبات أبيه
الجبّان ، حتى على ترويض مجموعة من الصبيان . وبقي اسم « دانیيل »
مقصورا على بيته ، أما في خارجه فما عادوا ينادونه بغير (اليوم) .
وكافح الأب زمناً للحفاظ على اسم ولده ، بل لقد تشاجر يوماً مع بائعة
المربطات العجوز في القطار . ولكن جهوده ذهبت سدى ، لأن من
يحاول منع ذلك كمن يحاول منع تدفق مياه النهر في الربيع ، عبث في
عبث . ومنذ ذلك الحين صار هو (يوماً) كما صار دون موسىس من قبل
(بيدقاً) وروكى (بعروراً) وأنطونيو (حوصلة) والسيدة لولا ،
(فلفلة) كبرى وعاملات الهاتف (كاكات) و (أرنبات) .

إن البلدة تتعامل مع ركن التعميد المقدس باستهانة وإسراف مفرطين .

الفصل الخامس

الواقع هو أن (الفللفة) الكبرى بوجهها الأحمر المستدير وبطبعها الحار التزق ، كانت جذيرة بلقبها . وهى ، فوق ذلك ، ثامة ، والنمامون لا يبتسون لكل ما يقع على رؤوسهم . ثم إنها ، تحاول التحكّم بالبلدة من دون وجه حق بينما تريد البلدة أن تكون حرّة مستقلة : فما دخل (الفللفة) فى أن يكون بانجو مؤمناً أو كافراً أو أن يكون باكو الحداد منقطعاً إلى الخمر أو منقطعاً عنها ، أو أن يصنع أبو دانييل الجبن وهو نظيف اليدين أو وهو متسخ الأظفار . وإن هى تقزّرت من ذلك فلتمتنع عن أكل الجبن والسلام . وما كان دانييل (اليوم) يرى فيما تفعله (الفللفة) الكبرى دليلاً على طيبتها . الطيبون هم من يتقبّلون وقاحتها وينتخبونها رئيسة لهذه الجمعية الخيرية أو تلك .

ويصيب انطونيو (الحوصلة) إذ يقول إنها أفعى دميمة ، وإن فكّر وهو يصدر حكمه هذا ، فى منافسة (الفللفة) له فى تجارتها أكثر من تفكيره فى دمامة خلقتها وسوء أخلاقها .

و (الفللفة) الكبرى ، مع حمرة بشرتها ، طويلة عجفاء كقصبة الكوكانيا وإن لم تحمل فى نهايتها ، كما الكوكانيا ، جائزة . وماذا تحمل (الفللفة) غير أنف عظيم وغير حرص شديد على التدخل فى شئون الغير وغير سلسلة متنوعة ومتجددة من وساوس الضمير .

ولطالما شغلت دون خوسيه ، وهو القديس العظيم .

- هل تعلم ، دون خوسيه ، إننى لم أتم الليلة البارحة . كنت أتساءل : إن كان المسيح بقى وحيداً على جبل الزيتون بعد أن نام الحواريون

فمن رآه إذا وهو يتصعب بدل العرق دماً ؟ - قالت له يوماً قبل دقيقة من بدء القداس .

ويجيئها دون خوسيه وهو يطبق عينيه النافذتين كأطراف الدبابيس :
- على رسلك يا ابنتى فنحن نعرف هذه الأشياء عن طريق الوحى .
وتتأوه (الفللفة) الكبرى مغمومة :
- وهل تعتقد ، دون خوسيه ، أن بإمكانى تناول القربان مطمئنة بعد ما فكّرت فى هذه الأمور :

ويرد عليها دون خوسيه القس وقد تحلّى ، ليطيقها ، بصبر أيّوب :
- إن لم تذبى فى شئ آخر فبإمكانك تناول القربان .
وهكذا يوماً بعد يوم :

- دون خوسيه . . . البارحة لم يغمض لى جفن وأنا أفكّر فى قضية بانچو . فكيف يمكن لهذا الرجل أن يتلقّى سر الزواج وهو الذى لا يؤمن بالله ؟

ثم تعود بعد ساعات :
- هل فى مقدور حضرتك ، دون خوسيه ، أن تسامحنى . فأمس الأحد قرأت كتاباً أثيماً يتحدث عن الأديان فى انكلترة . البروتستانت هناك أغلبية ، فهل تعتقد ، دون خوسيه ، أننى لو كنت ولدت فى انكلترة لكنت بروتستانتية ؟

ويتلع دون خوسيه القس ريقه :
- ليس مستبعداً يا ابنتى .
- فأنا متهمّة ، ابتاه ، بأننى لو كنت ولدت فى انكلترة لكنت بروتستانتية .

عندما ولد دانييل (اليوم) كانت السيدة لولا ، وهذا هو اسم

(الفلفلة) الكبرى ، تبلغ التاسعة والثلاثين . وبعد ثلاث سنوات من ذلك أنزل الله بها ما أَلَمَّا أشد الألم ، ولكنها ، والحق يقال ، تغلبت على ألمها بالصلابة والفظاظة التي اعتادت بهما فرض نفسها على أهل بلديتها . إن تسمية السيدة لولا بـ (الفلفلة) الكبرى يوحي بوجود (فلفلات) أخريات صغيريات . وهذا صحيح ، فـ (الفلفلات) كُنْ ثلاثاً ولم تبقَ منهن غير اثنتين : الكبرى والصغرى . كان أبوهن حارساً مدنياً ظل لوقت طويل مأمور مركز البلدة . وتدعى الألسن الثمامة الموجودة على الدوام ، أنه مات كمدا لعدم إنجابيه ولدأ ذكرأ ، وقد ترك لبناته بعض مذكراته ففتحن بها دكانهن . بالطبع فإن المأمور مات فى وقت كان فيه نائب الضابط فى الحرس المدنى قادرا براتبه على تأمين عيشة مقبولة وتوفير بعضه .

وهكذا تكفّلت لولا ، وبعد موت الحارس ، وزوجته قبله بسنوات ، بأمور البيت وفرضت نفسها على أختيها لأنها أكبرهن عمرا وأطولهن قامة .

أما دانييل (اليوم) فلم ير إلا اثنتين منهن ولكنه سمع من أهل البلدة أن الثالثة كانت كالأخريين ، عجفاء بادية العظام وإنه كان من الصعب ، فى حياتها ، تمييزها عن أختيها من دون معاينة مسبقة ، مطوّلة ودقيقة . وليس فى ذلك ما يدفع عن الأختين الصغيرتين أنهما عذبتا أختيها الكبرى فى حياتها الدنيا ، عذاباً أليماً . أما الوسطى فكانت كسولة متسكعة وكان طبعها وسلوكها يظهران على الملأ صراحاً وسباباً فاضحاً يصدر على مدار الساعة من دكان (الفلفلات) ويتهن ليكشف عن استمرار الوضع السيئ وتدهور العلاقة بين الأخوات . مع ذلك ، فجميع الناس فى البلدة متفقون على أن (الفلفلات) الثلاث لم يتخلفن يوماً ، وهن مجتمعات ، عن

قدّاس الساعة الثامنة الذى كان دون خوسيه القس ، يعقده فى الأبرشية عند مذبح القديس روكى . كُنْ يرحن إلى هناك بقامات منتصبه وهامات مرتفعة وإن كان البرد قارساً والسماء ممطرة مرعدة . كُنْ يمشين ثلاثتهن مشية نظامية موزونة الخطوات ، فقد ورثن عن أبيهن ، فضلاً عن مدخراته ، حساً دقيقاً يقظاً من الانضباط وغيره من فضائل العسكرية . واحد - اثنين ، واحد - اثنين ، واحد - اثنين ، واحد - اثنين ؛ كُنْ يتقدّمن ثلاثتهن صوب الكنيسة بصدور عجاف وأعجاز ناشفة وقامات شامخة وقد عقدن مناديلهن عند الأحناك وتأبطن كتاب الصلوات .

وذا شتاء ، مانت وسطاهن ، إيلينا . انطفأت روحها صباح يوم كانونى مكفهر ممطر . وعندما ذهب الناس لتعزية الأختين الباقيتين كانت (الفلفلة) الكبرى تصلّب مرعدة :

- لنشكر الله الحكيم العادل ، فقد اختار أقلنا نفعاً .

ولما بدأ الناس فى المقبرة الصغيرة المجاورة للكنيسة يهيلون التراب على جثمان إيلينا الهزيل ، راحت جوقة من الناعبات تولول فانبرت لهن (الفلفلة) الكبرى فظة معتدة لتقول :

لا تنحن عليها ، فقد مانت من كسلها .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الثلاثى ثنائياً ، وصار دون خوسيه القديس العظيم ، يفتقد ، وهو يقيم قدّاس الثامنة عند مذبح القديس روكى ، المرحومة بجسمها المذنب الصغير .

على أن ما جرى للأخت الصغرى كان أمر وأدهى . ولئن كان ما حلّ بالوسطى من قضاء الله فإن ما حدث للصغرى كان رلة شهوانية ، وهو بالتالى نتيجة لنزوة مقصودة ومستهتره راودتها .

كان قد فتح فى البلدة آنذاك فرع صغير للمصرف الذى يحتل الآن

أحد أركان الساحة العامة . وكان قد وصل مع المدير موظف شاب رشيق القوام أنيق المظهر شدد انتباه ساكنات الشارع إليه فصرن يودعن مذكراتهن وقصدهن التطلع إليه عن قرب من فتحة شبك المصرف . كان طعما جيدا استخدمه المصرف لاصطياد الزبائن . إن أى مصرفى مرموق كان سيرفض هذا الأسلوب ، ولكنه جاء فى البلدة بنتائج باهرة حتى أن رامون ابن الصيدلى ، وكان وقتها قد بدأ دراسة القانون ، أسف لعدم تمكنه آنذاك من عمل أطروحة ، كان سيكتبها بعناية لنيل الدكتوراه حول موضوع مبتكر عنوانه « أثر حسن انتقاء الموظفين على اقتصاديات البلدة » . كان يقصد بكلمة « اقتصاديات » « مذكرات » وبكلمة « البلدة » بلدته الصغيرة بالطبع ولكن عبارة « اقتصاديات البلدة » ، كما كان يقول مارحاً ، لها وقع أفضل وهى تعطى أطروحته الموهومة ، مستوى أعلى وأهمية أكبر .

ومع وصول ديماس ، وهذا كان اسم موظف المصرف ، دخل الآباء والأزواج حالة من الترقب ، وتحدث دون خوسيه ، عدة مرات مع ديماس مذكراً إياه بالعواقب الكبيرة التى بإمكان شاربيه أن تجلبها على البلدة : حميدة كانت تلك العواقب أم وخيمة . وقد خففت لقاءات القس المتكررة مع ديماس من ريبة الآباء والأزواج حتى أن (الفلفلة) الصغرى رأت أن الخروج برفقة ديماس من وقت لآخر لا يعد من جانبها طيشاً ولا خروجاً على تعاليم الدين وإن أدانت أختها الكبرى بالصراخ ، وبعد التزام أعلى درجات اللياقة ، « انحلالها وتهتكها الفاضح » .

وهكذا انفتحت أمام (الفلفلة) الصغرى فجأة جميع الآفاق وهى التى كانت ترى فى الوادى حتى ذلك الوقت زنازنة خالية مظلمة ، وتوقفت لأول مرة فى حياتها لتأمل روعة الجبال الوعرة وسمات الريف الأخضر الشاعرية والإحساس الذى يوحى به سماع صدر ليل الوادى يمزقه

صغير القطار المدوّى . تفاهات ، نعم ، ولكنها تصبح مهمة عندما يكون القلب متوقّداً . وذات مساء عادت (الفلفلة) الصغرى من نزهتها المعتادة فرحة :

- لا أدرى ، أختاه ، من أين تأتيك هذه الكراهية نحو ديماس . إنه أفضل من عرفت من الرجال . اليوم كلمته عن نقودنا فعرض على أفكاره لاستثمارها . أنا قلت له إننا أودعناها فى أحد مصارف المدينة وبأنا ، أقصد أنا وأنت ، سنتشاور قبل أن أقرّر .
وصرخت (الفلفلة) الكبرى :

- وهل أخبرته بأن المبلغ لا يزيد على الألف دورو ؟
وتبسمت (الفلفلة) الصغرى لاستهانة أختها بفطنتها :
- لا طبعاً ، لم أقل له شيئاً عن المبلغ .
ورفعت (الفلفلة) الكبرى كتفيها بعظامها الناتئة مستسلمة ، ثم صاحت تاركة كلماتها تنزلق على امتداد أنفها الدقيق فكأنها تنساب على رحلوفة :

- اسمعنى . هذا رجل محتال يضحك عليك . ألا ترين أن الناس جميعاً يتقولون ويسخرون من بلاهتك ؟ وهل يعقل ، أختاه ، أن تكونى آخر من يعلم ؟ .

- وغيّرت فجأة نبرة صوتها لتصبح أكثر نعومة - : عمرك الآن ، ابرينه ، ست وثلاثون سنة ، فأنت بعمر أم هذا الولد تقريباً .
فكرى فى الأمر ملياً .

ولكن ابرينه تمردت وثار مثل بحر هائج :
- اعلمى ، لولا ، أن شكوكك تؤلمنى وتلميحائك الخبيثة تزعجنى .
فما الغريب فى أن يتفاهم رجل وامرأة ؟ وماذا يعنى فارق العمر ؟ المسألة

هى أن جميع نساء البلدة ، وأولاهن أنت ، يغرن منى . هذا هو كل مافى الأمر .

وافترقت (الفلفلة) وهما ترفعان أنفيهما عالياً . وفى مساء اليوم التالى أبلغ كوكو ، موظف المحطة ، أهل البلدة بأن الأنسة إيرنيه ، (الفلفلة) الصغرى ، قد استقلت القطار الصاعد إلى المدينة . برفقة دون ديماس ، موظف المصرف . ولما علمت (الفلفلة) الكبرى بما حصل فار الدم فى عروقه وسقطت مغشيا عليها . ولم تسترد وعيها إلا بعد أكثر من خمس دقائق ، ولما أفاق استخرجت من خزانة ملابسها الموبوءة بالعث البدلة السوداء التى تحتفظ بها منذ موت أبيها ؛ انحشرت فيها ومضت بخطوات سريعة إلى مكتب القس .

قالت وهى تدخل :

- ياللمصيبة ، دون خوسيه ، يا إلهى .

- اهدئى يا ابنتى .

جلست (الفلفلة) على كرسى الخيزران القريب من منضدة القس .

واستنطقت دون خوسيه بعينها فأجاب :

- نعم ، لقد علمت بالأمر . كوكو حكى لى كل شىء .

وأطلقت رفرة قوية تردد صداها بين الضلوع فكأنها اصطدمت ببعضها

ثم مسحت دمة مستديرة مكورة كقطرة المطر وقالت :

- استمع إلىّ ، دون خوسيه ؛ فبداخلى شك مروع شك

ينهش أحشائى . فأيرينه أختى أصبحت موساً ، أليس كذلك ؟

وأحس القس بشىء من الخجل :

- اسكتى يا ابنتى ولا تنفوهى بحماقات .

وأغلق القس كتاب الصلوات الذى كان فى يده وتحنح ولكن صوته خرج ، مع ذلك ، مشوباً بغتة صمّاء . قال :
 - اسمعى . المرأة التى تسلّم نفسها لرجل عن محبة ليست مومساً .
 المومس هى التى تجعل من جسدها ومن النعمة التى منحها الله لها تجارة محرّمة . هى التى تسلّم نفسها لجميع الرجال لقاء أجر . هل تلاحظين الفرق ؟

ورفعت (الفلفلة) الكبرى هامتها بعناد :
 - على أية حال ، ابتاه ، فإن ما فعلته ايرينه يمثل خطيئة عظيمة ، خطيئة قدرة ، أليس كذلك ؟
 - هذا صحيح يا ابنتى ، ولكنها ليست مما لا يصلح . اعتقد أننى أعرف دون ديماس . إنه لم يبد لى رجلاً سيئاً . سيتزوجان .
 وغطت (الفلفلة) الكبرى عينيها بأصابعها النحيلة وهى تجتهد ألا تغص بالبكاء :

- أبتاه أبتاه ولكن هناك شيء آخر . لقد أفقدها غيرتها . ان ما أخطأ هو دمها ، ودمها هو دمي ، فربما كنت سأرتكب خطيئة مشابهة . أبتاه أبتاه إننى أقرب لذنبى ، ومن صميم قلبى المحزون أعلن عن ندمى .
 ونهض دون خوسيه القس ، وهو قديس عظيم ، ومسّ رأسها بأصابعه :

- اذهبي إلى بيتك يا ابنتى ، وهونئى عليك فانت لا تتحملين وزر أى شيء . أمّا قضية ايرينه فستتولى حلّها .
 وغادرت (الفلفلة) الكبرى مكتب القس وهى تحس بشيء من الراحة ؛ وفى الطريق راحت تتحدث نفسها بوجوب الإعلان عن ألمها

وشعورها بالخجل لأن إضاعة العفة هي أعلى درجة من إضاعة الروح .
وما إن وصلت إلى البيت ، محكومة بتلك الفكرة ، حتى انتزعت ورقة
مقوَّاة من علبة أحذية ، وكتبت عليها بفرشاة مضطربة : « الدكان مغلق
لدواعي العار » .

ثم نزلت إلى الشارع وعلقتها على باب الدكان .
وظل الدكان مغلقاً ، على ما حكى لدانييل (اليوم) ، عشرة أيام
بلياليها .

الفصل السادس

ولكن دانييل (البوم) يعرف الآن معنى أن يكون البطن يابسا ويعرف المقصود بالإجهاض ، فعند بلوغ سن معينة تصبح هذه الأمور بسيطة مفهومة . أما قبلها فتبدو للمرء ضرباً من ضروب السحر . وليس من سبيل إلى فهم ازدواجية المرأة قبل ظهور استدارة البطن الفاضحة جليلة واضحة ، ولا سبيل إلى فهم ذلك قبل سن التناول الأول : وما العينان قبل هذه السن بكافيتين للتحقق من الأشياء الواضحة التي تحيرنا فيما بعد ببساطتها .

كان جيرمان (الأقرع) ، ابن الإسكافي ، يعرف هو الآخر معنى البطن اليابس والمقصود بالإجهاض . وجيرمان (الأقرع) هذا كان الصديق الطيب على الدوام ، حتى في أصعب الظروف ، وإن لم يصل في صداقته لدانييل (البوم) إلى درجة (البعور) . وما كان الذنب في ذلك ذنبه ولا ذنب دانييل ولا ذنب أى شئ أو ظرف متّصل بإرادتنا .

كان جيرمان (الأقرع) صبيّا ضاوياً شاحباً . ولو أن شعره كان أقل سواداً لما بدت قرعته على ذاك القدر من الوضوح . لقد أصيب بالقرع في طفولته ، وهو ما أورده لقبه رغم أن ما به لم يكن قرعاً حقيقياً بالطبع . وكان لآبيه الإسكافي ، فضلاً عن ورشته الصغيرة الكائنة على يسار الطريق العام بعد قصر (الماركيز) صعوداً ، عشرة أولاد ؛ ولد ستة منهم كما يولد خلق الله : فرادى ؛ أما الأربعة الباقون فولدوا في دفعتين من التوائم . زوجته هي الأخرى كانت إحدى توأمين ، وكذا أمّها . وكانت للإسكافي في قطلونية أخت توأم أنجبت ثلاثة توائم فنشر الخبر في الصحف وتبرع المحافظ بمبلغ لإعانتها . ولكل ذلك بالطبع دلالة ، فما كان في

مقدور أحد أن يزحزح الإسكافي عن إيمانه بأن هذه الظاهرة ناتجة عن عصبية « شأن أى مرض آخر » .

كانت لأندريس الإسكافي ، إذا ما نظر إليه من أمام ، هيئة يمكن أن تدل على أنه أب لعائلة كبيرة ؛ فان نظر إليه من جانب ، فمستحيل أن تدل هيئاته على ذلك . وعليه فقد كان أهل البلدة أكثر من محققين إذ يقولون عنه : « أندريس ، الرجل الذى لا يرى من جانبيه » . ويكاد الوصف يكون حرفيا لفرط نحول الرجل وشدة هزاله . ثم إنه كانت فيه انحناء واضحة نحو الأمام ، فمن قائل إنها سبب طبيعة عمله ، ومن قائل إنها بسبب حرصه الشديد على التطلع إلى سيقان الفتيات اللاتي يقعن ضمن مرمى بصره ومتابعته لهن حين اختفائهن عن النظر . كانت رؤيته على تلك الحالة ، من الأمام أو من الجانب ، تبدو أدعى للفهم والاستصور من رؤيته أبا لعشرة أولاد .

ولكن الإسكافي ما كان يبدو مكتفيا بما لديه من خلفه ، فترى ورشته الصغيرة وقد امتلأت على الدوام بأقفاص تعج بطيور الخضيرى والكنارى والحسون ، أما فى الربيع فكانت مجموعة من الجداجد تملأ المكان بزقزقاتها الحادة المتنافرة . كان هذا الرجل يبدو مسكونا بعفريت الإخصاب فهو يطبق على تلك المخلوقات كل أنواع التجارب فيزواج اناث الكنارى وذكور الخضيرى ويزواج ذكور الكنارى واناث الحسون وينتظر ما ينتج عن هذا المزيج ، وكان يؤكد أن للطيور الهجينة صفات أرق وأكثر تناسقا من تلك المعركة .

وأندريس الإسكافي كان ، فوق ذلك كله ، فيلسوفا . فإن قيل له : « أليس لديك فى أولادك العشرة ما يغنيك عن الطيور ؟ أجاب قائلاً : « الطيور تنسينى الأولاد » .

ثم إن معظم أولاده بلغوا سنّا تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم ،
فلقد ولّت إلى غير رجعة سنوات الشّدة . يروى أنه عندما استدعى أول
زوج من أولاده التوائم للخدمة العسكرية ، دخل فى جدل حام مع مسؤول
التجنيد عندما أصر الإسكافى على أنهما من وجبتين مختلفتين .
- ولكن ، با ابن الحلال - قال مسئول التجنيد - كيف يكونان من
وجبتين مختلفتين وهما توأمان ؟

وزاغت عينا اندريس الإسكافى خلف ساقى فتاة حضرت لتبرير
تخلّف أخيها ، ثم عدّل رقبته مثل حلزون منسحب إلى قوقعته وأجاب :
- ببساطة ، لأن اندريس الصغير ولد الساعة الثانية عشرة إلا عشر
دقائق من يوم القديس سلفسترس بينما ولد ماريانو بعد دقائق من بداية
السنة الجديدة .

مع ذلك ، ولأن الولدين كانا مسجلين فى مواليد ٣١ ديسمبر فقد
اضطر اندريس إلى التسليم باستدعاء الاثنين معا . أما ولده توماس ، فكان
يعمل فى شركة للحافلات فى المدينة أما (الأحول) ، فكان يساعده فى
ورشته . وأما البقية الباقية فهم جميعا من البنات ، طبعاً باستثناء
جيرمان (الأقرع) الذى كان أصغر الجميع سنا .

وجيرمان (الأقرع) هذا هو من قال عن دانييل ، يوم دخوله
المدرسة ، إنه ينظر إلى الأشياء كالمفزوع ، وهو ، بالتالى ، من عمّد دانييل
بلقبه . مع ذلك لم يضر له هذا أى حقّد بل وجد فيه ، ومنذ اليوم
الأول ، صديقا وفاقاً ولم تشكل قرعة جيرمان عقبة أمام التفاهم بل لقد
مهّدت لتلك الصداقة لأن دانييل (البوم) أحسّ منذ اللحظة الأولى
بفضول شديد تجاه تلك الجزر البيض المفتوحة فى محيط مظلم من الشعر
الأسود الذى يغطى رأس (الأقرع) .

مع ذلك ، ومع أن قرعة جيرمان لم تكن مدعاة للقلق لا فى بيت الإسكافى ولا بين حلقة أصدقائه الضيقة ، فإن (الفلفة) الكبرى ، بدافع من شعور بأمومة قاصرة تشمل به البلدة جمعاء ، قررت التدخل فى الأمر رغم أنه لا يعنيه من قريب ولا من بعيد ، فهى مغرمة بالتدخل فيما لا يعنيه ، وهى تتصور أن اهتمامها الشديد بأمور الآخرين يأتى بوحى من حرصها المحموم على عمل الخير ومن إحساسها العالى بالاخوة المسيحية ، والواقع هو أنها تلجأ إلى هذا السلوك ليكون فى مقدورها تسقط الأخبار تحت غطاء من الحكمة وعمل الخير .

وفوجئ اندريس ، الرجل الذى لا يرى من جانبيه ، ذات مساء ، وهو فى ورشته منكبا على عمله ، بالسيدة لولا تقف أمامه لتقول له :
- كيف ترك الصبى هكذا ؟

ولم يفقد الإسكافى هدوءه ، ولم يرفع عينيه عما فى يديه بل قال :
- ليكن كذلك ، ياسيدتى . فبعد مائة عام يبق من قرعته أثر .
ومع صخب الجلاجد وطيور الخضيرى والحسون كان على (الفلفة) والإسكافى أن يتحاورا صراخا . قالت هى آمرة :
- نخذ . ضع له من هذا المرهم ليلا .
ورفع الإسكافى بصره نحوها . تناول المرهم وتأمله وقلبه ثم أعاده إليها قائلا ، قبل أن يعاود الانكباب على عمله :
- احتفظى به لنفسك . إنه غير نافع . فقد أصيب الولد بالعدوى من أحد الطيور .

وقد يكون الإسكافى محقاً ، وقد لا يكون ، فقد كان جيرمان (الأقرع) شديد الولع بالطيور ، ولا بد أن هذا الولع هو من بقايا طفولته المبكرة التى أمضاها بين طيور الخضيرى والكنارى والحسون ورقزقاتها

الصاخبة المدوية .

لم يكن فى الوادى من يفهم فى الطيور مثل جيرمان (الأقرع) الذى كان مستعداً أن يمضى من أجلها أسبوعاً كاملاً من دون أكل ولا شرب . ولا شك أن هذه الموهبة أثرت كثيراً فى قرار روكى (البعور) بعقد صداقة مع ذلك الصبى ذى البنية الضعيفة الواهنة . وكثيراً ما كان جيرمان يقول لهم ساعة الانصراف من المدرسة عصراً :

- أعرف مكاناً فيه عشب لطائر الخورى . إنه على سياج الصيدلية وفيه اثنا عشر فرخاً .

أو يقول :

- تعالوا معى إلى حقل (الأمريكى) ، فمع المطر الخفيف تخرج الزراير لنقر الروث .

كان (الأقرع) خبير من يفهم الطيور بملاحظة اضطراب طيرانها وتشنجه أو طريقة رقرقتها ، كان يخمن ردود فعلها ويعرف جيداً عاداتها وتأثير تقلبات الجو عليها ؛ بل يجوز القول إنه لو كان رغب فى تعلم الطيران لكان له ما أراد .

وكل هذا فى عرف (البوم) و (البعور) موهبة لا تقدر بثمن . فكان لابد لهما ، إذا خرجا للبحث عن الطيور ، من صحبته ، شأن الصياد المرموق لا يخرج من دون صحبة كلبه .

لكن هزال ولد الإسكافى سبب له ، من ناحية أخرى ، حوادث خطيرة مؤلمة . فبينما هو مرة يبحث فوق النفق عن عشب الطائر السمّان بين الحراج ، فقد توازنه وسقط على السكة سقطته شديدة كسرت لها قدمه . وبعد شهر أخبره دون ريكاردو بتمائله للشفاء ، لكنه ظل يعرج فى قدمه اليمنى طوال حياته ، ولم يشغل ذلك باله كثيراً بالطبع بل واصل بحثه عن الأعشاب بحماسة واندفاعه المعهودين .

وسقط فى مناسبة ثانية من شجرة كرر برى ، حيث كان يتربص بالزراير ، على عوسجة متشابكة الاغصان . وشقت شوكة شحمة أذنه اليمنى بالطول ، ولم يشأ أن يخاط له جرحه فبقيت الشحمة مشطورة مثل ذيل بذلة الفراك . كان ذلك عنده من متاعب المهنة ، فلم يخطر على باله يوما أن يأسف لعرج فى قدمه أو لانشطار فى شحمة أذنه أو لقرعة يقول أبوه إنها جاءت من أحد الطيور . فمرحبا بالمصائب أن جاءت من الطيور . كان تفكيره ذاك ضربا من القدرية الرواقية التى لايمكن التنبؤ بحدودها . وسأله (البعور) يوما وهو يشير إلى ما بأذنه :

- ألا يؤلمك هذا ؟

وابتسم جيرمان (الأقرع) ابتسامته الشاحبة الحزينة :
- أحيانا تؤلمنى قدمى عندما يكون المطر وشيكاً ، أما أذننى فلا تؤلمنى أبداً .

ولكن (الأقرع) كان يتمتع بميزة هى فى نظر روكى (البعور) أهم من خبرته بالطيور ، وتكمن هذه الميزة فى ضعف بنيته . فقد كان جيرمان (الأقرع) يمثل فى هذا المعنى طعما ممتازا لافترار العراك . وكان روكى (البعور) يحتاج إلى العراك حاجته إلى خبز يومه ويوجد فى الاحتفالات الصيفية التى تقام فى القرى المجاورة مناسبات جيدة لتمارين عضلاته ، ويخلق لذلك المناسبة والمبررات الكافية ، فثمة حرص يضممه بطل البلدة عماده القوة والهيمنة على أبطال البلدات والقرى والضيااع المجاورة . وكان جيرمان (الأقرع) ، وهو السقيم الهزيل ، يشكل نقطة تماس جيدة بين روكى وخصومه ؛ ومحكاً رائعاً للكشف عن التفوق . كان المشهد حتى اندلاع المعركة واحدا لايتغير . فبعد أن يعاين روكى (البعور) الموقع من بعيد ، يهمس فى أذن (الأقرع) :

- اقترب منهم ولا تتكف عن النظر إليهم فكأنك تريد سرقة البندق الذى أمامهم .

ويقترب هذا خائفاً . ولكن لامفر من الصفعة الأولى ، فهو غير مستعد للتفريط بصداقته الحميمة مع (البعور) بسبب صفعة عابرة . ويقف على مسافة مترين من المجموعة ويحدق فى أفرادها ، ثم تنطلق التهديدات :

- لا تنظر هكذا أيها الأبله . أم انك لم تجرب الضرب من قبل ؟ ولكن (الأقرع) يظل رابط الجأش لا يرف له جفن ولا يتحرك من موضعه وإن ارتعشت بعض الشئ قدماه : فقد كان يعرف أن دانييل (البوم) وروكى (البعور) يكمنان خلف منصّة العازفين . ويعاود رعيم الخصوص الكلام :

- ألم تسمعنى أيها القدر ؟ انصرف وإلا شطرتك نصفين . ولا يابه جيرمان (الأقرع) لتهديده بل يرتكز عينيه ، مثل مصباحين ، فى علبة البندق دون أن يبدى حركة ودون أن ينطق بكلمة ، وإن كان يخمن فى داخله مكان الضربة ويفكر إن كانت كثافة العشب الذى يقف عليه كافية لتخفيف أثر الصدمة .

وينفذ صبر العدو الشقى :

- خذ أيها المتطفل . . . ليكون لك درساً .

الغريب فى هذه المناسبات أن جيرمان (الأقرع) كان يحس بنجدة (البعور) قبل إحساسه بحرارة الصفعة . كان يحس بنجدته وصوته القريب القوى الراعى :

- ضربت صديقى ، أليس كذلك ؟ - ثم يضيف وهو ينظر بتأثر إلى

جيرمان - : هل قلت شيئاً يا أقرع ؟

- لم أفصح فى . بل ضربنى لأنى كنت أنظر إليه وحسب .

وهكذا تتوفر للشجار عناصره ويكون (البعور) صاحب حق لأن الآخر ضرب صاحبه لمجرد أن هذا كان ينظر إليه ، أى من دون سبب كاف أو تبرير تميزه قواعد الشرف الأساسية السائدة بين الصبيان .
ولما كان تفوق روكى (البعور) فى هذا الميدان أمراً مفروغاً منه ، فقد كان المشهد ينتهى دائماً بجلوسهم فى « معسكر » الأعداء لأكل البندق الذى خلفوه .

الفصل السابع

ما كان بين الثلاثة مجال للخلاف ، فالكل يعرف موقعه بين أقرانه :
 دانييل (اليوم) يدرك أنه قادر على تجاوز (البعور) رغم أنه يفوقه ذكاءً ،
 وجيرمان (الأقرع) يقر بأنه أدنى من الاثنين الآخرين مرتبة رغم أن خبرته
 في الطيور تفوق مالدبيهما منها سعة وتفصيلاً . فالتفوق هنا ليس مرهوناً
 إذاً بالذكاء ولا بالقابليات ولا بالإرادة بل بالعضلات . وهو أمر معقول
 ومنطقي ومقبول . ولكن هذا لا يمنع أن يكون دانييل (السبوم) الوحيد
 القادر على اللحاق بقطارات البضائع وهي تنوء بحملها صاعدة أو بقطارات
 البضائع والركاب شرط ألا تكون فرغت من حمولتها أو ركبّت لها
 مقطورات جديدة . وما كان (البعور) و (الأقرع) يضارعانه في الجري
 ، ولكن خفة الرجلين ما كانت هي الأخرى الأساس في التفوق ، أنها
 مجرد صفة جديرة بالتقدير ، لا غير .

كان الأصدقاء الثلاثة يترددون أيام الأحد والعطلة الصيفية ، على
 الحقول والتلال ، ويقصدون ملعب الصوبلجان والنهر . وكان لهُوهم متنوعا
 وفيه شيء من البدائية والقسوة . وليس من العسير في مثل هذه السن العثور
 على اللهو في أى مكان . كانوا أحياناً يعملون بمصياداتهم تقتيلاً في
 الزراير والشحارير وطيور السمّان ، فقد كان جيرمان (الأقرع) يعرف أن
 الزراير والشحارير والسمّان ، وهي من فصيلة واحدة ، تفضل أن تعشش
 بين شجيرات العوسج والعليق ساعات القيظ . وكان اصطيادها ، وهي
 بعد غافية على الأشجار أو في الطريق ، يستدعى الخروج باكراً ، لذلك
 كانوا يفضلون البحث عنها وقت اشتداد الحر ، عندما تكون راقدة بين
 الأحراج ، فالرمية حينها تكون أقصر والهدف أثبت والصيد ، بالتالى ،

يكون أسلم وأضمن . ماكانت عند دانييل (البوم) أكلة ألد من طبق الزراير بالرر . وكان إن اصطاد أحدها تمتع حتى بتف ريشه ، إلى أن اكتشف يوما أن جميع الزراير تقريباً تحمل قملاً تحت ريشها . وعندما أبلغ جيرمان (الأقرع) باكتشافه العجيب ، أصيب بخيبة أمل إذ ردّ عليه (الأقرع) قائلاً :

- أوّ لا تعرف ذلك ؟ كل الطيور تقريباً تحمل القمل تحت ريشها . ويقول أبى إن القرع جاءنى من طائر الوقوق .

وقرّر دانييل (البوم) ألا يحاول اكتشاف جديد فى عالم الطيور ، فان هو أراد معرفة شئ عنها ، فعنده (الأقرع) ، فذلك أيسر وأسرع .

وكانوا أحياناً يذهبون إلى ملعب الصولجان ، وروكى (البعور) هناك هو المتفوق المطلق ، وما كان يجدى ان يهبهما عددا من النقاط قبل بداية اللعب ، لأنه عند النهاية يكون قد سجل أعلى النقاط ومن دون عناء بينما لم يضيف أى منهما شيئاً على النقاط التى نالوها هبة ومئة . كان (البعور) يبدى فى هذه اللعبة قوّة الرجال وثباتهم وبراعتهم . أما فى مسابقات أعياد العذراء ، فلم يكن (البعور) ، وهو ينافس جميع رجال البلدة تقريباً ، يرضى بأقلّ من المرتبة الرابعة .

وكان بلوغه المبكر هذا يغيظ سارة أخته :

- دابة لن تصبح إلا دابة كأبيك .

وينظر إليها ياكو الحداد بعينين مبتهلتين ليقول كمن يصلى :

- اللهم آمين .

لكن الأصدقاء الثلاثة كانوا يجدون التسلية كاملة والمتعة كبيرة فى النهر ، على الطرف الثانى المقابل لحانة كينو (الأقطع) ، حيث يمتد حقل فسح تتوسطه بلوطه عظيمة ويحدّه فى نهايته سور حجري وعرف يفصلهم

عن بقية الوادى . وفى مقابل السور « بركة الانكليزى » وبعد أمتار قليلة منها يبدأ النهر بالانسياب على عمق بسيط بين صخور وأحجار صغيرة . وهنا كان الثلاثة يصطادون السرطانات بأيديهم : يرفعون الأحجار بحذر ويمسكون بالحيوانات بقوة من طرف درعها العريض بينما تلوى هى فكوكها وتجاهد فى فتحها وغلقها فى محاولة أخيرة عقيمة للتخلص .

أما فى « بركة الانكليزى » فكانوا يصطادون الاسماك الصغيرة التى تندفع فى مجموعات ضخمة تجعل لون المياه داكناً . كان يكفى لاصطيادها بالعشرات أن يرمى فى الشبكة بأى طعم اصطناعى حاد اللون . ولكن وفرتها وسهولة اصطيادها جعلت الأولاد يستهينون بها وانتهى الأمر بهم أن عافوها . وحدث لهم مثل هذا مع الأس والزعرور الشوكى والتوت والبندق البرى . وبما عمق شعور الاردراء هذا فيهم أن دون مويسيس المعلم كان يفضل الطلاب الذين يتفوقون ساعات الفراغ البليدة فى جمع التوت والزعرور الشوكى لاهدائه إلى أمهاتهم أو فى صيد الأسماك الصغيرة ، كى ينالوا ، فوق هذا كله ، الشهادات التقديرية والدرجات العالية ومراتب الشرف فى نهاية السنة الدراسية . كان روكى (البعور) ودانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) يشعرون تجاه هؤلاء بالاردراء ذاته الذى يشعرونه تجاه التوت والبندق البرى والأسماك الصغيرة . وفى ساعات القبط الصيفية ، كان الأصدقاء الثلاثة يسبحون فى « بركة الانكليزى » ، فلا متعة لديهم تعادل متعة الإحساس بالماء وهو يلامس جلودهم فيبردّها . كانوا يسبحون على شاكلة الكلاب فيشققون الماء ويزيحوونه من دون أن يحدثوا ، وهم مغمورون فيه ، أدنى ما يوحى بوجود حياة على امتداد مائة متر صعوداً ونزولاً .

وبينما كانوا مرة يفترون حقل البلوطة يجففون أجسادهم الصغيرة ،
عرف دانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) ما يعنى أن يكون البطن يابساً
والمقصود بالاجهاض . كان عمر دانييل حينها سبع سنوات ، أما جيرمان
فكان فى الثامنة . وكان روكى (البعور) عارياً إلا من سروال مرقوع
ارتداه بالقلوب . أما (البوم) و (الأقرع) فكانا عاريين تماماً إذ لم يكن
الحياء قد ولد فيهما بعد ، وكان روكى (البعور) هو من أيقظه فيهما
ذلك اليوم .

ويقرن دانييل (البوم) ذلك كله ، دون أن يعرف له تفسيراً ، بحوار
جرى له مع أمه قبل ذلك بأربع سنين عندما حمل إليها صورة بقرة هولندية
عظيمة .

قالت هى :

- ما أجملها ، دانييل ، أليس ذلك ؟ . إنها بقرة حلوب .
نظر الطفل إليها مندهشاً ، إذ لم يشاهد من قبل لبناً إلا فى القدور
والجرار :

- لا ، أمه ، إنها ليست حلوبا . انظرى ، إنها لا تحمل جرارا .

وضحكت الأم من سذاجته وأخذته فى حضنها وقالت :

- البقرة الحلوب لا تحمل جرارا يا ولدى .

نظر إلى وجهها ليرى إن كانت تخدعه . رآها تضحك فخمّن أن شيئاً
خفياً يقف وراء ذلك كله . ما كان يعرف وقتها ، بسنواته الثلاث ، أن
« هذا » موجود ، ولكنه شعر فى تلك اللحظة بوجوده . وأضاف متسائلاً
وقد تملكه حرص مفاجئ على معرفة كل شيء :

- فأين تحمل اللبن إذاً ، أمه ؟

وواصلت أمه الضحك ، وتلعثمت قليلاً وهى تردّ عليه :

- فى البطن طبعاً . . .
 ودوت حيرة الطفل فى ما يشبه الانفجار :
 - ماذا ؟
 فأضافت وهى تشير بظفرها الافرطس إلى ضرع البقرة البنى :
 - البقرة الحلوب تحمل لبنها فى بطنها .
 وتردد دانييل (اليوم) برهة وهو ينظر إلى الضرع المنتفخ ؛ ثم أشار
 إلى الحلمة :
 - واللبن يخرج من هذه النقطة ؟
 - نعم ، يا صغيرى ، من هذه النقطة .
 ولم يستطع دانييل تلك الليلة التفكير فى شىء آخر . كان يرى فى
 ذلك كله سرّاً خفياً عليه ، غير خفى على أمه . فهى تضحك على غير
 طريقتهى عندما يسألها عن أمور أخرى . ثم بدأ ينسى الأمر تدريجياً .
 وبعد أشهر اشترى أبوه بقرة ، ثم رأى بقرات الصيدلى العشرين ، ورآها
 وهى تحلب ، وصار بعدها يضحك كثيراً لمجرد التفكير فى أنه تصوّر فى
 يوم من الأيام أن البقرات التى لا تحمل جواراً لا تعطى لبناً .
 تذكر دانييل صورة البقرة الهولندية ذلك العصر بينما هم فى حقل
 البلوطة جنب النهر وبينما كان (البعور) مسترسلاً فى الكلام .
 كانوا قد خرجوا لتوهم من الماء ، وكانت سياط باردة من نسيمات
 عليلة تجف أجسادهم ؛ مع ذلك ، فقد خيّم على الجو حرارة شديدة
 دبكة . وشاهدوا ، وهم مستلقون على ظهورهم ، طائراً كبيراً محلّقاً
 فوقهم . وصرخ (اليوم) :
 - انظروا . لاشك أنه اللقلق الذى تنتظره معلّمة « لاكويرا » فهو
 ذاهب فى هذا الاتجاه .

- وقاطعه (الأقرع) :
- ليس هذا لقلقا بل كركى .
- وجلس (البعور) على العشب وهو يزّم شفّتيه متبرماً ساخطاً .
- وتأملّه (البوم) بإعجاب وهو يملأ صدره العظيم بالهواء ثم يفرغه منه .
- قال (البعور) :
- أى لقلق هذا الذى تنتظره المعلمة ؟ أما رلتم على هذا التفكير ؟
- وعدلّ (البوم) و (الأقرع) من وضعيهما وجلسا على العشب .
- كانا ينظران إلى (البعور) بتطلع ويخمنان أنه سيقول شيئاً عن « هذا » .
- ومهدّ له (الأقرع) مستفهماً :
- من يأتى بالأطفال إذا ؟
- والتزم (البعور) الجدلّ وهو يعى تفوّقه فى تلك اللحظة .
- الولادة - قال بحزم ومن دون مقدّمات -
- الولادة ؟ - - تساءل الاثنان -
- نعم ، الولادة - قال مؤكّداً - . ألم تشاهدوا أرنبه تلد ؟
- بلى .
- وكذلك الإنسان .
- وارتسمت على وجه (البوم) أمارات ذهول مضحكة :
- تقصد أننا أرناب ؟
- كانت بلادة محاوريه تثير غضبه . قال :
- ليس كذلك ، بل هناك ، بدل الأرناب ، امرأة هى الأم .
- ولمّح فى عينى (الأقرع) بريق ذكاء غريب :
- فليس اللقلى إذاً من يأتى بالأطفال . لقد كان يبدو لى غريباً حتى

أنتى كنت أقول لنفسى لماذا يزور اللقلق أمى عشر مرات وهى التى لا ترغب فى كثرة الأولاد ، بينما لا يزور جارتنا (الفطساء) ولا مرة وهى التى تتمنى أن يكون لها ولد ؟

وخفض (البعور) صوته . كان يخيم على المكان صمت لا يشوبه غير طرطشة بلورية تنبعث عن تيارات النهر وغير حفيف ناعم تحدته ملامسة الهواء لأوراق الأشجار . كان (اليوم) و (الأقرب) فاغرى الفم . قال (البعور) :

- أتدرون ؟ الولادة مؤلمة .

وانفلت التردد المكبوت فى نفس (اليوم) :

- من أين تعرف كل هذا ؟

- هذه أشياء يعرفها كل الناس الا انتما لانكما تعيشان غافلين . أمى ماتت من شدة الألم التى أحست بها وهى تلدنى . لم تمرض بل ماتت من شدة الألم . يبدو أن الألم لا يطلق أحيانا ليؤدى إلى الموت ، من دون علة ، فقط من شدة الألم .

- وأضاف وهو يشعر بالنشوة لانشداد مستمعيه إليه : - نسوة أخريات ينشطرن من النصف . سمعت ذلك من سارة .

وعلق (الأقرب) :

- ثم بعد ذلك يمرضن ، أليس كذلك ؟

ويخفض (البعور) صوته أكثر ليؤكد سرية مايقول :

- يمرضن عند رؤية الطفل . فالأطفال يولدون والشعر يغطى أجسامهم ، دون عيين أو أذنين أو أنف . يولدون وهم لايملكون غير فم كبير للرضاعة ، بعد ذلك تبدأ العيون والأذان والأنف بالظهور .

كان (البوم) يستمع إلى (البعور) مختلجاً متلهفاً . كانت تفتح أمام عينيه آفاق جديدة هي في نهاية المطاف ، علّة الحياة والخلقية . وأحس فيجأة بالخجل وهو يرى نفسه عارياً في الهواء الطلق . وأحس في الوقت ذاته بحب متجدّد متدفّق نحو أمه ، وشعر في داخله وللمرة الأولى بعاطفة الدم ، وإن لم يدرك كنهها . فبينه وبين أمه رابطة ، شيء ما يجعل منها عنصراً حيوياً لا يمكنه الاستغناء عنه . والأمومة هكذا أجمل ، لأنها لا ترتبط بصدفة ولا بتزوة لقلق مزيفة . وشعر دانييل (البوم) أن أكثر ما أعجبه من كل ما صار يعرفه عن « هذا » هو إدراكه أنه ثمرة ألم عظيم ، وأن أمه ما كانت لتتجنّب ذلك الألم لأنها راغبة في أن تلده هو بالذات . ومنذ ذلك الحين صار ينظر إلى أمه بطريقة مختلفة ، ومن زاوية أبسط وأكثر إنسانية ، ولكنها أصدق وأكثر عاطفة . وصار يلقّ في حضرتها إحساس غريب ، إحساس بالموازة وبالحاجة المتبادلة . فكان قلبيهما ينبضان في وقت واحد ، معاً .

وما عاد يذهب للسباحة في « بركة الانكليزي » إلا وهو يرتدى ، بالملقوب (كالبعور) ، سروالاً قديماً مرقوعاً . ويفكر في بشاعة صورته ساعة ولادته وقد غطى جسمه الشعر دونما عيين ولا أذنين ولا منخرين ... غير قم عظيم شره ، ويقول في نفسه : « كنت مثل حيوان الخلد » . ثم لا يلبث اختلاجه الأولى أن ينقلب إلى ضحكة طويلة متشنجة .

الفصل الثامن

كانت (الفلفلة) الصغرى ، حسب قول روكى (البعور) ، واحدة من ذوات البطون اليابسة فى البلدة . ومع صعوبة التحقق من ذلك ، فليس لقوله دلالة خاصة لأن كل ما فى (الفلفلات) يابس .

لقد عادت صغرى (الفلفلات) إلى البلدة فى قطار المحافظات بعد ثلاثة أشهر وأربعة أيام من هروبها . وكان حادث عودتها ، كحادث هروبها من قبل ، موضوع الوادى كله وإن مرّ بعد ذلك وطواه النسيان كغيره وحلّ محله حدث آخر أعقبه غيره غطى عليه . وهكذا كان يسطر تاريخ الوادى بسيطا موجزا . (الفلفلة) عادت بالطبع بمفردها ، أما ديماس ، موظف المصرف ، فلم يعاد الظهور رغم أن دون خوسيه القس لم يجد فيه امرء سوء . وسواء أكان ديماس طيبا أم سيئا فقد تبخر فى الهواء كالصدي بين الجبال . ومن دون أثر يذكر .

وكان كوكو ، مأمور المحطة ، هو من حمل الخبر إلى البلدة . فبعد « اذاعة » دون رامون الصيدلى ، كان مأمور المحطة يمثل وكالة الأنباء التى يفضلها أغلب سكان المنطقة فالأخبار التى ييثرها غريبة دائما وطازجة رغم أنها ليست على الدوام بناء . وكوكو هذا رجل ذو شخصية قوية طاغية .

وكان دانييل (البوم) معجبا بطبعه ومعارفه والسهولة التى يصرف بها دخول القطارات وخروجها وحركتها فى الوادى . فكل ذلك يستدعى مقدرة ، وما سماحة طبع المأمور وموهبة التنظيم عنده بالأمور المرتجلة أو الطارئة عليه . عندما نزلت إيرنيه ، صغرى (الفلفلات) ، من القطار كانت الدموع تملأ عينيها ، وبدت أشد نحولا وهزالا مما كانت عليه وقت هروبها قبل ذلك بثلاثة أشهر . وبدت وكأنها تسير مثقلة بحمل خفى

أحدودب له ظهرها . كان ، بلا شك ، من أثر تأنيب الضمير . أما
ملبسها فكان مما ترتديه الأرامل ، الأرامل المفجوعات ، سواد فى سواد ،
مع منديل أسود صفيق يغطى وجهها .

كان المطر قد هطل طوال النهار ، ولم تكن (الفلقة) ، وهى ترتقى
العقبة فى الطريق إلى البلدة ، تحرص على تجنب الحفر ، بل كانت تجد
عزاء غريبا فى غمس قدميها الصغيرتين المرة تلو المرة ، فى البرك الموحلة
المنتشرة على الطريق .

وبدت (الفلقة) الكبرى مندهلة وهى ترى أختها تقف مترددة أمام
باب الدكان . مررت يدها أمام عينيها وكأنها تحاول طرد شبح مخيف .
- نعم ، لولا ، أنا إيرنيه - همست الصغرى - لاستغربى . لقد
عدت ، عدت خاطئة نادمة . هل تسامحني ؟

- بحق دهر الداهرين . تعالى هنا . . . ادخلى .
وتوارت الأختان فى الحجرة الملحقة بالدكان ، وهناك تأملت كل
واحد منهما الأخرى بصمت . أما الصغرى فظلت منكشمة مخذولة
مطأطئة الرأس . أما الكبرى فبدت وكأنها سمتت مع رجوع الأخرى
نادمة .

- هل تدركين - ، إيرنيه ، مافعلت ؟ - بادرتها القول .
- اسكتى ، أرجوك - تأوهت الأخت الصغرى وانخرطت على المائدة
تبكى بمرارة .

واحترمت (الفلقة) الكبرى بكاء أختها ، فالبكاء لازم لتطهير
النفس . ولما استعادت إيرنيه هدوءها ، تبادلت النظرات مع أختها .
ماكانت الأختان بحاجة للكلمات لتتفاهما ، فقد كان التفاهم ينبع مما لا
يعبر عنه بكلام .

- ایرنيه ... هل ... ؟
- نعم .
- يا الهی .
- لقد خدعنى .
- خدعك أم خدعت نفسك ؟
- لا فرق ، أختاه .
- هل كان روجك عندما ... ؟
- لا ... ولا هو كذلك الآن .
- يا الهی وهل تنتظرين ... ؟
- لا . لقد قال لى ... قال لى ... - وقطع النحيب صوتها .
- وساد الصمت من جديد . ثم سألت (الفلقة) الكبرى :
- ماذا قال لك ؟
- قال إنه عقيم .
- النذل .
- وهكذا ترين أننى لن أحمل منه .
- وهنا فقدت (الفلقة) الكبرى آداب اللياقة ومعها رمام الأعصاب :
- فأنت إذأ تعرفين ما فعلت ؟ لقد ضيّعت شرفنا . أهدرت شرفك
- وشرفى وشرف والدينا المرحومين .
- لا ، هذا لا ، لولا ، بحق السماء .
- ماذا تظنين إذأ ؟
- كفأك وهما أختاه ، نحن الدميّات لاشرف لنا .
- وعلت وجهها إيماءة تسليم وهدها يقين راسخ . ثم أضافت :
- هو قال لى ذلك .

- ولكن ألا تعلمين أن شرف المرأة أعز عليها من الحياة ؟
- أعلم ذلك ، لولا .
- إذا ؟
- سأفعل ما تأمرين به أختاه .
- وهل أنت مستعدة ؟
- خفضت (الفللفة) الصغرى وقالت :
- نعم .
- تلبسين السواد بقية عمرك ، وتبقين حبيسة الدار خمس سنين .
- هذه هى شروطى .
- أقبل بها .
- اصعدى إلى البيت إذا .
- وأغلقت (الفللفة) الكبرى الدكان بالمفتاح وصعدت وراء أختها .
- وفى الحجرة جلست ايرنيه على حافة السرير ، وجاءتها لولا بطست فيه ماء
- فاتر فغسلت لها قدميها . كانت الاثنتان فى تلك الأثناء صامتتين . ولما
- انتهتا تنهدت (الفللفة) الصغرى ثم قالت :
- ما أحقره !
- ولم تعلق (الفللفة) الكبرى بشيء . كان بؤس أختها يضافى عليها
- وقارا صارما .
- وواصلت هذه الكلام :
- كان طامعا فى مالى . كان ، ابن الحرام ، يظن أن لدينا مالا كثيرا
- ولماذا لم تقولى له منذ البداية إننا لا نملك غير ألف دورو ؟
- كان ذلك سيعنى ضياعى ، أختاه . كان سيهجرنى وأنا أحبه .

- ما أضعاك هو سكوتك يامجنونة .
- لقد صرف كل ماعى .
- ماذا ؟
- عاشرنى مادامت النقود معى ، ولما انتهت تركنى مرمية تائهة . إنه نذل ، يا أختهاه وقاسد وقاس .
- واكتست وجنتا (الفلقة) الكبرى الهزيلتان بمزيد من الحمرة وقالت :
- إنه لص . هذا هو وصفه . إنه مثل ديماس الآخر .
- وسكتت بعد أن هدأت سورة غضبها ، ولكن الوسواس لم تلبث أن بدأت تنخر فى ضميرها . فما الذى تفوهت به عن اللص الطيب ديماس ؟
- ألم يرض الرب عن هذا الصنف من التائبين ؟ وأحست بوخز شديد فى ضميرها « غفرانك اللهم وعفوك » وقررت أن تذهب من غدها إلى دون خوسيه للاعتراف ، فهو القادر على مواساتها والصفح عنها . وكان ذلك هو كل ماتحتاجه آنذاك : قليلا من المواساة . ومررت من جديد يدها من أمام عينيها محاولة طرد الكابوس . وخطت بقوة وقالت :
- حسنا أختهاه : غيّرى ملابسك . أنا نازلة إلى الدكان . وعندما تنتهين من تغيير ملابسك يمكنك الخروج إلى الشرفة لسقى الجيرانىو كما كنت تفعلين من قبل . وغداً ستذهبن لزيارة دون خوسيه ، فعليك أن تعجلى بتطهير روحك الشقية .
- وقاطعتها (الفلقة) الصغرى :
- لولا .
- ماذا ؟
- أشعر بخجل شديد .
- وهل بقيت لديك فضلة منه ؟

- من ماذا ؟
- من الخجل .
- وأيدت إيرنيه إيماءة يأس :
- لا أستطيع أخناه .
- لو أنك خجلت عندما هربت مع رجل غريب لما فعلت ما فعلت .
- لا أستطيع ... لأن دون خوسيه ... قدیس . لولا ، افهمی ذلك . إنه لا يقدر ضعفى .
- دون خوسيه يقدر كل الضعف فى البشر ، فالرب موجود فيه . ثم أن التوبة الخالصة هى إحدى شروطى أنفهمين ؟
- وسمع صوت قطعة نقد تضرب بزجاج الدكان ، فقالت (الفلقة) الكبرى وقد نقد صبرها :
- هيا ، عليك أن تقررى ، فهناك من ينادى فى الأسفل .
- وأجابت إيرنيه فى نهاية الأمر موافقة :
- حسنا ، لولا ، سأذهب غدا للاعتراف .
- ونزلت (الفلقة) الكبرى إلى الدكان وفتحت الباب فدخلت كاتالينا (الأرنية) . كانت هذه ، شأن أخواتها ، مقلوبة الشفة العليا ، وكان أنفها الصغير ينكمش وينبسط فكأنه لا يكف عن الشم . ومن هنا دعین بـ (الأرنيات) ؛ وكذلك لقبن بـ (الكاكات) لأن أسماءهن هى كاتالينا وكارمن وكاميليا وكاريداد وكاسيلدا ولأن أباهن كان لجلاجا يتلعم بالكاف وهو يناديهن .
- واقتربت كاتالينا من طاولة البيع :
- أريد ملحاً ببيزته .
- وبينما كانت (الفلقة) الكبرى تلبى طلبها ، رفعت وجهها الأرنبى

صوب السقف وارتعشت ارنبتا أنفها لثوان :

- لولا ، هل عندك غريباء ؟

وانغلقت (الفلفلة) بأحكام على نفسها ، فالأرنبات يدرن بدالة
البلدة والأخبار تصل اليهن بالسرعة نفسها تقريبا التي تصل إلى كوكو
مأمور المحطة .

- لا . لماذا ؟ - ردّت بحذر -

- كأننى سمعت صوتا فى الأعلى .

- قد يكون القط .

- كلا ، كلا ؛ إنه وقع خطوات .

- القط أيضا له خطوات .

- افهمينى ، لولا ، أنها خطوات آدمى ، ولا أظنه لصاً .

- خذى الملح - قالت (الفلفلة) الكبرى مقاطعة .

وتطلعت (الأرنبة) من جديد إلى السقف وتشممت حولها مرارا
وتكرارا ، وعندما وصلت إلى الباب التفتت لتقول :

- لولا ، مارلت أسمع وقع الخطوات فوق .

- حسنا ، اذهبى أنت فى أمان الله .

ولم يحدث أن تردد عدد من الناس على دكان (الفلفلات) كما
حدث ذلك المساء . كما لم يحدث أن خرج من ذلك العدد الضخم من
الزبائن مبلغ على ذلك القدر من الضالة .

كانت ريتا (البلهاء) ، امرأة الإسكافى ثانية الزائرات :

- اعطينى بريالين من الملح .

- ألم تشترى ملحاً أمس ؟

- بلى ولكنى أريد المزيد .

وبعد توقف خفضت (البلهاء) صوتها .
 - النور مضاء فى الطابق العلوى ، ولا بد أن عدّاد الكهرباء يجرى
 بسرعة .
 - وهل ستدفعينه عنى ؟ .
 - كلا بالطبع .
 - دعيه يجرى إذأ .
 وتقاطرت من بعد باسى ، خادمة الصيدلى ، ونيوكا ، امرأة الجانو ،
 وماريا (الفطساء) ، وكانت هى الأخرى يابسة البطن ، وسارة (البعورة)
 و (الأرنبات) الأربع الباقيات وخوانا ، القيمة على منزل دون انطونيو
 (الماركيز) وروفيئا ، زوجة بالنجو ، التى ما عادت منذ أن تزوجت ، تؤمن
 بالرب ولا بالقديسين ، وعشرون امرأة سواهن . جئن جميعهن ، باستثناء
 (الأرنبات) الأربع لشراء الملح ، وسمعن كلهن وقع خطوات فى الطابق
 العلوى وقلقن كافتهن وهن يرين النور مضاء وعداد الكهرباء يسرع
 الجريان .
 وفى الساعة العاشرة ، عندما كان الهدوء يخيم على البلدة ، علا
 صوت پاكو الحداد القوى الصارم كان يسير مترنحا فى الشارع فتوقف أمام
 شرفة (الفلفللات) . كان يحمل فى يمينه وجاجة ويهرش باليسرى قفاه .
 ولو لم تكن البلدة كلها قد علمت بالخبر لما كان لعباراته التى تفوه بها من
 معنى ولا كان بينها من ترابط .
 - عاشت الأنت الضلالة ، عاشت صاحبة الفخزين الناشفتين
 والصدور المتخشب . . .
 وقام بحركة هزلية متصنعا الذهول وعاود هرش قفاه وتجنأ ثم نظر
 من جديد إلى الشرفة وقال :

- من خطف قلبك ؟ ديماس ؟ اللص الطيب ؟
 كان يضحك وقد التصقت ذقنه الجبارة ب صدره العريض . أما
 (الفلفلات) فقد أطفأن النور ورحن يرقبن مثير الفضائح من إحدى فتحات
 النوافذ . « ومن عساه يكون غير هذا السافل الساقط » دمدت (الفلفلة)
 عندما لمحت ضياء مصباح الشارع الخافت منعكسا على شعر الحداد الأحمر
 الكث . وأصببت (الفلفلة) الصغرى بما يشبه النوبة العصبية عندما نطق
 الحداد باسم ديماس . اطردي هذا الرجل من هنا . أتوسل إليك أنتاه .
 اطرديه ، فصوته يفقدنسى صوابى . وحملت (الفلفلة) الكبرى السطل
 الذى ينتهى إليه ماء المغسلة وفتحت الشباك قليلا لتسكب ما فى السطل
 على وجه پاكو الحداد الذى كان فى تلك اللحظة يبدأ هتافه من جديد :
 - عاشت الأخ . . .

وقطعت رشقة الماء عليه العبارة فنظر إلى السماء ببلاهة وبسط ذراعيه
 العظيمتين ، اللتين شكلتا مع بدنه صليبا ، وقال مخاطبا نفسه وهو يتقدم
 مترنحا صوب الطريق العام :
 - عد إلى بيتك ياپاكو ، فالسما تمطر من جديد .

الفصل التاسع

لقد أدرك دانييل (اليوم) أن ليس من السهل عليه أن ينام ، فرأسه الجامح فى انفعال محموم نحو الذكريات كان يغلى باحتدام لا يعرف لحظة من الهدوء . المشكلة هى أن عليه أن ييكر فى غده ليأخذ القطار السريع الذى سيحمله إلى المدينة . ولكنه غير قادر على تجنب التفكير . لم يكن هو من يستحضر الأشياء والوادي بل كانت الأشياء والوادي هى التى تفرض نفسها عليه وتلّفه بلبغظ الحياة فيها وبسعيها الدؤوب وبتفاصيل يومه الكثيرة التافهة .

من خلال النافذة المفتوحة المواجهة لسريرة الشكّاء كان يشاهد قمة جبل « راندو » مغروسة فى جوف السماء المليئة بالنجوم . وكان الليل يضيف على الجبل لونا مظلما كالخا . فذلك الليل ، كعهده منذ احدى عشرة سنة ، يتحكم فى الوادي كما يتحكم روكى (البعور) فى صاحبيه (اليوم) و (الاقارع) . كانت حكاية الوادي القصيرة تمر فى مخيلته فتراها عينا روحه ، بينما تؤجج صافرات القطارات القاصية وخوار الأبقار الحالم ونقيق الضفادع الكثيب المنطلق من تحت الأحجار وروائح الأرض النديّة حنينه وتضيف على ذكرياته لمسة من واقعه المحسوس .

مع ذلك فهذه الليلة لا تختلف عن كثيرات غيرها مررن على الوادي . إنها ، دون إمعان فى التذكر ، كتلك الليلة التى تسلقوا فيها سياج مزرعة (الامريكى) ليسرقوا التفاح .

ما كان التفاح فى الواقع يعنى شيئا بالنسبة لـ (الامريكى) الذى يمتلك فى المكسيك مطعمين فاخرين ومعرضا لاجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية . كما لم تكن تفاحات (الامريكى) تعنى الكثير بالنسبة إليهم

وهم الذين يجدون فى حدائق بيوتهم من التفاح ما يعدل تفاح تلك المزرعة جودة . أما لماذا يسرقون التفاح فتلك مسألة بالغة التعقيد . ربما ، وببساطة ، لأن أياً منهم لم يكن تجاور حينها التاسعة من العمر ، ولأن الاحساس بالمنوع كان يطبع أفعالهم الصبائية بمتعة لا يمكن وصفها . انهم يسرقون (الأمريكى) تفاحاته للسبب ذاته الذى يجعلهم يتحدثون ، وهم فى الجبال أو فى حقول البلوطة بعد السباحة ، ويضربون أخماساً لأسداس حول « هذا » الذى هو فى الواقع علّة الحياة وسرّها .

لم يكن خيراردو ، قبل أن يهاجر من البلدة ، يدعى بـ (الأمريكى) كان ، وحسب ، الابن الأصغر للسيدة ميكائيل القصابة ، والأشد خجلاً بين أولادها على حد قولها . وإذا كانت أمه تؤكد أنه « الأشد خجلاً بين أخوته » فإن أهل البلدة يعزّمون أنه كان ، قبل رحيله ، نصف أبله وإنه لو قصد المكسيك حقاً فلن ينفع إلا أجيراً أو حمالاً فى الميناء .

ولكن خيراردو ذهب وعاد ، بعد عشرين عاماً ، ثرياً . لم يكتب لأحد طوال ذلك الوقت ، وعندما عاد إلى الوادى كان الدود قد أتى على دفتى والدته القصابة وكبدها وكليتيها .

ويكى خيراردو ، الذى صار يدعى بـ (الأمريكى) . برهة فى المقبرة المجاورة للكنيسة دون أن يتدلى المخاط من منخريه كما كان حاله فى الصغر ، ودون أن يسيل رواله كشأنه آنذاك .

بكى بصمت دون أن يلدف دمة واحدة ، وكما يبكى المتحضرّون ، على حد تعبير القيّمة على بيت دون انطونينو (الماركيز) . ومعنى هذا أن خيراردو تغير كثيراً . أما أخوته فقد بقوا فى مكانهم لا يبرحونه رغم أنهم كانوا ، فى نظر أمهم ، أكثر ذكاء منه . لقد حل الأخ الكبير - قيصر - فى دكان والدته ليبيع الأكباد ولحم الدفتين والكلّى إلى أهل البلدة وليموت

بعد سنوات كما ماتت السيدة ميكائيل وليهب ، كما فعلت هي ، كبده ولحم دفتيه وكليتيه إلى دود الأرض . فما أعجبه من سلوك متناقض غريب ! أما الآخر ، داميان ، فكان يمتلك أرضا زراعية على الجانب الآخر من النهر . ما كانت تساوى شيئا بل كانت مساحات من المروج وحقول الذرة الذاوية يقتات منها أربعة كوارتوس . يكسبها من ذينة الدجاج التي يملكها في حظيرة داره .

عندما رار خيراردو (الامريكى) البلدة أول مرة . أحضر معه امرأة لا تحسن الكلام وابنة لا تتجاوز العاشرة وسيارة لا تصدر ضجيجا . كانوا جميعا ، والسيارة معهم ، فى أبهى حلّة . وعندما قال خيراردو إنه ترك فى المكسيك مطعمين فاخرين وباخرتين ملاحيتين ، تملق قيصر وداميان لشقيقهما كثيرا وأبديا رغبة فى العودة معه ليصّرفا له شؤون مطعميه وباخريته ولكنه لم يوافقهما على ذلك بل أقام لهما محلا للأجهزة الكهربائية فى المدينة . وهكذا رحل هذان عن الوادى وتنكرا له ولأسلافهم وصارا لا يزوران البلدة إلا من حين لآخر . فى أعياد العذراء عادة وهما يرتديان القبعات المكوّية والياقات المنشأة وليجزلا فى العطاء لمن يخدمهما ولينظما مباريات الأكياس والأشرطة وليضععا على طرف عصا الكوكانيا جائزة الدوروات الخمسة .

سأل الأصدقاء خيراردو مرة عن سبب زواجه من شقراء لا تحسن من الكلام إلا قليله وهو من هو شأننا ومكانه فابتسم (الامريكى) وردّ عليهم من دون انفعال قائلا لهم أن للشقراوات فى أمريكا قيمة عالية ، وأما عن لسانها فانها تتكلم ولكن بالانكليزية لأنها يانكى . ومنذ ذلك الوقت صار اندريس ، الرجل الذى لا يرى من جانيه ، يطلق اسم (يانكى) على كلبه لأنه ، كما يقول يتكلم كما تتكلم امرأة خيراردو (الامريكى) .

على أن (الأمريكى) لم يتنكر لبلدته ، والناس عندما يصيرون أغنياء يتعلّقون بالمكان الذى كانوا فيه من قبل فقراء ، وهذه هى أفضل طريقة للبرهنة على الانقلاب الذى طرأ على حالهم وأوضح سبيل للشعور بالسعادة وهم يرون الآخرين ، وكانوا مثلهم فقراء ، وقد ظلوا على فقرهم رغم مرور الزمان . لقد اشترى بيت أحد المصطافين ، أمام الصيدلية ، وحوره وملاً حدائقه بالنباتات الجميلة وبالأشجار المثمرة وصار يأتى من وقت لآخر لقضاء بعض الوقت فى البلدة . وقد اعترف مؤخراً أمام أصدقائه القدامى أن أحواله فى المكسيك تسير على ما يرام وأنه يملك هناك مطعمين فاخرين توكيلاً لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية أى بزيادة واحدة عن المرة الأولى التى زار فيها البلدة . ولكن مالم يرتفع عدده هم أولاده ، فما كان عنده غير ميكى التى كانوا يدعونها هكذا ، رغم أن اسمها كاسم جدتها هو ميكائيل ، لأن الأغنياء فى المدن ، حسبما تقول القِيمة على بيت دون انطونينو (الماركيز) ، لا يرغبون فى إضاعة وقتهم فى مناداة الأشخاص بأسمائهم كاملة . ثم أن نحافة الـ (يانكى) ، وهى التى ما كانت تهبط على الوادى إلا للمأوى ، ما كانت تسمح بالحجاب المزد من هؤلاء الأولاد . ولو أن الأمر تعلق بقيصر وداميان لفضلاً لو أن ميكى هى الأخرى لم تولد وإن حملوا لها عند قدومها من أمريكا ، باقات الزهور وعلب الحلوى وحملوها إلى أفضل مسارح المدينة وأرقى مطاعمها . هذا ، على الأقل ، ما كانت تقوله القِيمة على بيت (الماركيز) .

لقد أحببت ميكى بلدة أبيها ، ولطالما صرحت بأن المكسيك لا تعجبها ، أما اندريس الإسكافى فكان يقول إنه عندما يمتلك المرء مطعمين فخمين وتوكيلاً لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية فى بلد ما فليس من الصعب التحقق من إعجابه بذلك البلد أو نفوره منه . وما كان لميكى أى من تلك

الأشياء فى الوادى ، مع ذلك فقد كانت تبدو سعيدة فيه ، تزور البلدة كلما ساحت الفرصة وتقيم فيها حتى يأمرها أبوها بالعودة ، حتى أنها أقامت مؤخرًا ، وقد صارت آنسة ، مدة طويلة فى البلدة بينما والداها يقيمان فى المكسيك ، وعمّاهما اللذان يدعيان فى البلدة بـ (خيال الأمريكى) يريعان شؤونها ويزورانها بين الحين والحين .

لقد ولد دانييل (البوم) وقت أن ارتفع عدد البواخر من اثنتين إلى ثلاث، أى عندما كان (الأمريكى) يدّخر لشراء الثالثة . كان عمر ميكا تجاوز آنذاك التاسعة وكانت قد عرفت البلدة لتوها .

ولكن عندما خطرت لروكى (البعور) فكرة سرقة التفاح كان خيراردو يمتلك البواخر الثلاث وكان عمر ميكا سبعة عشر عاما . وكان فى مقدور (البوم) آنذاك أن يستنتج أن (الأمريكى) تقدّم كثيرا رغم أنه لم ينفق أربعة عشر عاما فى الدراسة ورغم أن أمه القصابة كانت تصفه بأنه «الأشدّ خجلا من الآخرين» ورغم أنه كان يمضى اليوم متجولا فى البلدة وقد تدلّى المخاط من أنفه وسال الروال على حنكه . وسواء أكان الأمر حقيقة أم لم يكن فهو ما يقال فى البلدة وليس هناك ما يدعو للظن بوجود اتفاق ليقتص عليه الجميع كلاما ملقفا .

عندما تسلقوا سياج مزرعة (الأمريكى) أحسّ دانييل (البوم) بقلبه يدق فى حنجرتة . الواقع أنه ما كان راغبا فى تفاح بل فى إتيان شئ محرم . كان روكى (البعور) أول من هبط على الجانب الآخر من السياج ، نزل بهدوء القطط ورشقاتها فكان نوابض شدّت إلى ركبتيه وردفيه . ثم لوح من مكمنه خلف الشجرة لرفيقه كى يعجلا بالنزول . ولكن ما عجل فى دانييل كان قلبه الذى راح يتطّ مثل مجنون منفلت . كان يشعر بخدر فى أطرافه ويحسّ برهبة غامضة تبدد جراته .

قفز جيرمان (الأقرع) ثانيا ثم دانييل (البوم) آخرهم . كان (البوم) مطمئنا بعض الشيء بعد أن انتقلت إليه فى الأسابيع الأخيرة عدوى وسواس (الفلقلة) الكبرى . لقد سأل دون خوسيه صباح ذلك اليوم :

- سيدى القس ، أمن الخطيئة سرقة تفاح رجل غنى ؟

فكرّ دون خوسيه ، وهو القديس العظيم ، قليلا قبل أن يسمّر فيه عينيه النافذتين مثل طرفى دبّوس :

- فى ذلك نظر ياولدى . فإذا كان غنيا جدا! وكان السارق مضطرا للسرقة كيلا يموت جوعا فإن الرب يقدر هذا فيرحم ويغفر له .

واطمأن (البوم) فى سريره فخيارادو (الأمريكى) رجل غنى جدا . أما من ناحيته هو ، أفلا يمكن أن يصاب بما أصيب به بيّيه (ذو الرأس الكبير) الذى صار كسيحا بسبب نقص الفيتامينات حتى أن دون ريكاردو الطبيب نصحه أن يكثر من أكل التفاح والبرتقال إن هو أراد الشفاء من مرضه ؟ ومن ذا الذى يضمن له أنه إن لم يأكل من تفاح (الأمريكى) فلن يصاب بمثل ما أصيب به (ذو الرأس الكبير) ؟

أحس دانييل (البوم) بطمأنينة أكثر وهو يفكر فى ذلك ، ونخفت عنه كذلك معرفته بأن (الأمريكى) وزوجته موجودان فى المكسيك ، وأن ميكا و (خيال الأمريكى) موجودون فى المدينة وأن باسكوالون عامل الطاحونة والمسؤول عن البستان ، موجود فى حانة الجانو يلعب الموس .

فإذا لم يكن ثمة ما يخشاه فلماذا يدق قلبه إذاً بتلك الصورة المضطربة ؟ ولماذا يحسّ بفراغ هائل فى معدته ؟ ولماذا تتشنى رجلاه عند الركبتين ؟ .

ثم : ليس هناك من كلاب ، ذلك الأسلوب الوقائى الذى لا يروق لـ (الأمريكى) ، ولا من نوابض صائدة ولا شراك مدفونة فعلام الخوف ؟

وراح الثلاثة يتقدمون بحذر ويتحركون بين أفياء الحديقة الواسعة تحت
سما سامة مزدانة بنجوم دقيقة ، ويتخاطبون بهمس خفيف بينما العشب
يهس بنعومة تحت أقدامهم ، كان يخيم على المكان جو من الأصوات
الخافتة والهمسات الغامضة تشد أعصاب دانييل (البوم) وتوترها .

- وإذا أحس بنا الصيدلى ؟ - تتمم دانييل فجأة . لكن همسة واجرة
أمرة من روكى (البعور) أسكتته . إنهم يتقدمون فى المزرعة ، فلا
تخاطب بينهم بغير الاشارات . كانت ايماءات روكى العصبية ، وهو يراهم
يتأخرون فى فهم إشاراته ، تكتسب فى الظلمة قوة وتأثيرا كبيرين .
ولما بلغوا شجرة التفاح المقصودة ، وكانت ترتفع لعدة أقدام خلف
البناء ، قال لهم (البعور) :
- ابقوا هنا وأنا سأهزها .

وتسلق الشجرة ، وتسارعت دقات قلب (البوم) عندما بدأ (البعور)
يهز أغصانها بكل قوته وعندما بدأت التفاحات الناضجة تسقط على العشب
وتنقر الأرض نقر البرد . ماكان هو وجيرمان (الأقرع) قادرين على جمع
كل الثمار الساقطة ، بل كان (البوم) يفتح فمه مع كل انحناء لشعوره
بأن الهواء يعوزه وبأنه موشك على الاختناق . وفجأة توقف (البعور)
عن هز الشجرة :

- انظروا . . . السيارة قادمة ! - قال وهو بعد فى أعلى الشجرة
بصوت منقبض غريب .

ونظر (البوم) و (الأقرع) ناحية البيت المظل . كان جناح سيارة
(الأمريكى) السوداء ، وهى أقل ضجيجا من تلك التى جاء بها أول مرة
إلى البلدة ، يتلألأ من خلف ركن البناية . كانت شفتا جيرمان (الأقرع)
ترتجفان وهو ينادى :

- انزل ... بسرعة ... إنها هى .
- كان دانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) يتحركان وقد ثنيا جسميهما من الوسط ليتمكننا من حمل كومة التفاح . وخشى (البوم) أن يفاجئه أحد وهو على هذه الهيئة فأيد بحرارة قول (الأقرع) :
- هيا ، بعورر ، انزل . فلدينا منه الكثير .
- لقد أفقدهم الخوف اتزانهم فبدأ صوت دانييل مضطربا ونبراته عالية . ولما حاول (البعورر) الإسراع فى النزول داس على غصن فدوى صوت انكساره فى ذلك الجو الخالى إلا من الحفيف والهمس مثل عيار نارى .
- كان اضطرابهم فى ازدياد :
- انتبه (بعورر) .
- سأخرج .
- اللعنة !
- جبان من يجتاز السياج أولا !
- ليس من اليسير تحديد المكان الذى خرج منه الشبح ، ولكن دانييل (البوم) صار من يومها يؤمن بالسحر والعفاريت والأشباح . إنها ميكا تقف أمامهم طويلة عمشوقة القوام وقد ارتدت بدلة بيضاء . كانت صورتها تكتسب فى الظلمة الدامسة حضورا علويا كحال جبل (راندو) .
- فأنتم إذا من يسرق التفاح ؟ .
- وترك دانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) التفاحات تسقط واحدة فواحدة . كان الدعر يقطع أنفاسهم . أما ميكا فكانت تتكلم على سجيتهما دوما اضطراب فى نبرة صوتها :
- هل يعجبكم التفاح ؟
- وتلجج دانييل (البوم) المفزوع للحظة :
- ن ... نعم ...

وأطلقت ميكا ضحكة بدت انعكاسا لشعور خفى بالانبساط . ثم
قالت :

- ليأخذ كل واحد تفاحتين ويتبعنى .
وامتشلوا لأمرها . واتجه الأربعة صوب الرواق . ولما وصلوا هناك
أنارت ميكا المكان بعد أن حركت عتلة مخفية وراء أحد الأعمدة . كان من
حسن حظ (البوم) أن حال العمود بين النور وبين وجهه المكروب .
وعاودت ميكا إطلاق ضحكتها الغريبة ، وخامر (البوم) خوف من أن
تقدم الفتاة على تسليمهم إلى الحرس المدنى .
لم يكن (البوم) شاهد ابنة (الأمريكى) عن قرب من قبل . لقد
أنساه وجهها وقوامها لبرهة موقفه المخرج وذكرته نعومة صوتها وموسيقاه
بطائر الحسون . كانت بشرتها رقيقة محمصة وعيناها غامقتين مظللتين
برموش كالحة السواد . أما ذراعاها الطويلتان المطاطيتان وساقاها الطويلتان
الرشيقتان فلها حمرة صدر ذكر الحجل . وكانت خفة حركتها وهى تنتقل
من مكان إلى آخر توحى بقدرتها على الطيران والانطلاق إلى الفضاء مثل
فقاعة من الصابون .

- حسنا . فأنتم الثلاثة إذا لبصوص صغار - قالت فجأة .
وأقر دانييل (البوم) فى دخيلته أن فى مقدوره إمضاء كل وقته وهو
يسمعهما تقول فى حقه إنه لص صغير دون أن يمل من ذلك أو يتعب .
فوصفها له بـ « اللص الصغير » تعدل مداعبتها لحدوده يديها ، يداها
الصغيرتان الناعمتان الرقيقتان .

واستندت ميكا على أريكة فتحدت معالم جسمها . قالت :
- لن أعاقبكم هذه المرة - سأترككم شرط أن تعدونى أنكم إن أردتم
التفاح ثانية فعليكم أن تطلبوه منى لا أن تتسلقوا السياج كاللصوص .

ونظرت إليهم الواحد بعد الآخر وهم يهزون رؤوسهم موافقين .
- يمكنكم الذهاب الآن .
وخرج الأصدقاء الثلاثة من الباب الكبير فى هدوء . ساروا دون أن يتبادلوا الكلام . كان الصمت ثقيلًا مطبقًا يفرضه عليهم إدراكهم أنهم ما كانوا أحرارًا طلقاء إلا لعفو الآخرين وكرمهم وليس لمهارتهم هم وحسن تخلصهم . وفى هذا ما يبعث على الخيبة وخصوصًا لدى الأطفال .
نظر روكى (البعور) عرضًا إلى (البوم) الذى كان يسير بقم فاغر وعينين شاردتين . فجذبه من ذراعه قائلاً :
- ما بك يا (بوم) ؟ أراك كالمشدوه .
ولم ينتظر الرد بل رمى بتفاحته على جسمين داكنين كانا يرعيان بأمان فى مزرعة الصيدلى .

الفصل العاشر

كانت صداقة (البعور) تلزم دانييل (البوم) أحيانا بمضاعفة جرائته وهو وضع شجاعته موضع اختبار ، ذلك أن (البعور) كان يرى أن شجاعة المرء قد تتغير بين ليلة وضحاها كالمنطق أو كالريح فهو شجاع اليوم مسلوب الإرادة غدا وبالعكس ، أما تقرير ذلك فيعتمد على قبوله مجازاة (البعور) في مآثره اليومية أو رفضه لذلك .

- جبان من لا يفعل هذا - كان يستفزهم المرة تلو الأخرى ، ليجد دانييل (البوم) وجيرمان (الأقوع) نفسيهما مجبرين على اجتياز الجسر مشيا على حافته ذات الستيمترات الخمسة عشر ، أو الانجراف مع تيار النهر والغوص ومن ثم معاودة الظهور ، مدفوعين بتيار الأعماق ، في « بركة الإنكليزي » أو ملاقة القطار وهو داخل النفق . ولطالما أفاق دانييل من نومه مذعورا لاهثا وهو عاكس متشنجا بمرتبة سريره إذ لم يفلح في مجازاة (البعور) في مآثره . انه لا يغرق في النهر كما رأى في منامه ولا يتدلّى من حافة الجسر ويرططم بالصخور بعد سقوطه ولا يتجرف تحت حدائد القطار المزمجرة . إنه بخير ويرقد مرتاحا في سريره الحديدي ولا شيء يدعو البتة إلى الخوف .

ومن هنا كانت أيام المطر تعنى هدوءا غير مألوف .
وأيام المطر في الوادي كثيرة رغم ما يقال من أن كل شيء قد تغير في السنوات الأخيرة حتى لقد عزّ الكلال بسبب شحّة المياه ، وهو ما لم يحدث من قبل إطلاقا . ان دانييل يجهل مقدار ما كان يسقط من مطر في الوادي ، ولكنه يستطيع الجزم أنه الآن يسقط بغزارة ، ثلاثة أيام من كل خمسة وهو مقدار لا يستهان به .

ومع سقوط المطر تتغير معالم الوادى ، فالجبال تكتسى لونا داكنا مكفهرا لا يخفف من حدته إلا الضباب والحقول تتفجر فى صخب أخضر متلألئ يوشك أن يكون اليماء . أما لهات القطارات فيسمع من مسافات أبعد ، وتتقاذف الجبال صفيها حتى يختفى بعد أن يتحول إلى أصداء قاصية ثم إلى رنين خافت يكاد لا يسمع . وقد تعلق الغيوم بالجبال فتبدو قممها مثل جزر معزولة فى لجة محيط رمادى مضطرب الموج . وما كانت عواصف الصيف تفلح فى التخلص من طوق الجبال ، فكانت تواصل الهبوب أحيانا لثلاثة أيام دواما انقطاع . على أن البلدة كانت مستعدة لمواجهة هذه الحالات الطارئة : فمع أولى القطرات تخرج الأهلية الحشبية فيضج الوادى على مدار الساعة بقطقاتها الرتيبة المروونة . ويرى دانييل (اليوم) أن الوادى لا يكتسب هيأته المناسبة إلا فى مثل تلك الايام الممطرة أو فى أيام الميلاد حين ينهال الثلج بغزارة ، فما يناسبه هو المطر والرطوبة والحزن والكآبة ، حتى أن الكسل والخمول اللذين يميزانه يتلاشيان مع الشمس الساطعة ومع الأفاق الزرق الراحبة .

كان لأيام المطر عند الأصدقاء الثلاثة سحر خاص وفتنة لازمة . فهم عندهم «ناسبات للتخطيط والتأمل والتذكر ، وهم أثناءها لا يبدعون بل يجتروا ، ولا ينشطون كان الحديث الهامس فى متبن بيت (اليوم) يمثل عنده مناسبة لاستحضار أيام الشتاء اللذيذة حين كان أبوه يجلسه أمام الموقد ليقص عليه حكاية النبی دانييل أو عندما كانت أمه تضحك لقوله بأن على البقرة الحلوب أن تحمل جرارا .

كان الثلاثة يفتشون التبن ويراقبون الطريق العام والسكة الحديدية من الكوة الامامية ويخططون لمشاريعهم .

وحدث فى واحد من تلك الايام أن تكونت لدى (اليوم) ، وهم فى متبن بيته ، فكرة واضحة عن قوة روكى (البعور) وعن مقدار المראה التى

يحسّها المرء عندما لا يحمل نذبة فى جسمه . حدث ذلك عصر يوم صائف ، بينما كان المطر يدق على سقف معمل الجبن القرميدى ، وبينما كان الوادى يقبع تحت وطأة سماء ثقيلة رمادية رتيبة .

ما كان (البعور) يكتفى بمجرد النظر إلى عضلاته المفتولة :

- انظر . تحسّس ! تحسّس !

ثم ثنى ذراعه فبررت كتلة غير متناسقة من العضلات والأوتار المتعرجة . ومدّ (اليوم) متردداً أصبعه وتحسّسها ..

- صلبة أليس كذلك ؟

- بلى .

- طيب فانظر هنا .

ورفع بنطاله المخملى وكشف عن ساقه ووتر عضلاته فصارت كالهراوة

صلابة :

- عاين ! تحسّس ! تحسّس !

ومن جديد تحسّس أصبع دانييل كتلة العضلات الضخمة تلك ، متبوعاً عن كذب باصبع (الأقرع) .

- إنها أشد صلابة من عضلات الذراع . أليس كذلك ؟

- بلى .

ثم كشف عن صدره وجعلهم يتحسّسونه أيضاً ثم يعدّون حتى المائتين قبل أن يزفر ويعاود استنشاق الهواء . وطلب إليهما أن يجربا ذلك :

أما (الأقرع) فبلغ الأربعين ، وأما (اليوم) فقد بلغ السبعين ولكن

بعد جهد كبير امتقع له لون وجهه .

ثم انبطح (البعور) ووضع راحتيه على الأرض ثم بدأ يرفع جسمه ويخفضه ، وعندما وصل إلى السبعين توقف ليقول لهما :

- لم أواصل العد يوما لأعرف عدد المرات التي أقدر . أمس الأول وصلت إلى الثلاثمائة واثنين وعشرين ثم توقفت لأثني شعرت بالنعاس . ونظر إليه صاحبه قلقين مكسوفين ، فذلك الاستعراض يفوق كل تصوراتهم عن قوة (البعور) ولياقته البدنية .

- لنر كم تستطيع أنت يا (بوم) - وجه كلامه إلى دانييل فجأة .

- ولكني لا أعرف ... لم أجرب هذا من قبل .

- جربه الآن .

- ولكن ...

وانبطح (البوم) أخيرا ليحاول الثنية الأولى ، ولكن ذراعيه الرقيقتين لم تعادا التمرين فراح جسمه كله يرتعش بسبب الجهد العضلي غير المألوف . رفع عجزه أولا ثم ظهره وعُد بنشاط :

- واحد .

ولكنه ما لبث أن سقط بشاقل على الأرض المرصوفة .

فقال (البعور) :

- لا ، ليس هكذا . فلا فضل لك في رفع عجزك أولا ، فأنا هكذا أفعلها مليون مرة .

وتخلى (البوم) عن المحاولة مبتثسا بعدما رأى أنه بعد كل هذا الجهد لم يفعل شيئا سوى أنه خيب ظن صديقه به .

ونخيم على المتبن بعد المحاولة الفاشلة صمت وسكون . وعاود (البعور) فنل ذراعه ومعاينة عضلاتها ترقص مرنة متفخمة ، وخطر لـ (البوم) أن يسأله وهو ينظر إلى ذراعه :

- أنت تستطيع أن تغلب على بعض الرجال . أليس كذلك يا (بعور) ؟

لم يكن روكى (البعور) حينها قد ضرب الطبال فى المهرجان الشعبى .

ابتسم (البعور) برهة ثم قال :

- بالطبع إننى اقدر أن أتغلب على الكثير من الرجال لأن كثيرا منهم لا يمتلكون صلابة فى اجسادهم غير صلابة عظامهم وفروة رؤوسهم .
كان جيرمان (الأقرع) يدور عينيه اعجابا بينما اتكأ (اليوم) مطمئنا على كومة التبن وهو يحس إلى جانبه حماية روكى ورعايته .
كانت تلك الصداقة ضمانا قوية بالنسبة إليه وإن أصرت أمه و (الفلقة) الكبرى و (الأرنبات) على اعتبار رفقة (البعور) شرا محتوما .

وكما هو شأن تلك المسامرات فى متبن معمل الجبن أيام المطر فقد انتهت مسامرة ذلك العصر بمسابقة : رفع (البعور) بنطاله الأيسر وعرض دائرة من الجلد المجعد الطرى :

- انظرا صورة الندبة هذا اليوم . تبدو كالأرنب .

وانكفا صاحبا على ساقه ليقولا موافقين :

- صحيح . تبدو اليوم كالأرنب .

واغتم دانييل (اليوم) لمسار الحديث . إنه يعلم أن تلك المقدمات ستقود إلى جدال حول الندب والجروح . وما كان يخجله من شيء ، بأعوامه الثمانية ، مثل خلو جسمه من ندبة يباهى بها أقرانه ، إنه ليعطى عشر سنوات من عمره مقابل ندبة واحدة لأن خلو جسمه منها يشعره بأنه أقل رجولة من أصحابه الذين يمتلكون العديد منها فى أجسامهم . وكانت هذه الأفكار تبعث فيه شعورا كثيفا بالنقص والصغار . الواقع أنه لاذنب له فى أن يمتلك استعدادا أفضل من (البعور) و (الأقرع) لالتهام الانسجة ولا فى أن تلتئم جروحه العديدة دون أن تترك أثرا يذكر ، ولكنه لا يفهم الأمور هكذا ، وهو يرى أن نعومة جسمه وخلوه من الندب مصيبة وأن

رجلا من دون ندبة هو ، عنده . مثل فتاة مطيعة مؤدبة . إنه لايطمع فى ندبة معركة ولا فى تفاهة بل فى ندبة ناتجة عن حادث أو عن أى شئ ، المهم أن تكون ندبة .

كان يحفظ عن ظهر قلب قصة ندبة (البعور) . وقعت الحادثة قبل خمس سنوات أثناء الحرب يكاد دانييل (اليوم) لا يذكر شيئا عن الحرب ، ولا يحتفظ عنها إلا بفكرة غامضة مشوشة : أزيز طائرات مرّت من فوق رأسه ودوى قنابل تنفجر فى الحقول . كان سكان البلدة يهرعون ، كلما حلقت الطائرات فوق الوادى ، إلى الغابة وقد أمسكت الأمهات بالأبناء وراح الآباء يسوقون الاغنام المتعثرة ويضربونها ضربا مبرحا .

هربت سارة وقتها صوب الغابات وهى تمسك بيد شقيقها وتمجره جراً . وما كان هو ، بأعوامه الستة يخاف الطائرات أو يخشى القنابل . إنما كان يعدو مجازاة للآخرين ورغبة فى قضاء الوقت لاهيا عابثا . وكان السكان يتجمعون فى الغابة ويعسكرون مع أثاثهم وأغنامهم فكانهم قبيلة من الغجر . فى البداية كانت أجراس نواقيس الكنيسة تعلن انتهاء الغارة بثلاث دقائق غليظة تتبعها اثنتان حادثتان ، ولكن النواقيس رفعت من بعد لصهرها وبقيت البلدة من دون نواقيس حتى الحرب وعندها تبرع دون انطونينو (الماركيز) بناقوس جديد .

وقد شهد الوادى يومها احتفالا كبيرا على شرف المتبرع تحدث فيه دون خوسيه القس وعمدة البلدة آنذاك انطونيو (الحوصلة) واختتمه (الماركيز) شاكراً بصوت متهدج الجميع . وهكذا أنفق القس والعمدة ساعة للإعجاب عن الامتنان لـ (الماركيز) على تبرعه بالناقوس ، وأنفق هذا نصف ساعة أخرى للرد على امتنانهم ذاك . كان احتفالا سادته مشاعر المودة والوقار والمجاملة ولكن جرح روكى (البعور) نتج عن شظية قنبلة انفجرت فى أحد الحقول بينما يعدو هاربا ، صباح يوم صيفى ، مع سارة

باتجاه الغابة . يقول العارفون إن الحادث نتج عن قبلة طائشة ألقت بها إحدى الطائرات بغرض « تخفيف حملها » ، ولكن (البعور) يقول إنه هو الحمل الذى حاولت الطائرة تخفيفه . وعلى أية حال فقد شكر للطيار ذلك الوسام الذى علّقه له فى لحم فخلده .

واصل الأولاد الثلاثة النظر إلى الندبة التى بدت فى شكلها كالأرنب . وانحنى روكى (البعور) فجأة وحسها بطرف لسانه وأردف قائلا :

- ما يزال طعمها مالحا . يقول لوكاس (الأبتى) إن سبب ذلك هو الحديد فالجروح الناتجة عن الحديد لها دائما مذاق مالح . فعضلة ساقه مالحة وكذلك الحال مع عضلة ذراع كينو (الأقطع) ، ولكنها تفقد هذه الملوحة مع الوقت .

كان الآخران يستمعان إليه مرتابين . ولاحظ هو ارتياهم فقرب ساقه منهما ودعاهما قائلا :

- تذوّقا وستريان أننى لا أخدعكما .

وتبادل (البوم) و (الأقرع) نظرات مترددة . وانحنى (البوم) أخيرا وذاق الندبة بطرف لسانه :

- نعم إنها مالحة .

وجرب (الأقرع) بعده وهز رأسه موافقا :

- صحيح أنها مالحة ، ولكن ليس هذا بسبب الحديد بل العرق .

ذوقا شحمة أذنى وستجدان أنها مالحة كذلك .

واقترب دانييل (البوم) ، وقد أثارت القضية اهتمامه ، من (الأقرع) ولطم شحمة أذنه المشقوقة .

- هذا صحيح - قال - إن أذن (الأقرع) مالحة كذلك .

- دعنى أرى - قال (البعور) متشككا .

ورغبة منه فى خلق القضية فقد مص (البعور) شحمة أذن (الأقرع)

بشراهة من يرضع . ولما انتهى كان وجهه يعكس خيبة أمل كبيرة .

- صحيح . أنها مألحة . ولكن سبب ذلك أنك أصبت بسلك شائك
وليس بشوكة العوسج كما تظن .
- لا - قفز (الأقرع) غاضباً - فقد شقت شحمة أذنى شوكة
العوسج . أنا متأكد من ذلك .
- هذا ماتظنه أنت .
ولم يشأ جيرمان (الأقرع) أن يهزم فقدم رأسه من فمى صاحبيه :
- وقرعتى ؟ إنها مألحة كذلك . ولعلاقة للحديد بها بل جاءتنى من
أحد الطيور .
ونظر (البعور) و (اليوم) إلى بعضهما مذهولين ، ولكنهما انحنيا
على قرعة جيرمان السمرء ولطعاهما الواحد بعد الآخر .
أما دانييل (اليوم) فاعترف فى الحال :
- حقاً إنها مألحة .
أما روكى (البعور) فلم يشأ أن تلوى ذراعه :
- نعم ، ولكنها ليست ندبة . القرعة ليست ندبة ، وأنت لم تصب
بأى جرح فى رأسك فلا علاقة لذلك لملاحظتها .
كان الضوء الداخلى من كوة المتبن فى تناقص ، وكان الوادى يكتسى
كآبة وحزناً بينما يواصل الأولاد جدلهم دون أن يلحظوا أن الوقت صار ليلاً
وأن المطر يواصل نقره على السقف القرميدى وأن القطار كان لحظتها يصعد
بجد ، مطلقاً بين الحين والآخر حلقات من الدخان الأبيض المزد . كان
(اليوم) يحس بالابتئاس وهو يفكر فى حاجته إلى الندبة ، فلعله سيقدر ،
إن هو امتلكها على حسم الجدل حول سبب ملوحتها : أهو العرق ، كما
يؤكد جيرمان (الأقرع) ، أم هو الحديد كما يدعى روكى (البعور)
ولوكاس (الأبتى) ؟ .

الفصل الحادى عشر

ولما علم روكى (البعرور) أن كينو (الأقطع) بكى يوم ماتت زوجته بكاء مرأ ما عاد يَكُنْ له إعجابا ولا تقديرا وكان (الأقطع) قد فقد امراته ماريوكا فضلا عن يده ، وما كان ذلك لأن أحدا لم يحضره ، فخوسيفا المغرمة به كانت لاتكف عن تذكيره بالأمر .

- ففكر فى الأمر ، كينو . إنها مسلولة ولا شفاء لها .

ويرد عليها (الأقطع) بغضب :

- وما دخلك أنت ؟ .

فتركه حزينة مغتمة . وفى المساء تدخل حجرتها لتبكى حتى تبتل مخدتها بالدمع وتقسم ألا تعاود التدخل فى الأمر ، ولكنها تنسى فى صباح اليوم التالى ما أقسمت عليه . كانت شدة إعجابها به تمنعها من ترك الميدان قبل إفراغ آخر ما فى جعبتها من سهام . كان يعجبها فيه تكامله ، فهو قوى وجاد وكامل : قوى دون أن يكون حيوانا شأن باكوا الحداد ، وجادا دون أن يبلغ حد الأرتياب مثل بالمجو (الملحد) ، وكامل دون أن يكون قديسا كدون خوسيه . إنه ، على وجه الإجمال ، رجل متوازن بكل معنى الكلمة ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ، رجل يقف على لسان الميزان .

والواقع هو أن كينو لا يؤمن بوجود السل ، فالعالم عنده موزع بين نحيفين وبدينين . ماريوكا كانت نحيفة شأن (الفلفتين) لولا وإيرينه وشان اندريس الإسكافى ، أما هو فبدين كحال كوكو مأمور المحطة ، دون أن يعنى ذلك أن أولئك مرضى وهؤلاء أصحاب معافون . إنهم يقولون عن ماريوكا إنها مسلولة منذ أن ولدت ، ولكنها مارالت ، بسنواتها الثلاث والعشرين ، غضة نضرة كالزهرة .

لقد تقرب كينو منها منجذباً لا عاشقاً . وكان ميله الطبيعي سيفضى به إلى امرأة من ذوات التقاطيع الضخمة المثيرة للظاهرة ، امرأة مثل خوسيفا صلبة جسيمة ثقيلة الوزن ، إلا أنه فكر بطريقة مختلفة فما دام السادة المتمدنون يتزوجون بالنعيفات ، فلا بد أن فيهن خصوصية تجعل هؤلاء السادة المهذبين المتعلمين يطلبونهن هكذا .

وتقرب من ماريوكا لأنها نحيفة ، وبعد أيام أحبها . أحبها بلا تبصر ولا تفكير بل لنظراتها الحزينة المنقادة كنظرات حمل صغير ولبشرتها المزرقة الشفافة كالخزف . وتفاهما ، وأعجبت ماريوكا بكينو (الأقطع) لأنه كان على العكس منها ضخم الجسم قويه ، حاد العينين دقيقهما ، كانت عيناه كمبضع الجراح .

وقرر كينو (الأقطع) الزواج منها فانقضّ عليه الناس : « إنها هزيلة » « معلولة » ، « السل رفيق سوء » ...

ولكنه قفز من فوقهم جميعاً وتقدم صباح يوم ربيعى رائع إلى بوابة الكنيسة وهو يرتدى بدلة مخملية زرقاء وقد عقد منديلاً أبيض حول عنقه . وباركهما دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ووضعت ماريوكا الحلقة فى أصبع يده اليسرى لأن يمينه مقطوعة .

ولم تفلح خوسيفا ، رغم ما فعلت ، فى أن تفسد عليه شهر عسله . وخططت لأن تجعل ظلال نكبتها تخيم على حياته، ولكنها لم تبلغ مرادها . ففى الكنيسة ، وأثناء الإعلان الأول عن الزواج ، قفزت كالنمر صارخة وهى تركض صوب مذبح القديس روكى تشهده على بطلان زواج كينو من ماريوكا لأن العروس مسلولة . حدث فى البداية هرج ومرج ثم خيم على المكان صمت مطبق .

كان دون خوسيه أدرى منها بالمحرّمات وقضايا الشرع :
- ولكن شريعة الرب يا ابنتى لاتمنع المرضى من الزواج . هل فهت ؟ .

وألقت خوسيفا بنفسها مخذولة على بعض دكاك المقصورة تبكى كالمجنونة ونجس شعرها وتستجدى العطف وراح الجميع يواسونها ، فليس فى الإمكان الاتيان بكينو بأخر . أما (الأقطع) فقد راح من مكانه فى المقاعد الخلفية المخصصة للرجال يتسم مشفقاً وهو يسدد إلى حنكه ضربات خفيفة بفضلة طرفه المقطوع . أما (الفللفة) الكبرى فقد دنت من خوسيفا وحملتها برق من تحت إبطيها إلى خارج المعبد بعدما رأت دون خوسيه يقف متردداً لا يدري ماذا يفعل . ثم طلبت بعد ذلك من دون خوسيه أن يقيم قداساً خاصاً بها تعويضاً عما فاتها بينما كانت تخرج خوسيفا من المعبد وتعتنى بها لبرهة فى الباحة ، وراحت تؤكد أنها ليست بمن يفوتون القداس من أجل عمل إنسانى ، فليس ذلك من العدل ولا هو معقول ولا منطقي ولا أخلاقى وأن ضميرها ليؤنبها وينهش سريرتها وأنها المرة الأولى التى يحدث لها ذلك فى حياتها . . .

ولم يتمكن دون خوسيه من تهدئتها وإعادة الطمأنينة المزعزعة إلى ضميرها إلا بعد جهد ومشقة . ثم استؤنف القربان المقدس وكان شيئاً لم يحدث .

وفى الأحد اللاحق حضر الجميع إلى القداس ، حتى بالمجو (الملحد) الذى وقف خلف الأرغن منحشراً بين فرقة المنشدين .

وقرأ دون خوسيه يومها اعلان الخطبة فلم تسمع غير زفرة عميقة علت لحظة نطق القس باسم العريس من الدكة التى كانت خوسيفا تجلس عليها ، ولاشئ آخر . أما بالمجو (الملحد) فقد صرح عند خروجه من الكنيسة أن لا فائدة ترتجى من التقوى ولذا فإنه لن يعطى عتبة الكنيسة . ولكن الحادث الخطير وقع يوم الزفاف ، أثناء حفلة الشرب ، عندما كان الجميع فى شغل عن خوسيفا . ولا بد أن انشغالهم عنها هو الذى حملها على التفكير فى شد انتباههم بتلك الطريقة البربرية . كانت على أية حال ، واقعة غامضة ومؤلمة .

انطلقت من ناحية الجسر صرخة وصلت بوضوح إلى مسامع المدعوين المجتمعين في اسطبل (الأقطع) نظر الجميع صوب تلك الناحية . وكانت خوسيفا تقف عارية على الحاجز وقد يمت وجهها نحو النهر تنظر إلى تياره الجارف بعينين جاحظتين . أما النسوة فلم يفعلن لمنع وقوع الكارثة غير الصراخ وتقليب العيون والسقوط مغشياً عليهن . وركض رجلان صوبها قصد منعها ، كما ادّعى ، ولكن زوجتيهما أمرتاها راجرتين أن يعودا خشية التطلع عن قرب إلى خوسيفا العارية .

وعادت خوسيفا إطلاق صرخة في جو الحيرة والارتباك ذاك ثم رفعت ذراعيها وبخلت بعينيها وألقت بنفسها بين تيارات النهر المعتمة .

وهرع الجميع إلا الغروسين . وبعد قليل عاد القاضى إلى الحانة وكان كينو لحظتها يقول لماريوكا :

- خوسيفا هذه دابة

فعقب القاضى قائلاً :

- كانت ...

وهكذا علمت ماريوكا وكينو أن خوسيفا قد انتحرت .

وحدث ما حدث لما أرادوا دفنها في المقبرة المجاورة للكنيسة ، إذ لم يوافق دون خوسيه على دفن المتحرة إلا بعد مشاورة الأسقف . وأخيراً جاءت الموافقة من المدينة وتم الأمر على خير فقد انتحرت خوسيفا ، فيما يبدو ، وهى فى حالة من الجنون العارض .

ولم يعكر شبح خوسيفا صفو كينو فى رحلة زواجه ، فقد أمضى هو وعروسه أسبوعاً فى المدينة ، ولما عادا راحت ماريوكا تعلن على الملأ أنها حبلى .

- أبهذه السرعة ؟ ! سألتها (الفطساء) التى آثار استغرابها أن بعض النسوة يحملن من مضاجعة رجل لليلة واحدة بينما لا يقع هذا لغيرهن ولو ضاجعته العمر كله :

- وما الغرابة فى ذلك يا امرأة ؟ . قالت ماريوكا مضطربة وتمتمت (الفطساء) فى داخلها بكلمات نائية .

لم يكن حمل البنت طبيعياً . فمع تكّور بطنها كان وجهها يهزل بصورة تبعث على القلق . وبدأت النسوة يتحدثن عن أنها تحتمل المخاض . واحتملت ماريوكا المخاض لكنها لم تتخطّ عتبة النفاس ، فقد ماتت بعد أسبوع ونصف من الوضع ووضعت بعد خمسة أشهر من انتحار خو سيفاً . وأدركت فضوليات البلدة حينها سبب اعلان ماريوكا خبر حملها وهى بعد على ظهر القطار الذى جاء بها من المدينة .

وأضى كينو (الاقطع) كما قيل الليلة وحيداً أمام الجثمان يكيه حاملاً بين ذراعيه الوليد ومداعباً بفضلته يده خصلات الشعر الاشقر المسترسلة الهامدة .

وعلقت (الفلفلة) الكبرى حال سماعها بالخبر قائلة :

- إنه عقاب الرب لمن أكل الطيخ قبل الثانية عشرة .

كانت تشير بذلك إلى الولادة المبكرة . ولكن القيّمة على منزل (الماركيز) كانت على حق إذ قالت بأن ذلك لم يكن عقاباً من الرب بدليل أن (الفلفلة) الصغرى لم تأكل الطيخ وحسب بل والحساء ، مع ذلك لم يقع لها مكروه ! .

كان عمر دانييل (اليوم) آنذاك ستين ، وعمر روكى (البعور) أربع سنوات . وبدأ هذان يعرجان على كينو بعد خمسة أعوام من ذلك وهما عائدان من « بركة الإنكليزى » أو من صيد السرطانات أو السمك .

كان (الاقطع) كريماً جداً ، فكان يقدم لهما قدحاً كبيراً من عصير التفاح

مقابل خمسة سترات متواضعة. ولكن حال الحانة كانت أيامها فى تدهور ، فقد صار يعيد إيصالات الدين دون تسديدها ، وبدأ مجهزوه يمتنعون عن مده بالبضاعة ، وكفله خيراردو (الأمريكى) مرات عديدة قبل أن يتوقف بعد أشهر عن ذلك لما لم يجد فيه أملاً يرنجى. وراح وضع كينو (الأقطع) يسير من سئ إلى أسوأ ولكنه ، مع ذلك ، واصل ثرثرته مع زبائنه وواصل تقديم القليل الباقي لديه . كان روكى (البعور) وجيرمان (الأقرع) ودانييل (البوم) يجالسونه عند الدكة الحجرية القريبة من الطريق العام . وكان (الأقطع) يفضل محادثة الأطفال على الحديث مع الكبار ، ربما لأنه لم يكن فى حقيقته سوى طفل كبير . وقد يرد اسم ماريوكا فى أثناء الكلام ، فتجدد الذكرى وتندى عيناه ويبدأ بضرب ذقنه بفضلة يده تمويهاً ومدارة ، فينهض عندها (البعور) الذى يكره الدموع والمواقف المؤثرة ، وينصرف دون أن يتفوه بشيء، وينصرف معه صاحبه فكانهما خيطان بينطاله . أما كينو (الأقطع) فينظر إليهم مستغرباً ، غير مدرك السبب الذى يحملهم على تركه فجأة ومن دون عذر .

لم يحدث أن تبجح (الأقطع) أمام الأولاد الثلاثة بأن امرأة انتحرت عارية بسببه ، بل لم يشر إلى الحادث إطلاقاً ، ولم يعرف دانييل وأصحابه بأن خوسيفاً ألقى بنفسها عارية إلى النهر من على حاجز الجسر إلا عن طريق باكو الحداد الذى ما كان يخفى أن تلك المرأة كانت تروق له وأنها لو كانت طاوعته لأصبحت أما ثانية لروكى (البعور) ، ولكنها فضلت الموت على صدره الغريص وشعره الأحمر فكان لها ما أرادت .

كان أشد ما يثير فضول الأصدقاء الثلاثة أيام كانت حانة كينو تقدم عصير التفاح بخمسة سترات هو سبب فقدان (الأقطع) يده . ويكمن السبب فى حكاية بسيطة يرويها (الأقطع) نفسه :

- أخى كان هو السبب . لقد كان خطاباً ، وفى المسابقات كان الأول دائماً لأنه يقطع الجذع الغليظ قبل الآخرين فى دقائق قليلة . وكان يريد أن يصبح ملاكماً .

ويشير كلام (الأقطع) عن هواية أخيه اهتمام الأولاد . ثم يواصل الحديث :

- بالطبع هذا لم يحدث هنا بل فى بشكاياء قبل خمسة عشر عاماً . بشكاياء ليست بعيدة عنا ، أنها خلف تلك الجبال - ويشير إلى قمة جبل راندو الدائكة المجلبة بالضباب - كل الرجال فى بشكاياء يريدون أن يصبحوا أقوياء ، والكثيرون منهم أقوياء فعلاً . أما أخى فكان أقوى من فى البلدة . لذلك كان يريد أن يصبح ملاكماً لأنه كان يغلبهم جميعاً . قال لى ذات يوم : « أمسك لى بهذا الجذع يا كينو . سأشطره بأربع ضربات من فأسى » . كان مجرد كلام ، فطالما طلب منى ذلك ولكنه لم يستطع أبداً شطر الجذع بأربع ضربات . وأمسكت بالجذع بقوة ، وحدث أننى ، وبينما كان يهوى بالفأس على الجذع ، حركت يدى للفت انتباهه . . طاخ ! - وارتسم على الوجوه الثلاثة الصغيرة تعبير واحد . أما كينو فراح ينظر بحنان إلى فضلة طرفه المقطوع مبتهماً : - لقد طارت يدى مثل قلقة خشب مسافة أربعة أمتار ، وعندما ذهبت بنفسى لحملها كانت ماتزال حارة وكانت الأصابع تنثنى من ذاتها وتحرك مثل ذنب السحلية .

ويسأله (البعور) بصوت مرتجف :

- وهل يمكننى أن . . أن أعاين يدك عن قرب ؟ .

ويقدم كينو ذراعه وهو يبتسم :

- بالطبع .

ويتنزه الأولاد الثلاثة هذا الترخيص السخى فيعاينون الطرف المقطوع مراراً ويتحسونه ويفرسون أظفارهم القلدة فى أخايدته ويتناوبون الإشارة

عليه بأصابعهم قبل أن يتركوه على الدكة الحجرية كحاجة ماعادت ذات نفع ولافائدة .

رضعت ماريوكا الصغيرة لبن الماعز ، إذ كان كينو يحضر لها رجاجة الرضاع حتى أتمت سنة واحدة من العمر . وعندما ألمحت له جلدتها لأمرها مرة أن في مقدورها كفالة الطفلة والنهوض بأعباء تربيتها ، حمل كينو (الأقطع) هذا الكلام على غير محمله واستاء وغضب وما عاد أحدهما يكلم الآخر . ويؤكد الناس في البلدة أن كينو قطع على نفسه عهداً أمام المرحومة أنه لن يترك الصغيرة في أيد غريبة وإن اضطر إلى تربيتها على صدره .

وكان دانييل (اليوم) يرى في ذلك مبالغة وتطرفاً واضحين . كان جميع سكان البلدة باستثناء دانييل يحبون ماريوكا - أوكا ، كما كانوا يسمونها إشارة إلى أنها من خلفه الفقيدة . كانت طفلة رقاء العينين ذهبية الشعر يغطي النمش أعلى وجهها . وقد تعرف دانييل على الطفلة مبكراً ، حتى إن أول ما يذكره عنها يبدو في ذاكرته مشوشاً مطموساً . ثم يذكرها بعد ذلك وهي طفلة في الرابعة تدرج في الأعياد على مقربة من معمل الجبن ، كانت الطفلة توقظ في أم دانييل غريزة الأمومة التي فقدتها باكراً . إنها تمنى لو أن لها طفلة وإن ملأ النمش وجهها مثل ماريوكا - أوكا ، ولكن ذلك ما عاد ممكناً بعد أن أخبرها دون ريكاردو الطبيب بأن بطنها صار بعد الإسقاط يابساً . فقد شاخت أحشاؤها إذاً وما عاد هناك من أمل . ومن هنا يأتي احساس أم (اليوم) نحو اليتيمة الصغيرة كإحساس الأم الوالدة ، تناديهما عندما تراها تتسكع قريباً من معمل الجبن وتجلسها على المنضدة .

- ماريوكا - أوكا بنيتي ، أتريدين شيئاً من الجبن المحلى ؟
وترد الطفلة موافقة ، فتجلب لها أم (اليوم) الجبن المحلى .
- هل فيه كفاية من السكر ، صغيرتي ؟ هل أعجبك ؟

وتردّ الطفلة بالإيجاب دون أن تنطق بحرف . ثم تسألها أم دانييل ،
بعد انتهائها من أكل الحلوى عن تفاصيل الأعمال المنزلية فى بيت كينو :
- ماريوكا أوكا بنيتى ، من يغسل لك ملابسك ؟ وتبتسم الصغيرة :

- أبى .

- ومن يعدّ لك طعامك ؟

- أبى .

- ومن يمشط لك شعرك ؟

- أبى .

- ومن يغسل لك وجهك وينظف أذنيك ؟

- لا أحد .

وتشعر أم دانييل بالشفقة فتنهض وتصب الماء فى الإناء وتغسل للطفلة
أذنيها ثم تمشط لها بعناية شعرها . وكانت ، هى تقوم بذلك ، تتمتع ،
وكانها ترتل :

- يا للطفلة المسكينة ، يا للطفلة المسكينة ، يا للطفلة المسكينة ...

وعندما تنتهى تقول لها وهى تضربها على عجزها مداعبة :

- هيا بنيتى ، فأنت أجمل هكذا .

وترسم الطفلة ابتسامة هادئة على وجهها فتأخذها أم دانييل (اليوم)
بين ذراعيها وتطبع على وجهها قبلات كثيرة . وربما أثر فى دانييل (اليوم)
حنان أمه المفرط تجاه ماريوكا - أوكا بما لا يترك لها هوى فى نفسه . ولكن
لا . إن ما يغيظه هو أن الصغيرة كانت تحشر أنفها فى كل مسألة وتحاول
المشاركة فى أمور لا تخص النساء ولا تعنيهن .

صحيح أن ماريوكا - أوكا كانت تتمتع بحرية تحسد عليها ، حرية
متوحشة بعض الشيء ، ولكنها فى نهاية المطاف امرأة ، ولا يمكن لامرأة أن
تأتى ما يأتونه هم ، كما ليس فى مقدورهم هم أن يتحدثوا أمامها عن
« هذا » فليس ذلك من الأدب ولا من اللياقة . أما مسألة حب أمه لها

ودعوتها لها أيام الآحاد والأعياد لتناول الجبن المحلى فذلك أمر لا يشير فيه حراً ولا برداً . كانت تغيظه من الصغيرة نظراتها المتواصلة إلى وجهه وحرصها على معرفة حركاته وسكناته .

- أين ستذهب اليوم ؟

- إلى الجحيم . هل تريد أن تأتى معى ؟

- نعم - ترد عليه الطفلة دون تفكير .

أما روكى (البعور) وجيرمان (الأقرع) فكانا يضحكان ويشيرانه قائلين له إن ماريوكا - أوكا مغرمة به .

وأراد دانييل (البوم) يوماً أن يتخلص منها فأعطاهما قطعة من النقود وقال لها :

- خذى هذه واذهبى إلى الصيدلية لتقيسى وزننى .

وذهب الأولاد إلى الجبل ، وعندما عادوا مساءً وجدوها قاعدة عند باب معمل الجبن تنتظر عودتهم . وما إن رأتهم حتى نهضت واقتربت من دانييل ، أعادت له قطعة النقود وقالت :

- بوم . يقول الصيدلى إن عليك إذا أردت قياس وزنك ، أن تذهب بنفسك .

وانفجر الأصدقاء الثلاثة ضاحكين بينما كانت هى تنظر إليهم بعينها الزرقاوين الحادثتين دون أن يبدو عليها أنها فهمت شيئاً .

وقد تلجأ ماريوكا - أوكا إلى كل حيلة لمصاحبة البوم . التقيا عصر يوم فى الطريق العام فقالت له :

- بوم . أعرف مكاناً يعيش فيه (أبو رريق) مع أفراده .

- أين هو ؟ قولى .

- تعال معى لذلك عليه .

وذهب هذه المرة معها . لم تكف عن النظر إليه طول الطريق . كان عمرها آنذاك تسع سنوات وحسب ، ومع ذلك فقد أحس بأثر حذقتها فى

لحمه فكأنهما تحفرانه بمخرز .
 - ماريوكا - أوكا . لماذا تنظر إلي هكذا بحق الشيطان ؟
 وأحست هي بالحجل ولكنها لم تحرف نظرها عنه :
 - يعجبني النظر إليك .
 - لا تنظري إلي . هل سمعت ؟
 لكن الطفلة لم تسمعه أو لم تعره أذنأ صاغية .
 - قلت لك ألا تنظري إلي ألم تسمعيني ؟
 وعندها خفضت عينيها .
 - بوم . هل صحيح أنك معجب بميكا ؟
 واحمر وجه (اليوم) واضطرب لبرهة وأحس وكأن شيئاً غريباً يفور
 في رأسه . كان لا يدرى إن كان من الأنسب في مثل هذه الحالات أن
 يغضب أو أن يتسم ؟ واستمر الدم بالتجمع في رأسه . ولم يشأ أن يطول
 ترده فاصطنع الغضب ، مع ذلك حاول إخفاءه متعللاً باجتياز حاجز أحد
 الحقول .
 - وما دخلك أنت إن كانت ميكا تعجبني أم لا ؟
 فردت ماريوكا - أوكا بصوت منخفض :
 - إنها أكبر منك . إنها تكبرك بعشر سنين .
 وتخاصما . تركها (اليوم) في الحقل وعاد إلى البلدة وقد نسي تماماً
 موضوع العش ، لكنه لم ينس كلمات ماريوكا - أوكا طيلة الليل . ولما
 أوى إلى فراشه أحس بقلق غريب ، لكنه تغلب عليه ، وتذكر ، وهو على
 الفراش ، أن الحداد ، وهو يقص عليه حكاية (الفلقة) الصغرى ودون
 ديماس ، كان يستهلها دائماً بقوله : « كان النصاب يصغر (الفلقة)
 بخمسة عشر عاماً . . . »
 وابتسم (اليوم) في الظلام ، وفكر في أن الحكاية قد تتكرر ، ثم نام
 يهدده إحساس بعبير سعادة غريبة هائنة تحف به .

الفصل الثانى عشر

كتب اليهم الخال أوريليو من استريمادورا . وكان الخال أوريليو رحل إلى استريمادورا لإصابته بالربو ولأن رطوبة الوادى ، القريب من البحر ، كانت تضايقه . أما المناخ فى استريمادورا فإنه أكثر جفافاً وملاءمة لصحته والخال أوريليو يعمل بغالاً فى إحدى المزارع الكبيرة ، ومع أن الأجر الذى يتقاضاه بسيط فإنه يسكن مجاناً ويحصل على ما تنتجه الأرض لقاء أسعار رهيبة « وليس لأحد أن يطلب أكثر من هذا فى الوقت الحاضر » - كتب لهم فى رسالته الأولى .

لم يبق لدانييل (اليوم) من ذكرى خاله غير صور مطموسة للهاث مخنوق ، فكان قاطرة صاعدة بمشقة تلهث قريباً من أذنيه . كان الخال يضع الكمادات فى أعلى صدره ويستنشق أبخرة الكالتوس فى حجرته ، ولكنه ، رغم هذه وتلك ، ما كان يتعافى من حشرجة النفس والصدر إلا خلال الأيام الخمسة عشر الأشد جفافاً من أيام الصيف . لقد أخبرهم الخال أوريليو فى رسالته الأخيرة أنه سيرسل للصغير دوقاً كبيراً أمسك به حياً فى حقل الزيتون . وأحس دانييل بقشعريرة وهو يقرأ الرسالة ، فقد ظن أن الخال سيرسل له شيئاً من قبيل دوق انطونينو (الماركيز) تملأ صدره النياشين والميداليات والأوسمة ، وما علم أن الدوق الكبير هو نوع من الطيور يجول طليقاً فى حقول الزيتون وإن بإمكان البغالين الإمساك به كما يمسك بالأرنب من دون أن تطلبهم أية عقوبة .

وضحك الأب عندما عرض عليه الولد مخاوفه ، وفرح دانييل فى قرارة نفسه لأنه أضحك والده الذى ما عاد فى السنوات الأخيرة إلا عابساً مكفهر الوجه لا يقوى على اضحاكه حتى الهنغارين الذين يقدمون عروضهم الكوميديا ويحركون الأرجوزات فى الساحة . وعندما كف الأب عن الضحك قال موضحاً :

- الدوق الكبير هو يوم عظيم ، وهو طعم جيد لصيد الحدّان عندما تسلمه سأخذك معى للصيد فى جبل راندو .
كانت المرة الأولى التى يعده أبوه برحلة صيد مع علمه بولوع الصغير بذلك .

كان الجبّان ، مع بداية كل موسم صيد ، يركب القطار ويتجه منذ اليوم الأول إلى قشتاله ليعود منها بعد يومين وهو يحمل أرنباً وعنقوداً من طيور الحجل متديلاً من نافذة القطار بادياً لكل ذى عين . ما كان يطلق نيران بندقيته على طيور السّمّان «فلإنها - كما يقول - لاتساوى ثمن الإطلاق . أما العصافير فلما أن تقتلها بالمصيدة وإما أن تتركها حيّة » . أما هو فكان يتركها حيّة ، وأما دانييل (اليوم) فكان يقتلها بالمصيدة . كان الولد يخفّ إلى المحطة لاستقبال أبيه العائد من رحلات الصيد أوائل الخريف . وكان كوكو ، مأمور المحطة ، هو من يبلغه بموعد وصول القطار متأخراً أم فى وقته . وعلى أى من الحالين فقد كان دانييل ينتظر ، بقلب فرح ونفس متشوقة ، طلوع القاطرة من المنعطف ، وكان يحدد مكان أبيه دائماً من عنقود طيور الحجل . ثم يلتقيان عند رصيف المحطة فيناولوه أبوه البندقية بجديّة صياد رغم ثقلها ورغم ما يشيّر زنادها فى نفسه . ثم ما كان يفارق أباه وهو ينظف البندقية ويزيئها بل كان يطرح عليه السؤال تلو السؤال ، وكان الأب يشبع فضول ولده أولاً يشبعه بحسب ما هو عليه من مزاج . وكان الأب ، كلّما يحاكى صوت طيران الحجل ، يقول : بررررر ، حتى أيقن دانييل أن الحجل لابد وأن تحدث هذا الصوت « بررررر » ، عند الطيران وأنها لاتحسن أن تصوت بغيره . وقصّ ذلك على صديقه (الأقرع) وتمجادلا لأن الصديق ذهب إلى أن طيور الحجل تحدث بالفعل صوتاً عند الطيران ، ولاسيما فى الشتاء أيام هبوب الريح ، ولكن الصوت الذى تحدثه هو « بررررر » وليس « بررررر » كما يدعى دانييل (اليوم)

وأبوه . ولم يستطع أى منهما أن يقنع صاحبه برأيه حول حقيقة الصوت الذى تصدره طيور الحجل عند الطيران ، واقتربا ذلك المساء متخاصمين .

كان شعوره حنيئاً شبيهاً بشعوره وهو ينتظر لقاء أبيه العائد منتصراً وهو يحمل زوجاً من الأرانب ونصف درينة من طيور الحجل متدلية من نافذة القطار ، شعوره عند لقاء تولا ، كلبة الكوكر الصغيرة ، بعد يومين أو ثلاثة أيام من الفراق . كانت تولا تنط من القطار ، وما إن تراه حتى تضع يديها على صدره وتلحق وجهه بلسانها وتملأه بمداعبات رطبة متواصلة . وكان هو الآخر يداعبها ويلطفها بكلمات حانية وصوت مختلج حتى إذا عادا إلى البيت كان دانييل (اليوم) يخرج علبة قديمة من الصفيح فيها فضلات من الطعام مع جردل من الماء ويحملهما إلى الزريبة ليشهد بحنو وليمة حيوانه الصغير . كان خلو الوادى من طيور الحجل يثير فضول دانييل (اليوم) ، فلو أنه كان واحداً من هذه الطيور لما فكّر فى مغادرة الوادى . إنه يتشوق للتخليق عالياً فوق المروج والتمتع بالنظر إلى الجبال وغابات الكستناء والكالبيتوس الكثيفة والقرى الحجرية والضيايع البيض المتناثرة ولكن يبدو أن هذا لا يروق لطيور الحجل لأنها تفضل الأكل وفيراً يسيراً .

وقص عليه أبوه أنه قبل سنوات كثيرة فر من اندريس الإسكافى زوج من طيور الحجل واتخذها عشاً لهما فى الجبل ، وبعد أشهر اتفق صيادو الوادى على اصطيادهما . واجتمعت اثنتان وثلاثون بندقية وخمسة عشر كلباً وجّهزوا لكل شئ عدته وخرجوا من البلدة فجراً ولكنهم لم يعثروا على ضالّهم إلا عند الغروب ، وجدوا الأثنى مع ثلاثة أفراخ هزيلة جائعة تلقت الموت دون أية مقاومة ، لكن الصيادين الأثنين والثلاثين تنازعوا حيازة الحجلات الأربع وانتهى بهم الأمر أن تبادلوا النار بين الصخور ووقع فى ذلك اليوم من الضحايا بين الرجال ما زاد على عددهم بين الحجل ..

وعندما قصّ (البوم) ذلك على جيرمان (الأقرع) قال له هذا إن قصة فرار الطيور من أبيه وبلوتها إلى الجبل صحيحة وليس ما عداها سوى سلسلة طويلة من الأكاذيب .

عند وصول رسالة الخال أوريليو أحس دانييل (البوم) باضطراب وتوتر شديد . إنه لا يتصور لحظة وصول الدوق الكبير وذهابه هو مع أبيه لصيد الحدّان وإن كان لديه شيء من القلق فسيبه الخوف من أن يبدأ أصدقاؤه ، مع ما جدّ من الأمور ، بتلقيه بالدوق الكبير بدلاً من دعوته بـ (البوم) . فتغيّر اللقب يؤله ، بعد كل هذا الوقت ، قدر ما قد يؤله تغيير اسم العائلة . ولقد وصل الدوق الكبير ، ومع ذلك لم يجد الأصدقاء ، وكان فيهم من الانفعال ما فى صاحبهم ، ما يكفيهم للملاحظة أن الطائر الذى خلب البابهم لم يكن إلا بوما كبيراً .

ربط الجبان الطائر من إحدى رجله فى زاوية من زوايا الزريبة وكان إن دخل أحدهم للتفرج عليه نفخ وكأنه قط هائج .

كان يأكل أكثر من كيلو غرامين من فئات اللحم يومياً ، حتى أن أم دانييل أشارت ذات مساء تعريضاً إلى أن الدوق الكبير يستهلك فى الأكل أكثر مما تستهلكه البقرة ، مع أنه خلافاً للبقرة التى تعطى اللبن ، لا يعطى شيئاً البتة . ولما بقى الجبان صامتاً سألتها امرأته إن كان ينتظر من ذلك الطائر ربحاً ما أم مجرد ضيف مدلل ؟ واهتز دانييل (البوم) وهو يتوقع أن يحطم أبوه ، كما هى عادته عند الغضب ، صحناً أو آنية فخارية ، ولكن الجبان كظم غيظه هذه المرة واكتفى أن قال متجهماً :

- بل أنتظر منه ربحاً .

وفاجأ الأب ولده (البوم) ذات ليلة وقد هدأت أحوال الجو ، قائلاً :

- جهّز نفسك فسنخرج غداً لصيد الحدّان . سأوقظك عند الفجر .

وأحس دانييل (البوم) ببرودة تسرى فى ظهره ، وبدأ أنفه فجأة ومن

دون سبب يتحسّس أريج الزعتر المنبعث من البنطال الذى كان الجبّان يرتديه عند ذهابه للصيد ورائحة البارود الحادة الصادرة من الخراطيش المستعملة التى كان أبوه يعبّئها بصبر واقتصاد المرة تلو الأخرى إلى أن تصبح غير ذات نفع . كان الصغير يعيش المعركة مع الحلدّان الماكرة السريعة قبل وقوعها ويدورّ فى رأسه تفاصيل الرحلة المقررة .

وخرجوا مع الفجر . أعشاب السرخس ، على حافة الجادة ، تتلألأ مكسوة بالندى . وعلى أطراف الحشائش تكونت قطرات دقيقة بدت وكأنها من رثيق . ومع بداية انحدار جبل واندو كانت الشمس تطل من ورائه بينما التصق ضباب أبيض كثيف بقاع الوادى فبدأ هذا من شاق مثل بحيرة عمّلة بسائل خفيف غريب .

كان دانييل (البوم) ينظر إلى جميع الجهات مبهوراً وهو يحمل على ظهره الدوق الكبير محبوباً فى قفصه الخشبى يتفخ هاتجاً كلما مروا بكلب فى الطريق .

قال دانييل لأبيه عند خروجهما من البيت :

- ألا نأخذ تولا معنا ؟

- لا مكان لتولا اليوم .

وحزّ فى نفس الصبى أن يترك الكلبة فى البيت بعد ما أبدته من لهفة وهى ترى البندقية وتشم رائحة حذاء الصياد وينطاله . وتذكرها ثانية وهو يتسلق الجبل المغمور من ناحيته الجنوبية بضياء النهار وأريج الحقول . لكنه ما لبث ونسى كل شئ وما عاد غير وجه أبيه الذى يقبع مترصباً بين الصخور الرمادية وغير الدوق الكبير وهو يخفق بجناحيه ويزفر مسافة خمسة أمتار مربوطاً من رجله اليمنى . أما هو فقد اختبأ بين الأحراج قبالة أبيه .

- لا تتحرك ولا تتحدث أى ضجيج ، فاللدّان يتقن اللاتينية - قال له

أبوه محلّراً .

فاندس دانيل في مكنه وراح يسأل نفسه إن كان ثم علاقة بين أن تعرف الحدآن اللغة اللاتينية ، كما يقول أبوه ، ولون ريشها البنّي الغامق ، ذلك اللون القاسي الخالص الذي يشبه لون قفاطين الرهبان ؟ أم تراه قال ما قال مارحاً ؟

وخيل لدانييل (البوم) أنه لمح والده يسترعى انتباهه وهو يشير بأصبعه إلى السماء . ونظر بهدوء إلى أعلى فرأى ثلاث حدآن ببطء دوائر متحدة المركز فوق رأسه . وأحس بقلق غامض ، ونظر من جديد إلى أبيه فرآه صاحب الوجه وهو يهيم البندقية بحذر . وانفعل الدوق الكبير وبدأ يزفر ، والتصق دانييل بالأرض وحبس أنفاسه وهو يرى الحدآن تنزل فوقهم ، بل كان في مقدوره أن يراها بكل تفاصيلها . كانت إحداها عظيمة الحجم . وأحس (البوم) بحكة مفاجئة في إحدى رجليه ولكنه بقي ساكناً لثلا يحدث حركة أوضحججاً .

وتدلت إحداها فجأة من السماء متعامدة وانقضت مسرعة لتمس رأس الدوق الكبير ، وانقضت الأخريان في الأثر . كان قلب دانييل (البوم) يدق مسرعاً . وانتظر ، مقطّب الوجه ، دوى الإطلاق ، لكنه لم يسمع أى دوى فنظر إلى أبيه مندهلاً .

كان أبوه يتابع ببندقته الحدأة الكبرى التي عاودت التحليق عالياً ، لكنه لم يطلق النار هذه المرة أيضاً . وظن دانييل (البوم) أن أمراً خطيراً ألم بأبيه ، فهو لم يشاهد من قبل حدأة تقترب كل تلك المسافة دون أن تطلق عليها النار .

وعاودت الحدآن الانقضاض ، وازداد دانييل اضطراباً وتوتراً ، ومرقت الحدأة الأولى قرية حتى أن (البوم) شاهد عينها البراقة المدورة مصوبة نحو الدوق الكبير كما شاهد مخالها الجارحة المقوسة ومرقت الثانية بعد الأولى فيما يشبه سرياً من الطائرات تنقض متتابعة . ثم برزت الكبرى لتنقض

وهى تبسط جناحيها فتغطي جزءاً واسعاً من زرقة السماء . لا بد أنها اللحظة التى ينتظرها الجبان . ونظر دانييل إلى أبيه الذى كان يلاحق الطائر مصوباً إليه بندقيته . وحلقت الحداة فوق الدوق الكبير بجناحين ساكنين ، وهنا سمع دوى إطلاقاً تردد صداها فى أرجاء الوادى وترك الطائر أخدوداً من الريش سابحاً فى الفضاء وخفقت جناحاه العظيمتان - محمومتين عاجزتين تحاولا عبثاً الابتعاد عن دائرة الخطر ، ولكن الجبان عاجله بإطلاقه ثانية فخرت الحداة وهى تطلق صبيحة مائتية فى بحر من الريش .

ولكن صرخة الفرح التى أطلقها الأب لم تجد صداها فى ولده ، فمع دوى الإطلاق الثانية رفع هذا يده إلى خده عندما أحسّ وكان سلكاً محمياً اخترق لحم وجهه ، أو لسعة سوط أصابته . وتأمل يده فوجدها ملطخة بالدم وأحس بشيء من الخوف ثم أدرك بعد ذلك بقليل أن أباه أصابه بعار نارى .

- لقد أصبنتى ، أبتاه - قال باستحياء .

وتسمر الجبان فى مكانه وانحسر حماسه فجأة ، وعندما اقترب منه كان يوشك أن ييكى غيظاً :

- هل الأمر خطير يابنى ؟ هل الأمر خطير ؟ - سألته منفعلاً .

وأسودّ كل شيء فى عين الجبان لثوان ، الأرض والسماء وكل شيء . وما عادت مدخراته التى جمعها بحرص ، لحظتها ، مهمة ولا حياته الشحيحة ذات معنى . وما عساه يفعل لو أنه قتل ولده ؟ لو أن ولده لن يقوى على التقدم ؟ لكن أفكاره السوداء ما لبثت أن تبددت عندما اقترب من الصبى . فأطلق قهقهة حادة منفعة وراح يؤدى حركات مضحكة :

- آه لا بأس عليك . لا بأس . لقد ظننت الأمر خطيراً ، إنها مجرد كرة رصاصية . هل تؤلك ؟ هل يؤلك هذا ؟ ها ... ها ... ها . إنها كرة رصاصية واحدة وحسب .

لم يرق لدانييل (اليوم) ذلك الاستخفاف بجرحه ، فلقد كان عياراً
 نارياً صغراً أم كبر . وتحسس بلسانه وجود عقدة صغيرة فى باطن خده ،
 إنها الخردقة ، خردقة ربعية ، أى بمثابة طلقة ، طلقة صغيرة .
 - الآن تؤلمنى أقل . إنها كالخدرانة ، لكنها كانت تؤلمنى من قبل .
 كان الجرح ينزف لكن رأس أبيه اتجه من جديد صوب الخدأة
 المجندلة ، فما حدث للولد ليس ذا بال :
 - هل رأيت كيف سقطت ، دانييل ؟ هل رأيت كيف أرادت الماكرة
 أن تلتقط أنفاسها بعد الإطلاقة الأولى ؟
 ولحقت بدانييل (اليوم) عدوى حماس الاب فقال :
 - بالطبع أباه ، لقد سقطت هناك .
 وخفّ الاثنان نحو المكان المحدد . كانت الخدأة ، التى تبلغ المترين
 باعاً ، مازال تتلوى فى النزاع الأخير .
 وفى طريق العودة سأل دانييل (اليوم) أباه :
 - هل تظن والدى ، أن الجرح سيترك أثراً فى وجهى ؟
 فرد عليه الجبان دون أن يعيره اهتماماً يذكر :
 - كلا ، بل سيندمل تماماً .
 وأوشكت عينا دانييل أن تدمعا :
 - لكن ... لكن ألم يترك الجرح ندبة ؟
 - كلا بالطبع فليس الأمر ذا بال - قال أبوه بفتور .
 واضطر دانييل (اليوم) أن يشغل فكره بشئ آخر كى لا يجهد
 بالبكاء ، ولكن الجبان أوقفه فجأة ممسكاً برقبته :
 - اسمع . لا تخبر أمك بأى شئ مما حدث ، مفهوم . لا تتكلم عن
 هذا أن كنت تريد أن تصحبنى ثانية إلى الصيد ، هل اتفقنا ؟
 وطاب لدانييل أن يشعر بأنه مشترك مع أبيه فى الجرم فقال :
 - اتفقنا .

وفى اليوم التالى ذهب الجبان إلى المدينة حاملاً الحداة القتيل ، وعاد فى العصر فحمل الدوق الكبير فى قفصه وذهب به من دون أن يغير ملابسه إلى كويرا ، الضيعة المجاورة .

وفى المساء ، بعد العشاء ، وضع على الطاولة ، وهو يتوجه بالكلام إلى زوجته ، خمس أوراق نقدية من فئة المائة قائلاً :

- اسمعى ، هذا هو ريع الدوق الكبير . وكما ترى فإنه لم يكن ضيفاً مدلاً ، لقد بعته إلى قس كويرا بأربعمائة ، وأعطتنى جمعية مكافحة الحيوانات الضارة مائة أخرى لقاء الحداة .

ولم تعلق أم دانييل بشيء فقد كان زوجها على الدوام عنيداً متصلياً فى الدفاع عن رأيه ولم يكن يخفى طبعه هذا بل كان يقول : « منذ يوم عرسى أعجبني أن أكون دائماً فوق امرأتى » ، ثم كان يضحك ويضحك مقهقهاً لسبب هو أدري به .

الفصل الثالث عشر

ثمة أمور لا تحكمها إرادة الانسان . ذلك ما اكتشفه دانييل (اليوم) مؤخرا وكان من قبل يظن أن الإنسان حر في الاختيار بين ما يريد وما لا يريد . بل إن في مقدوره ، هو نفسه ، أن يذهب ، إن هو أراد ذلك ، ليقلع ضرسه الذى يؤله عند طبيب الأسنان الذى يقعد صباح كل خميس ليمارس عمله فى شرفة محل كينو (الأقطع) لقاء إيجار بسيط . وقد يبلغ الأمر ببعض الرجال أنهم يقررون الاستغناء عن عضو من أعضائهم إن تحول هذا العضو إلى مشكلة بالنسبة إليهم ، وهو ما فعله لوكاس (الابتر) .

أى أن (اليوم) كان يظن حتى ذلك المساء الذى تسلقوا فيه سور مزرعة (الأمريكى) لسرقة التفاح وحتى اقتضاح أمرهم إذ فاجأتهم ميكا ، أن بإمكان الرجال أن يتصرفوا على هواهم تجاه كل ما يقف حجر عثرة فى طريقهم سواء أكان متصلا بالجسم أم بالروح . لكنه ، ما إن غادر عزبة (الأمريكى) بأذنين معقوصتين وتفاحة فى كل واحدة من يديه ، حتى أدرك أن إرادة الإنسان هى ليست كل شئ فى الحياة وأن ثمة أشياء تفرض عليه إرادتها ، تقهره وتخضعه لسلطانها الطاغى المستبد . إنه يعى الآن بعض الأمثلة كحسن ميكا الأخاذ وارتياحية بالججو (الملحد) وحمية دون خوسيه المتوقدة ونفور سارة من أخيها (البعور) .

لقد أدرك دانييل (اليوم) ، منذ محاولة سرقة التفاح الفاشلة ، أن ميكا رائعة الجمال وأن جمالها أشعل فى صدره جذوة لا يعرف كنهها ، جذوة تشوى وجهه عندما يذكر اسمها أمامه . كان ذلك شيئا غريبا عليه غير مجرى حياته التى كانت حتى ذلك الوقت فاترة وبلا ارتباط . وتقبل دانييل (اليوم) هذه الحالة بخضوع من يتقبل الأمور المقدرة . إنه لا يستطيع أن يتجنب التفكير فى ميكا كل ليلة عند النوم أو وهو يأكل اللبن

المحلى أيام الأحاد وأثناء الأعياد . وحمله هذا على الاعتقاد بأن ميكا ستكون للسعيد الذى يفوز بحبها واحة سلام عذبة هائلة .

وحاول (اليوم) فى البداية التملص من هذا الضغط الداخلى الذى كان يهدّد استقلالته التى ما كانت تقبل المساومة ، ولكنه تقبل فى النهاية حالة التفكير الدائم بميكا باعتبارها حالة مكمله له وباعتبارها شيئا يكون جزءا حميميا من ذاته : تغيب عن البلدة فيسود الوادى فى عينيه وتبدو السماء والأرض جرداين مفزعتين رماديتين ، وتعود فيتغير الحال ويكتسب لونا آخر ، فخوار البقر يصير أحلى وخضرة الحقل تصبح أشدّ إغراء ، حتى غناء الشحارير يكتسب، بين العوسج ، نغمات أوضح وأكثر شفافية . كان يحدث وقتها ضرب من الانبعاث العجيب فى الوادى ، أو العرض المفعل لإمكانياته ولعطوره ولأصواته ولهمساته التى تميزه . فكأن ليس للوادى من شمس غير عيني ميكا ، كأن ليس له من أنسام غير تلك التى تهب مع كلماتها .

كان دانييل (اليوم) يكتّم اعجابه الشديد بميكا ويحافظ عليه فى سرّة ، لا يشاركه فى معرفته أحد . مع ذلك فثمة شيء فى عينيه أو ربما فى صوته كان يفضح دواخله يصعب إسكاته .

كان أصدقائه معجّين كذلك بالفتاة : كان يعجبهم منها جمالها كما يعجبهم من الحداد قوته ، ومن القس ، وهو القديس العظيم ، رقة قلبه ومن كينو (الأقطع) ، قبل أن يعرف (البعور) أنه بكى يوم ماتت زوجته ، فضلة يده . نعم كانوا هم أيضا معجّين بها .

ولكن إعجابهم كان من قبيل الإعجاب بالإنشاء الجمالية أو القوية التى لا تتخلّف أثرا من بعدها . كانوا ، بلا شك ، يحسون فى حضرتها بما يشبه انفعالا جماليا جديدا لا يلبث أن يتبدد أمام رزور صرخته مصيدياتهم أو ضربة من مسطرة دون موييسس المعلم .

وهكذا فان توليهم لم يكن دائما بل عابرا رائلا كالفرقة .

لقد لاحظ دانييل (اليوم) أن معنوياته وهى موجودة تختلف عن معنويات أصدقائه ، إنها حالة خاصة ، وإلا ، فلماذا لايفقد (البعور) أو (الأقرع) ثلاثة كيلو غرامات من وزنهما عندما تسافر ميكا إلى أمريكا أو كيلو غرامين إن هى اكتفت بالسفر إلى المدينة ؟ ولماذا لايستعيدان ما فقدها من وزن ويزيدان عليه كيلو غراما واحدا إن هى عادت إلى الوادى لتقيم فيه لمدة طويلة ؟ هنا يقوم البرهان على أن مشاعره نحو ميكا متميزة ومختلفة جدا عن مشاعر زملائه . وهم إن رسموا الصלבان وهم يتحدثون عنها أو أغلق (البعور) عينيه وأطلق صافرة حادة قصيرة كما يفعل أبوه عندما يشاهد فتاة جميلة ، فما ذاك إلا من قبيل التظاهر للمجرد والإعجاب السطحي وليس هو بالحركة الجياشة المتواصلة الصادرة من الأعماق .

وتحدثوا عصر أحد الأيام فى حقل البلوطة عن ميكا . ذكروها بمناسبة الحديث عن القتل الذى يقال إنه مدفون من زمن الحرب تحت الشجرة المعمرة وسط الحقل . قال (الأقرع) :

- لا بد أنه صار رمادا ولم تبق منه ولاحتى العظام . أنتقدان أنه عندما تموت ميكا ستنبعث منها رائحة كريهة كالآخرين وستصبح ترابا ؟

وأحسن (اليوم) بدفقة دم تصعد إلى وجهه وهب غاضبا فكأن أحدهم شتم أمه :

- لا . ذلك غيرممكن أن تصدر عن ميكا رائحة كريهة ، ولا حتى عندما تموت .

واطلق (البعور) ضحكة خبيثة وقال :

- يا لك من غبى . فعندما تموت ميكا ستصدر رائحة ننته مثل أى آدمى .

ولم يستسلم (اليوم) :

- إنها طيبة . ويمكن أن تموت برائحة القداسة .

- وماذا يعنى هذا ؟ - دملهم (البعور)

- أنها رائحة القديسين .

واحتد (البعور) :

- هذا كلام فارغ . أو تظن أن للقديسين رائحة الكولونيا ؟ نعم ، هذا عند الرب ولكن ليس عندنا نحن الذين نشم بأنوفنا . عندك دون خوسيه ، لا أظن أن هناك قديسا مثله ، ولكن ، ألا تنبعث من فمه رائحة كريهة ؟ إنه قديس قدر ما تريد ، ولكنه عندما يموت ستنبعث منه رائحة كريهة كما هو حال ميكا وحالك وحالى وحال جميع البشر .

وغير جيرمان (الأقرع) مجرى الحديث ، وكان قد مر أسبوعان على حادثة سطوهم على مزرعة (الأمريكى) . قلب (الأقرع) عينيه ليتكلم فقد كان الكلام يكلفه جهدا كبيرا وكان أبوه الاسكافى يقول عنه إن الأفكار تسرب من قرعته . سأل فجأة :

- هل دققتم ... هل دققتم فى جلد ميكا ؟ كأنه من حرير .

- هذا يسمى بشرة ... يقال « عندها بشرة » - قال (البعور)
موضحا ثم أضاف - : ميكا هى الوحيدة التى لها بشرة ناعمة فى البلدة .

. وأحس دانييل (البوم) بسعادة كبيرة وهو يسمع بأن ميكا هى الوحيدة التى لها بشرة ناعمة فى البلدة ، وقال باستحياء :
- إن جلدها يشبه تفاحة صقيلة .

وواصل (البعور) كلامه :

- خوسيفا ، التى انتحرت بسبب (الأقطع) ، كانت سمينة ، مع ذلك فقد كانت لها ، حسبما يقول أبى وسارة ، بشرة ناعمة .
الكثيرات فى المدن يمتلكن بشرة ناعمة ، أما فى القرى فالأمر مختلف لأن الشمس تحرق الجلد والماء يجعله .

كان جيرمان (الأقرع) يعرف شيئا من ذلك ، فقد كان لديه أخ فى المدينة ، وكان هذا الأخ يحكى له أشياء كثيرة عن المدينة عندما يزورهم فى بعض السنين أيام أعياد الميلاد :

- ليس هذا هو السبب - قال مقاطعا بنبرة من يمتلك معرفة مطلقة -

أنا أعرف لماذا . لأن الآنسات الصغيرات يضعن فى الليل الدهون ويتناولن العقاقير التى تزيل التجاعيد .

ونظر إليه الاثنان الآخران بيلادة :

- بل أعرف أكثر من هذا . خفض صوته بينما اقترب منه صاحباة مدفوعين بجو التكتّم الغامض الذى أشاعه - .

هل تدريان لماذا لايتجدد جلد ميكا ولماذا تحافظ على بشرتها ناعمة طرية كالأطفال ؟

وامتزج استفهامهما فى صوت واحد :

- لماذا ؟

- لأنها تفضح حقنة شرجية كل ليلة قبل النوم ، وهو ما يفعله أهل السينما . هذا ما يقوله أبى ، وقد قال دون ريكاردو إن هذا يمكن أن يكون صحيحا لأن الشيخوخة تخرج من البطن ، ولأن الوجه يتجدد عندما تمتلئ المصارين بالأوساخ .

وما كان أشد وقع هذا القول على دانييل (البوم) . لقد راحت ميكا والحقنة الشرجية ترسمان فى مخيلته صورة مهينة . « إنهما طرفا نقيض غير قابلين للالتقاء » . لكنه تذكر فجأة ما كان دون مويسيس المعلم يقوله دائما من أن النقيضين قد يلتقيان ، فأحس بكآبة عميقة وكان شيئا ما يغادر بدنه متدفقا . فكلام (الأقرع) إذا صحيح ووارد تماما . ولكنه ، عندما رأى ميكا بعد يومين من ذلك ، شعر أن تلك الصور الوضيعة قد تلاشت ، وأدرك أن ريكاردو والإسكافى وجيرمان (الأقرع) وجميع أهل البلدة إنما يقولون ما يقولون عن الحقنة الشرجية لأن أمهاتهم ونساءهم وأخواتهم وبناتهم لايمتلكن بشرة ناعمة كبشرة ميكا .

كانت صورة الفتاة ترافق (البوم) فى جده ولهوه ، لقد استحكمت صورتها فى رأسه حتى أصبحت هاجسا ، وما كان يقلّر حينها أن ميكا تكبره بعشرة أعوام ، وسما كان يقلقه أنهما يتيميان إلى طبقتين اجتماعيتين مختلفتين . وإن أسف على أنه ولد فقيرا وولدت هى غنية ، وعلى أن

والده الجبان لم يهاجر إلى الأمريكتين كأبيهما خيراردو ، الابن الأصغر للسيدة ميكائيل ، ولو أنه فعل ذلك لاستملك مطعمين سفاخرين ومحلا لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية ، أو على الأقل معرضا تجاريا للأجهزة الكهربائية المنزلية كذلك الذى يديره « خيال الأمريكى » فى المدينة . فلو أنه استملك مثل ذلك المعرض لما فصله عن ميكائيل غير المطعمين والباخر الثلاث ، وفضلا عن هذا وذاك ، محل أجهزة الراديو ، وما هو بالشئ النافه القليل .

ومع إعجاب (اليوم) بميكائيل وحبه لها ، فقد مرت سنوات قبل أن يتمكن من الكلام معها ، إذا استثنينا بالطبع التوبيخ الرقيق يوم حادثة التفاحات . كان يكتفى بوداعها والترحيب بها بنظرة حزينة أو مشرقة تبعا للظروف ، حتى حدث صباح يوم صيفى أن حملته إلى الكنيسة فى سيارتها ، تلك السيارة الطويلة السوداء اللامعة التى ما كانت تصدر صوتا أثناء سيرها . لم يكن هو قد أكمل العاشرة ، ولم يكن أمامه سوى عام واحد للدخول إلى المدرسة ويده مسيرة التقدم . أما هى فكانت قد أكملت التاسعة عشرة دون أن تؤثر السنوات الثلاث التى مرت منذ ليلة التفاحات على بشرتها الناعمة ولا على وجهها ولا على جسمها ، بل لقد جعلت بشرتها ووجهها وجسمها أكثر تناسقا واكتمالا .

كان يرتقى العقبة وقد أتعبته شمس أغسطس بينما كانت تتلاحق فى أرجاء الوادى أجراس الإعلان الأخير عن القداس . كان ما يزال أمامه نحو من كيلو متر واحد ، فراح يحث الخطى للوصول قبل أن يبدأ دون خوسيه بقراءة الإنجيل . وفجأة سمع بوق سيارة ميكائيل السوداء قريبا منه . والتفت مفزوعا فتلقتة من لدن الفتاة ابتسامة صادقة غير متوقعة . وشعر دانييل (اليوم) بخدر وتساءل إن كانت ميكائيل ما تزال تذكر المحاولة الفاشلة لسرقة التفاح . لكنها لم تشر إلى ذلك الفصل المؤلم .

- هل أنت ذاهب إلى القدّاس ، أيها الصغير ؟
وقد (اليوم) لسانه فلم يردّ بغير حركة من رأسه . فتحت بنفسها
باب السيارة ودعته :

- اصعد فالوقت متأخر والجو حار .
وعندما ثاب دانييل (اليوم) إلى وعيه وجد نفسه جالسا إلى جنب
ميكا يستعرض الأشجار وهي تمر بسرعة من خلف وجاج السيارة .
وأحس قرب الفتاة في عروقه وفي ضغط أعصابه المضطرب . كان
ذلك يبدو كالحلم الذي يؤلم ويوجع وهو في قمته . « ربّاه - فكّر - هذا
يفوق ما كنت أتصوّره ، وتسمّر وتيسر لما داعبت بيدها الناعمة قفاه ،
وسألته برقة :

- ابن من أنت ؟ .
وتلعثم (اليوم) وهو يجاهد أعصابه :
- ابن . . . بائع الجبن .
- ابن سلفادور ؟
وخفض رأسه موافقا ، وقدّر أنها كانت تبتسم . وفكر ، لما لامس
جلدها الناعم قفاه ، أن الفتاة تمتلك بشرة حتى في راحة يدها .
وبدأ برج الكنيسة يلوح من بين الأشجار .
- هل يمكنك أن تأتيني بقطعتين من جبن القشدة هذا العصر -
قالت .

وعاود دانييل (اليوم) اجابته الآلية برأسه بعد أن أعياه الكلام . ولم
يحدد وهو يصلى ، مكان رأسه من مكان قدميه ، فأدى علامة التصليب
مرتين في غير وقتها بينما راح آنخل ، عريف الحرس المدني ، يضحك
بانفعال مغطيا وجهه بقبعته المثلثة وهو يرى سوء أداء الصغير .
وفي العصر ارتدى ثيابه الجديدة وصقّف شعره وغسل ركبتيه وانطلق
إلى بيت (الأمريكى) حاملا الجبن . وذهل وهو يتأمل فخامة بيت ميكا :

أثاث لامع وأرضية صقيلة ناعمة فكان لها ، هي الأخرى ، بشرة ناعمة .
ومع ظهور ميكا أضباع (اليوم) ما جمع من شجاعة أثناء الطريق ،
وبينما تتفحص الجبن وتدفع له ثمنه راحت تطرح عليه السؤال تلو
السؤال . إنها فتاة بسيطة لطيفة ولا تتلذذ إطلاقاً حادثة التفاحات
المزعجة . سألته :

- ما اسمك ؟

- دا . . . دانييل

- هل أنت تلميذ في المدرسة ؟

- نعم .

- هل عندك أصدقاء ؟

- نعم .

- ما أسماءهم ؟

- ال . . . (بعور) وال . . . (اقرع)

وأبدت الفتاة إيماءة امتعاض وقالت :

- ما هذا ؟ لماذا تدعو أصدقاءك بهذه الأسماء القبيحة ؟

وارتبك دانييل (اليوم) وأدرك أنه ردّ يغيبه ومن دون تفكير . كان
عليه أن يقول إن أسماءهم هي روكيتو وجيرمانين . فميكا فتاة رقيقة مهذبة
وقد جرح بالفاظه تلك أحاسيسها . وندم في أعماق نفسه على تسرع ،
وشعر في تلك اللحظة ، أمام وجه ميكا الباسم الجذاب . بأن فكرة
الذهاب إلى المدرسة للتقدم تروق له . سيجتهد في دراسته ، وقد يكسب
بعد ذلك أموالاً طائلة ، وعندها سيكون وميكا على قدم المساواة وسيمكنه
الزواج منها وربما ستلقى ماريوكا - أوكا بنفسها ، بعد سماعها بزواجه ،
إلى النهر عارية كما فعلت خوسيفاً يوم زفاف كينو . ولازمه شعور
بالارتياح والحماس وهو يفكر في المدينة وفي أنه قد يصبح في يوم من
الأيام رجلاً ذا شأن وخطر وفي أن ميكا ، هكذا ، ستفقد مسافتها وستكون

على مقربة من امكانياته . سترك ، عندها ، عادة التطق بالالجاب
والكلمات البذبة ، ولن يتبادل الضرب مع أصدقائه بالروث الابس بل
سيفوح منه أريج العطور الائمة بدلا من رائحة القريش . ولن تعامله ميكا
، حينها ، معاملة الصبي القروي غير المذهب .

عندما غادر دانيل (البوم) بيت (الأمريكى) كان الوقت ليلا ووجد
الفتى أن التفكير فى الظلمة يبعث فى نفسه المتعة . ولكنه فزع عندما شعر
بأصابع تضغط على لحم يده . كانت أصابع أوكا - اوكا :

- لماذا تأخرت كل هذا الوقت فى إيصال الجبن إلى ميكا ؟

وساءه أن تفسد اوكا - اوكا عليه وحدته بهذه السهولة ، وألا تدعه
وشأنه وهو ينضج أو وهو يفكر فى مستقبله .

وانتصب ، بظرف ، متعاليا :

- هلا تركتنى وشأنى وإلى الأبد أيتها النافهة ؟

كان يسير مسرعا وكانت ماريوكا-أوكا تجاربه عدوا وهو يتزل العبة :

- لماذا ارتديت بدلتك الجديدة وأنت توصل الجبن ؟ أجبنى .

وتوقف هو فى وسط الطريق ممتاظا ، وفكر للحظة فى صفع الطفلة

قبل أن يقول لها :

- لا دخل لك أنت فى شؤونى . هل فهمت ؟

وردت ماريوكا - أوكا بصوت مرتعش :

- الآن ميكا تعجبك أكثر منى ؟

فأطلق (البوم) قهقهة واقترب من الطفلة صارخا فيها :

- اسمعى . ميكا هى أجمل فتاة فى الوادى . إنها ذات بشرة ناعمة ،

أما أنت فقييحة كجوزة الهند ووجهك ملئ بالنمش ، ألا ترين الفرق ؟

وواصل طريقه إلى البيت ، أما ماريوكا - اوكا فتوقفت عن متابعته

وجلس على جانب الطريق الأيمن ثم أخفت وجهها الصغير المنمش بين

يديها وراحت تبكى بكاء مرأ .

الفصل الرابع عشر

ليقل الآخرون ما يحلو لهم ، فليس أحد بقادر على منعهم من ذلك ، ولكن ليس كل ما يقول هؤلاء عنهم هو الحقيقة . فلا الذنب كله يقع على روكى (البرور) ، ولا هم يريدون أكثر من قضاء الوقت على أفضل وجه ممكن . أما ألا تروق طريقتهم فى قضاء الوقت لـ (الفلفلة) الكبرى وللجبان ولدون موييسيس المعلم فذلك شئ آخر . ولكن من يستطيع أن يقرر أن السبب فى ذلك لا يكمن فى سلوكهم الشيطانى بل فى غرابة طبع الفلفلة والجبان والبيدق ؟ فالناس تنحى باللائمة مباشرة على الصغار وإن صدر غضب الكبار فى أحيان كثيرة عن طبيعتهم النزقة المرتابة لا عن أفعال الصغار الخبيثة . خذ باكو الحداد مثلا . أنه يفهمهم لأنه يتمتع بصحة جيدة ومعدة صحيحة ، بينما لا يفهمهم (البيدق) بسبب أحماضه ووجهه الملتوى وكبدته المعلولة . أما أبوه الجبان فإن حرصه الشديد على الإذخار يمنعه من رؤية الأشياء بمنظار متفائل منشرح وبالوضع الذى هى عليه عادة . أما (الفلفلة) الكبرى فلأنها فى نهاية المطاف صاحبة القط الذى تحبه وكأنه ثمرة غير منطقية لبطنها اليابس . كما لا ذنب لهم فى أن تحمل (الفلفلة) ذلك الشعور الودود وغير المنتظم تجاه الحيوان ، ولا فى أن يدخل القط الواجهة الزجاجية عندما تطل الشمس بوجهها المحتقن الأشقر على الوادى فى غفلة من الغيوم . لا ذنب لأحد فى ذلك حقا . ولكن دانييل (البوم) يستتج أن الأطفال يحملون وذر كل ما لا يقع وزره على أحد ، وأنهم لا يستطيعون من ذلك خلاصا .

أما ماجرى للقط فلم يكن خارجا على المألوف . ولو أن القط كان لانطونيو (الحوصلة) أو حتى للأرنبات لما حدث شيء ، أما الفللفة فلإنها مبالاة لإثارة الفضائح ، وهى بحبها للقط تبدى نزعة مريضة وغير طبيعية فيها ، فلو كانت الفعلة خطرة أو كان فيها مقدار ذرة من الخطيئة لما ضحك دون خوسيه القس كل ذلك الضحك عندما حكيت له . لقد كان الحيوان بخروجه إلى الواجهة الزجاجية للشمس يبحث عن المشاكل ، وإن كانت هذه العادة ، من ناحية أخرى ، تمثل مكسبا اقتصاديا جيدا لـ (البوم) وأصدقائه . فقد كانت (الفللفة) تسألهم حين يذهبون إلى محلها لشراء ريال من الكعك المحمص :

- أتريدون من كعك العلبة أم من الكعك الذى داسه القط ؟

فيردون عليها دائما :

- من الكعك الذى داسه القط .

فالكعك الذى داسه القط كان للعرض ، ومنه كانت (الفللفة) الكبرى تباع كل أربع ريال ، بينما تباع كل اثنتين بريال إذا كانتا من العلبة . وماكان يهم الأولاد كثيرا أن يكون القط قد داس الكعكات ، بل لم يكن القط أحيانا يكتفى بأن يدوس الكعك ، وماكان ذلك يقلقهم كثيرا ، فأربع خير من اثنتين دائما ومهما كانت الأحوال .

أما العدسة الكبيرة فقد كان جيرمان (الأقرع) هو من حملها إلى المدرسة صباح ذلك اليوم الربيعى . كان أبوه يحتفظ بها فى دكانه لفحص الأحذية . ولما كان نظر اندريس قويا فما كان يستخدمها إلا نادرا . كان سيسعملها لو أنها قدرت على رفع ثياب النسوة قليلا ولكنه كان يقول : «لاداعى لاستخدام آلات لرؤية السيقان أغلظ عما هى عليه» .

وقام الأولاد صباح ذلك اليوم بكل أنواع التجارب مستخدمين عدسة جيرمان (الأقوع) المكبرة . فأحرق روكي (البعرور) ودانييل (البوم) سيجارتين رديشتين مصنوعتين من ورق البطاطا بعد أن ركزا أشعة الشمس عليهما ، ثم تفحصا الندب ، التي بدت من خلال الزجاج الغليظ تضاريس مربعة غير منتظمة . ثم عاين كل منهما عين الآخر ولسانه وأذنيه حتى تعبوا منها ومن الصور الغريبة التي كانت تحدثها .

وبينما كان الأولاد يقطعون البلدة في طريق العودة إلى بيوتهم من المدرسة شاهدوا قط الفلفلات مستكورا على صحن الكعك في أقصى الواجهة الزجاجية من الدكان . كان يغط في نوم هانئ وهو يعرض كرشه الأسود المشعر للشمس وينعم بالدفء . واقتربوا ففتح مرتابا عينا خضراء مدورة مربعة . ولكنه عاود إغماضها مطمئنا إلى الحماية التي يكفلها له زجاج الواجهة وبقي ساكنا مستلقيا . ليس في مقدور أحد أن يعين على الدماغ المكان الذي تولد فيه الأفكار العظيمة . ولا حتى دانييل (البوم) يقدر أن يقول صادقا في أية ثنية أو في أى ركن من دماغه ولدت فكرة توسيط العدسة المكبرة بين الشمس وكرش القط الأسود . لقد ولدت الفكرة في رأسه ولادة عفوية ، بل تكاد تكون طبيعية ، شئ من قبيل تدفق المياه من النبع . لقد تركزت أشعة الشمس على شعر القط الأسود مؤلفة لثوان خالا براقا . وراح الأصدقاء الثلاثة ينتظرون حدوث العملية الفيزيائية ، ولاحظوا كيف أن طبقة الشعر العلوية بدأت تطلق شرورا بينما الحيوان ملتزم بوضعه الحالم الهانئ . وفجأة ارتفع من الحال الناري المثبت على الكرش الداكن خيط من الدخان فانتهض قط الفلفلات في قفزة بهلوانية مصحوبة بمواء وحشى :

- ماررامياوو ... مياوو ...

ثم راح المواء المتألم يخفت شيئا فشيئا فى داخل المحل .

ومن دون سابق اتفاق ، انطلق الأصدقاء الثلاثة يعدون ، ولكن (الفلفلة) الكبرى كانت أسرع منهم . وأطلت بوجهها المعكر من الباب قبل أن يفلح الصبيان فى الاختفاء نزولا من العقبة . كانت ترفع قبضتها عاليا باكية وهى تمس بالغضب والعجز :

- يا أنذال ، ياسفلة ، ومن سواكم يفعل هذا ؟ لقد أحرقتم القط ولكنى سأنتقم منكم وستذكرون ذلك .

وتذكرونه فعلا . فقد فاقت فعلة دون موسىيس المعلم بهم فعلتهم بالقط ، وأنزل بهم عقوبة الاعتبار ، فكان (البوم) يسأل نفسه : «لماذا نعاقب بدرية من ضربات المساطر فى كل يد وبالبقاء طول النهار حاملين مجلد «التأريخ المقدس» الضخم بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة لمجرد أننا أحرقتنا القط ؟ ولماذا لايفرض أحد على من يخضعنا إلى هذا العقاب المتعسف عقوبة أشد لنصل هكذا ، من عقوبة لأخرى ، إلى عقوبة الإعدام؟» ولكن لا . فمع أنه مصيب فى حجته فلا بد أن يحل العقاب به دائما . فهذا هو حال النظام التربوى القائم وهكذا تحب طاعته بإذعان . إنها عدالة الرجال المبنية على المزاج وغياب المنطق وانعدام المساواة .

وتمر الدقائق بطيئة ، إن ركبناه تؤلمانه وساعده يرتجف ، إنه يحس بوخز الأعصاب فيه وهو يرفع «التأريخ المقدس» عاليا ، وراح (البوم) يفكر فى أن التجارة الوحيدة الراجعة فى الحياة هى أن يجعل فى ترك مرحلة الطفولة والانتقال إلى مرحلة الرجولة . فى هذه الحالة فقط سيكون فى إمكانه

مطمئنا حرق قط بعدسة مكبرة دون أن تهتز قواعد البلدة الاجتماعية ودون أن يتعسف المعلم مويسيس في استخدام صلاحياته دون أن يتعرض بدوره للعقاب .

وماذا عن حادثة النفق ؟ لقد نتج عن حادثة العدسة المكبرة سقوط ضحية بريئة هو القط ، أما في حادثة النفق فلم تسقط أية ضحية . ولو قدر لضحية أن تسقط لكانوا هم الضحية . مع ذلك فقد انهال الضرب على راحتهم وأمضوا الساعات راكعين على ركبهم وحاملين «التاريخ المقدس» بأيديهم المرفوعة دائما فوق رؤوسهم . ياله من عمل غير إنساني ، إنه بالمختصر المفيد استغلال واضح للسلطة . أما كان دون مويسيس (البندق) سيراتح لو أن القطار السريع جرفهم ثلاثتهم ذلك المساء ؟ فلماذا عوقبا إذا ، هل لأن القطار لم يجرفهم أمامه ؟ لقد كانوا في الواقع في ورطة ، وكان الموقف صعبا : فإما الموت تقطيعا بين عجلات القطار وإما قضاء ثلاثة أيام ركوعا على الركبتين ، و«التاريخ المقدس» بلوحاته الملونة التي تزيد على المائة مرفوعا فوق مستوى رؤوسهم .

روكى (البعور) هو الآخر لا يحسن تحديد المكان الذى انبثقت منه تلك الفكرة الغريبة :

فكرة نزع السراويل الداخلية داخل النفق وانتظار القطار السريع هناك . كانوا من قبل ينتظرون القطار المختلط أو قطارا المحافظات داخل النفق ، ولكن هذين القطارين بطيئان ولا يحدث مرورهما في النفق المظلم إلا تأثيرا طفيفا في نفوسهم . فكان لابد إذا من الإبداع . واقترح روكى عليهم هذه التجربة الجديدة : أن ينتظروا القطار السريع داخل النفق ويتغوطوا ثلاثتهم مع مروره .

وأبدى دانييل (البوم) اعتراضا حكيما قبل أن يوافق ، قال :

- ومن لآمحدث عنده رغبة ؟

فرد عليه (البعور) بحزم :

- ستحدث بمجرد أن يحس باقتراب القطار .

وناقشوا مسألة وضع السراويل . ولو أنهم أحسنوا التصرف فى هذه النقطة لما افتضح أمرهم ، ولو أن الشمس قبلها لم تشرق يوم حمل (الاقرع) العدسة إلى المدرسة لما حدث ما حدث . ولكن ثمة كيانات شيطانية تطير فى الهواء دائما وتتلذذ بتعقيد أفعال الأطفال البريئة وتعقيد كل ما هو بسيط وطبيعى .

فمن ذا الذى كان يفكر فى مصير سرواله وهو الذى يغامر بمصيره ذاته ؟ وهل يلتفت مصارع الثيران إلى قطعة القماش عندما يكون القرنان على بعد شبرين من ردفه ؟ وحتى لو مزق الثور تلك القطعة فلن يسمع المصارع توييخا من أمه ولن ينتظره معلمه الغاضب ليعاقبه بدريتين من المساطر وبالركوع على ركبتيه رافعا «التاريخ المقدس» فوق مستوى رأسه . ثم إن المصارع يكسب فوق هذا نقودا كثيرة ، أما هم فلأنهم يغامرون دون أن ينتظروا مكافأة أو تصفيقا ، ودون أن يأملاوا الحصول على مدخنة أو عجلة من عجلات القطار . إنهم يحاولون وحسب إثبات جدارتهم أمام أنفسهم ، فهل يستحق ذلك كل هذا العقاب الصارم ؟

ودخل القطار السريع النفق مصفرا نافخا يطلق الشرر فتتهز لحركته الجبال والصخور . أما الأولاد الثلاثة فقد قعدوا القرفصاء ، شاحبي الوجوه مكشفين عن أعجازهم على مقربة نصف متر من السكة . وأحس

دانييل (البوم) أن الأرض تميد من تحت قدميه وورسم علامة الصليب فى ذهنه . مر القطار يزأر من جنبه فلسع سوط من البخار الساخن مؤخرته ، وارتجت جدران النفق الذى عجز بصخب حديد مدو . ومن بين قصف الحديد وهدير السرعة المحصورة بلغ سمعه صوت (البعرور) الجالس إلى جواره محلطرا :

- امسكوا بركبتيكم .

وأمسك قويا بركبته تنفيذا لأمر الزعيم ولأن جذب القطار كان شديدا لايقاوم ، أمسك بركبته وأغمض عينيه وقلص احشاءه . وأحس بسعادة وهو يرى أنه ألجز تماما ما طلبه روكى منه .

وبعد مرور القطار أطلق الأصدقاء الثلاثة ضحكات مكتومة . ونهض (الأتريغ) وهو يسعل بعد أن امتلأ جوفه بالدخان ، ثم سعل (البوم) ، وأخيرا سعل (البعرور) . لم يكن (البعرور) فى يوم من الأيام البادئ . بالسعال وإن شعر بالحاجة إلى ذلك . كانت ثمة منافسة غير معلنة بينهم حول هذه المسألة .

كانوا لايزالون يضحكون عندما صاح روكى (البعرور) منها :

- السراويل غير موجودة .

وتوقفوا عن الضحك فى الحال . وقال (البوم) وهو يتحسس فى الظلام :

- لابد أنها هناك .

وقال الأتريغ :

- احذرا لا تدوسا . . .

ونسى (البعور) للحظة موضوع السراويل وسألها :

- هل تغوطتما ؟

وامتزجت فى ظلمة النفق الداكنة ردود (البوم) و (الأقرب) المرضية :

- نعم .

- وأنا كذلك - أقر (البعور) وضحك عندما تأكد من إجماع أحشائهم الغريب . ولم تظهر السراويل . وواصلوا التفتيش حتى بلغوا فتحة النفق . كانت أعجارهم ملطخة برذاذ السخام ، وكانت خشيتهم من فقدان سراويلهم تطبع على وجوههم علامة ذهول مضحكة . مع ذلك لم يجرؤ أحد على الضحك . ماكانت معرفتهم بأبوين ساخطين ومعلم قاس تترك لهم مجالا كبيرا للشعور بالابتهاج . ولاحظوا فجأة على مسافة أربعة أمتار إلى الامام وفى وسط السكة ، خرقرة مشوهة المعالم مسودة . تناولها (البعور) وعابنها الثلاثة وأخيرا ثمرا (البوم) ليقول متمتما وبصوت خافت :

- إنها قطعة من سروالى .

أما بقية الملابس فراحت تظهر على طول الطريق قطعاً صغيرة ممزقة . كانت قوة العصف قد انتزعت الملابس من مكانها ليتلقفها القطار بين حديدته ولیمزقها مثل وحش ضار . ولولا ذلك العارض ما علم أحد بالمغامرة ، ولكنها الكيانات المنحوسة الطائفة على الدوام فى الفضاء تظهر من جديد لتعقد عليهم الأمور . بالطبع فإن عقوبة دون موييس مبررة حتى قبل

معاناة تصرفهم الشيطاني من كل جوانبه ، فهو متطرف في العقاب دائما .
ويبدو أن معاقبة التلاميذ كانت تمنحه متعة كبيرة ، فقد كان شذقه الأيمن
ينفرج في مثل هذه الحالات حتى يوشك على بلوغ سالفه قاطع الطريق
السوداء .

ورب سائل يسأل إن كانوا أثاروا فضيحة وهم يدخلون البلدة من دون
سراويل ؟ هذا ماحدث بالطبع . وماذا عساهم فاعلين في مثل هذا الموقف ؟
هل كان يتوجب عليهم ، لمجرد أنهم أضاعوا سراويلهم ، عدم العودة إلى
البلدة ؟ ما أفصح ماكان يعنيه عندهم ثلاثتهم وقوفهم دائما في موقف
القرار والاختيار بين مفترقات صعبة جدا . وكم كانت صعبة عليهم ماكانت
تحدثه أشيائهم من حدة في دون موييس المعلم ، أشيائهم التي ماكانت
تعنيه من قريب ولا من بعيد .

الفصل الخامس عشر

طالما صرخ المعلم دون مويسيس أن حاجته إلى المرأة تفوق حاجته إلى الطعام . إنه يردد ذلك في البلدة منذ عشر سنوات ، مع ذلك فما زال محروماً من المرأة المنشودة (الفلقلات) ، و(الأرنبات) ودون خوسيه القس ، وهو القديس الكبير ، يقرّون بحاجته تلك وخاصة لدواعي مكانته الوظيفية . إذ لا يمكن للمعلم الذهاب إلى المدرسة كيفما اتفق ، فليس المعلم جباناً ولا حدادا بل هو موظف ، وللوظيفة متطلباتها ، وأولى متطلبات الوظيفة أن يحصل الموظف على أتعاب كافية ، ولكن دون مويسيس لا يتقاضى أية أتعاب ، فليس غريباً إذا أن يرتدى كل يوم بدلة البالية المرقعة التي جاء بها إلى البلدة من عشر سنوات خلت . وليس غريباً ألا يرتدى ملابس داخلية ، لأنها تكلف مائتكلفه إحدى العينين ، وهو بحاجة إلى كلتا عينيه لمواصلة عمله . ولا شك أن (الأرنبة) كاميلاً أخطأت في حقه ، فقد شغف المعلم بها حبا في وقت من الأوقات ولكنها صدته بدعوى أن وجهه ملتو وأن فمه منحرف ، وبالحال من حماقة . وقد أصاب باكوا الحداد إذ قال إن ذلك ليس عيباً كبيراً لأن (الأرنبة) قادرة ، إن هي تزوجت منه ، على إعادة فمه إلى مركزه وتعديل وجهه بالإكثار من تقييله . ولكن كاميلاً لم تكن مستحسنة للفكرة وكانت تكرر أنها لكي تقبل المعلم في فمه فإن عليها أن تقبله في أذنه وهي غير راغبة في ذلك . ولم يرد عليها باكوا الحداد سلباً ولا إيجاباً ولكنه فكر في أن تقييل رجل في أذنه ليس أسوأ من تقييل أرنبة في مشفرها . وهكذا انتهى المسعى دون نتيجة ، وواصلت هي عملها في البدالة وواصل هو الذهاب إلى المدرسة يوميا دونما ملابس داخلية ويسترة تمزقت أطراف

أكمائها وامتلأت منطقة الكوع فيها بالنقوب . كان اليوم الذى عرض فيه روكى (البحرور) أفكاره على صاحبيه يوماً مشمساً من أيام العطلة بينما كان باسكوال ، عامل الطاحونة ، وأنطونيو (الحوصلة) يلعبان فى ملعب البولو .

- اسمع (بوم) ، لماذا لاتتزوج سارة من (البيدق) ؟ - قال (البحرور) فجأة .

ومرّت لحظة أحسنّ دانييل فيها وكأن أبواب السماء انفرجت . فكيف لم تخطر هذه الفكرة البسيطة المناسبة على باله من قبل ؟ فأجاب :

- حقاً لماذا لا يتزوجان ؟

وأضاف (البحرور) فى صوت منخفض :

- فلكى يتزوج اثنان يكفى أن يتفقا على أمر من الأمور ، وسارة و (البيدق) يتفقان على أن أيا منهما لا يطبق النظر الىّ ولو فى الصورة .

وبدأ (البحرور) لدانييل (البوم) مخلوقاً ذكياً . لم يكن قادراً على تغيير نبرة التعجب فقد بدا له كل ذلك صحيحاً تماماً وباعثاً على التأمل :

- حقاً .

وواصل (البحرور) كلامه قائلاً :

- تصور وضعى وأنا مع أبى فى البيت وحيدين بلا سارة ، وفى المدرسة حيث سيرعانى دون مويسيس دائماً لكونى شقيق زوجته ، بل سيرعاكما لكونكما خير أصدقاء شقيق زوجته . أظن أن الصورة واضحة ؟ كان لإصرار (البوم) يعكس حماسه الطاغى :

- بالطبع .

وكرر (الأقرع) وقد أصابته عدوى التعجب :

- بالطبع .

وهزّ (البعور) متشككاً رأسه :

- ولكن المهم أن يكونا راغبين فى الزواج .

- ولماذا يمانعان ؟ - قال (البوم) . فمئذ عشر سنوات و (البيدق) يبحث عن امرأة . أما سارة فلن تمنع أن يغازلها رجل فأختك ليست جميلة .

- إنها قبيحة كالشيطان . أعرف ذلك . ولكن (الأرنبة) قبيحة هى الأخرى ؟

وسأل (الأقرع) :

- هل تؤمن سارة بالوساوس ؟

قال (البعور) :

- على الإطلاق . فلو أن ذبابة سقطت فى اللبن لضحككت وقالت لها : «استعدى للرحلة» ثم تشربها مع اللبن وتعاود الضحك كأن شيئاً لم يكن .

- وإذا ؟ - سأل (الأقرع) :

- الذبابة لن تضايقها من جديد لأنها شئ عابر ، ولكن الزواج مختلف - قال (البعور) .

وظل الثلاثة صامتين هنيهة وبعدها قال دانييل (البوم) :

- لماذا لا نرتب موعدا بينهما ؟

- كيف ؟ سألته (البعور) .

ونط (البوم) نافضاً التراب عن ردفه :

- تعالاً معي وستريان .

خرج الأولاد من الملعب إلى الطريق العام . كان جواب صاحبهم يوحى بإثارة محمومة - سنكتب رسالة لـ (البيدق) عن لسان سارة ، أنفهماني ؟ . أختك تخرج عصر كل يوم إلى الباب للتطلع إلى المارة . سنقول له إنها تنتظره . وعندما يذهب هو ويراه سيظن أنها تنتظره حقاً . ويدت على وجهه ووكي (البعور) علامات التجهم والغضب ، وهو ما يبدو عليه عادة عندما لا يكون مقتنعاً تماماً :

- وأن تعرف (البيدق) على الخط ؟

- سنغيره - تدخل (الأقرع) مندفعاً .

وأضاف (البعور) :

- وإن أطلع سارة على الرسالة ؟

وتروى دانييل (البوم) قليلاً :

- سنقول له أن يحرقها قبل أن يذهب للقاء سارة وألا يذكر لها شيئاً عنها إن هو أراد ألا تموت الفتاة حياءً وشاء أن تعاود النظر إليه .

- فإن لم يحرقها ؟ - عاود (البعور) السؤال .

- سيحرقها - قال (البوم) . لأن (البندق) المقرف يخشى ، وقد صار كهلا ، أن يبقى دون رواج ، فضلا عن أنه يعلم أن فمه أعوج وأن هذا عيب فيه وأن النساء لا يرغبن في تقبيل رجل في أذنيه كما قالت (الأرنبة) .
وأضاف (البعور) وكأنه يكلم نفسه :

- إنه لن يرفض بسبب ماجرى له من قبل . فمارالت فيه بقية من الخوف منذ أن خيبت كاميلا أمله . معك حق .

كانت الثقة تنبعث في صدره العريض شيئا فشيئا . فها هو يرى نفسه من دون سارة في البيت ومن دون تهديد مسطرة (البندق) في المدرسة ، متمتعا بالاستقلال الذي لم يعرفه من قبل ، قال :

- متى نكتب الرسالة إذا ؟

- الآن .

ودخلوا معمل الجبن ، وكانوا يقفون قبالة . وتناول (البوم) قلما وورقة وكتب بحروف كبيرة : «دون يسييس . إن كنت في حاجة إلى امرأة ، فأنا في حاجة إلى رجل . سأنتظرك الساعة السابعة عند باب بيتي . لا تذكر شيئا عن هذه الرسالة . أحرقها وإلا مُت من شدة الحياء وامتنعت من النظر إلى وجهك ثانية . تصنّع أنك التقيت بي صدفة . سارة» .

وحشر جيرمان (الأقرع) الرسالة ساعة الغداء من تحت باب بيت المعلم .

وفي الساعة السابعة إلا ربعا دخل (الأقرع) و (البوم) إلى بيت (البعور) لمراقبة الاحداث من كوة المتبن .

ومع أن الخطة كانت محكمة الإعداد فقد حدث ماهدد بإفشالها . كان (البعور) عند وصولهما محبوساً كالعادة فى المتين . وقدر دانييل أن (البيدق) الذى يبحث منذ عشر سنوات عن زوجة لن يتأخر دقيقة واحدة عن الساعة .

كان صوت سارة ينساب من فتحة السلم . ومع أن دانييل (البوم) كان سمع تلك الاسطوانة آلاف المرات ، فإنه لم يستطع تجتّب الإحساس بالرعشة :

- عندما تسمّر عينائى الزجاجيتان الجاحظتان نظراتهما الواهنة المحتضرة فيك فرقا من الموت الوشيك . . .

ولابد أن (البعور) كان يعرف أن الساعة تقترب من الساعة لأنه كان يرد بسرعة دون أن ينتظر انتهاء سارة من جملتها :

- رحماك يابسوع !

وتوقفت سارة عندما سمعت وقع خطوات (البوم) و (الأقرع) وهما يصعدان السلم .

- مرحبا سارة . - قال (البوم) متلهفا - اصفحى عن (البعور) . إنه لن يعود إلى فعل ذلك .

- وما أدراك أيها الفضولى بما فعل ؟ - قالت .

- لابد أنه قام بفعل سيئ . فأنت لا تعاقبينه أبداً دون سبب لأنك عادلة .

وتبسمت سارة راضية .

- انتظر لحظة - ثم استمرت على عجل متلهفة لبلوغ قمة عقابها .
- عندما أفقد حواسي ويختفى العالم من ناظري وأئن تحت وطأة التزع الأخير ومغالبة الموت ...
- رحماك يا يسوع . سارة هل انتهيت ؟
- وأغلقت هي كتاب الصلوات :
- نعم .
- هيا افتحي .
- هل اعتبرت ؟
- نعم سارة . لقد اخفيتني اليوم .
- ونفضت سارة وفتحت باب المتبن وقد بدت عليها علامات الرضى .
- وبدأت بتزول السلم ببطء ، والتفتت عند الدرجة الأولى وقالت ، وقد اهتزت لها جس غامض يلفها :
- حذار أن تخشوا .
- وخف (البعرور) و (البوم) و (الأقرع) صوب الكوة دون أن يشفوها
- بشيء . وأزاح (البعرور) بيده نسيج عنكبوت ليطل على الشارع . وسأل (البوم) متلهفاً :
- هل خرجت ؟
- إنها تخرج الكرسي ولوازم الحياطة ... إنها تجلس - واختنق صوته فجأة :
- (البيدق) قادم من ناحية الشارع ...

وراح قلب (البوم) يرقص كالمجنون . إنه ليسرع أكثر مما كان عليه لحظة سماع صفارة القطار وهو يدخل النفق بينما هو بالانتظار من دون سروال . كما أنه ليسرع أكثر مما كان عليه عندما سألت أمه أباه مستغربة إن كان الدوق الكبير قد حلّ عليهم ضيفاً كريماً . أما حادثة اليوم فإنها أكثر تأثيراً وأهم من كل ذلك . ووضع (البوم) وجهه بين وجهي صاحبيه ورأى دون موييسيس يتوقف قبالة سارة وقد أمال جسمه قليلاً ووضع يديه خلف ظهره . كان يغمز لها بإحدى عينيه ويستسم لها فارحاً فمه من ناحيته اليسرى حتى أذنه ، أما سارة فكانت تنظر إليه مستغربة ثم مضطربة لكثرة غمزاته وإبتساماته الجانبية . وتمتت :

- مساء الخير ، دون موييسيس . ماذا جرى ؟

وعندها جلس على الدكة الحجرية إلى جانبها وعاود سلسلة الإيماءات السريعة بقمه للتعبير عن سعادته .

كانت سارة تراقبه مستغربة . قال :

- ها أنا ذا أيتها الصغيرة . لم أتخلف عن الموعد ، ليس كذلك ؟ أما عن بقية الأمور فلن أنطق بكلمة . لا تقلقى .

كان المعلم يجيد الكلام . وإذا لم يوجد فى البلدة اتفاق على أفضل المتكلمين فقد كان هناك اتفاق على أن المرشحين هم دون خوسيه القس ودون موييسيس ودون رامون العمدة . وأربك صوت (البندق) العذب الغريب ولغته الغامضة التى كان تستعملها الفتاة . فسألته :

- هل ... جرى لك اليوم شئء دون موييسيس ؟

ولم يرد عليها ، بل عاود الغمز ليوحى لها بالتفاهم والمراعاة .

وهناك فى كوة المتبن همس (البرور) فى أذن (البوم) :

- ياله من خنزير مهذار . إنه يتكلم عما لا يجب الحديث عنه .
- اسكت .

وانحنى (البندق) فى هذه اللحظة نحو سارة وأخذ يدها بجرأة :

- إن أشد ما يعجبني فى النساء هى الصراحة ياسارة ، فشكرا لك .
أنا وأنت لسنا بحاجة إلى لف ولا إلى دوران .

واحمّر وجه الفتاة بما فاق حمرة شعرها . وسحبت يدها من يده لما
رأت (الفطساء) تقترب وهى تحمل جرة الماء على كتفها . مع ذلك فقد
قالت وهى فى نشوة للذيدة مكتومة :

- دون موييس ، سألتك الله ، فقد يرانا أحد .

أما الأولاد الثلاثة فكانوا فى كوة المتبن يتسممون ببلادة دون أن يتبادلوا
النظرات . وعندما طوت (الفطساء) عطفة الشارع عاود (البندق) نشاطه :

- هل تريدان أن أساعدك فى خياطة هذا ؟ - قال .

وأمسك بيديها كليهما هذه المرة . وتنازعا . وأخفت سارة القطعة التى
كانت تخطها دونما إرادة بعد أن ضايقها فرط الخجل . ودمدمت :

- أبعد يديك ، دون موييس .

وضحك (البرور) من مكمنه بصوت خافت :

- نعى ... نعى ... نعى ... إنه سروال داخلى .

وضحك صاحبا كذلك . ولم يفلح اضطراب سارة وغيظها الظاهر فى إخفاء تلذذا الجارف . وعندها بدأ (البندق) يسمعها كلاما جميلا عن عينيها وعن قمها وعن شعرها دون توقف ودون أن يمنحها فرصة لالتقاط أنفاسها . ومن بعد فرسخ كان يلاحظ أن قلب سارة البكر ، المحروم من تذوق طعم الغزل ، كان يذوب كما الثلج تحت حرارة الشمس . وبعد انتهائه من ترتيل سلسلة كلمات الغزل راح المعلم ينظر عن كثب ويحدق فى سارة . ثم قال :

- هل تعلمين الآن كيف هى عينك أيتها الصغيرة ؟

وضحكت هى ببلاهة :

- ما أظرف كلامك دون موسىس .

وعاود هو الكرة . كان يلاحظ أن سارة كانت تتجنب الكلام لكى لا تخيب بعباراتها السوقية ظن (البندق) فيها ، وهو الذى يعد بين أفضل المتكلمين فى البلدة . ولا بد أنها كانت تحاول أن تتذكر شيئا من الكلام الجميل الذى كانت قرأته . كلاماً رفيعاً وشاعرياً ، ولكن ما خطر على بالها كان هو ذاته الذى طالما رددته :

- عيونى ... عيونى ... رجاجية جاحظة ، دون موسىس - قالت وهى تطلق ضحكات قصيرة ومنفعلة .

وبدت الفتاة على أفضل حال . لم تكن سارة ذكية . كانت تظن أن تلك النعوت ، لمجرد ورودها فى الكتب ، هى مما يناسب الملائكة أكثر من مناسبتها لبنى البشر ، لذلك فقد بدت مرتاحة . وفسرت علامة الاستغراب التى ارتسمت موجزة على وجه المعلم بأنها دليل على أنه فوجئ عندما تبين

له أنها ليست جاهلة فظة كما تصورها . أما (البعرور) فتساءل من مكانه المرتفع :

- لا بد أن سارة تفوهت بحماقة . أليس كذلك ؟

وشرح (البوم) قائلا :

- العيون الزجاجية الجاحظة هي عيون الموتى .

وشعر (البعرور) رغبة في إلقاء حجر على رأس أخته . مع ذلك فقد ابتسم (البيدق) من جانب أذنه اليسنى بعد صحوته من ذهوله العابر . لاشك أنه في حاجة شديدة إلى امرأة ، وإلا لما أجاز دوما اعتراض ودوما تعليق ماتفوهت به الفتاة . وعاد إلى المغالبة بحماس أشد ، وبعد ربع ساعة كانت سارة كالبلهائم وقد توردت وجتها وضابعت نظراتها في الفضاء فكأنها تمشى في نومها . وأراد (البيدق) أن يضمن المرأة التي يحتاجها :

- أحبك سارة . أتعلمين ذلك ؟ وسأبقى أحبك حتى نهاية العالم . سأتى لرؤيتك كل يوم فى هذه الساعة . قولى أنت - وضغط على يدها بعاطفة جياشة - هل ستجيبينى دائماً ؟

ونظرت إليه سارة مذهولة . وراحت الكلمات تجرى على لسانها بطلاقة غريبة ، فكأنها ليست هي ، وكأن غيرها كان يتكلم بلسانها من داخلها .

- سأحبك ، دون ميسيس ، - قالت - حتى أفقد حواسى ويختفى العالم فى ناظرى وأئن تحت وطأة النزاع الأخير ومغالبة الموت .

- هكذا قال المعلم منشراحاً . وضغط على يديها وغمز لها مرتين وانفرج فمه أربع مرات حتى أذنه ثم انصرف ، وقبل أن يصل إلى الناحية التفت إليها عدة مرات مبتسماً بانفعال .

وهكذا أصبح (البندق) وسارة خطيبين ، ولكنهما لم يراعيًا دانييل (البوم) ، إذا أخذنا بالحسبان الدور الذى لعبه فى أن يبلغا التفاهم . لقد دامت الخطوبة عاماً ونصف العام ، وهما يحددان موعد الزواج فى الثانى من نوفمبر وهو «يوم الأرواح المباركة» بينما يستعد (البوم) للرحيل إلى المدينة لكى يبدأ التقدم . اندريس ، الرجل الذى لا يرى من جانبيه ، لم يوافق هو الآخر على موعد الزواج وقال :

- الرجال الذين يبحثون عن زوجة يتزوجون فى الربيع ، أما الذين يبحثون عن خادمة فإنهم يتزوجون فى الشتاء قاعدة لاتقبل الخطأ .

وفى ليلة الميلاد التالى كانت سارة منشرحة جداً . لقد تحسّن طبعها كثيراً منذ أن خطبها (البندق) ، فلم تحبس (البعور) فى المتبن لتتلو عليه نصائح الروح سوى مرتين ، وفى ذلك شئ من الريح ، فضلاً عن أنه صار ينال درجات أعلى فى المدرسة ولم يضطر من ساعتها إلى رفع «التأريخ المقدس» بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة فوق مستوى الرأس . أما دانييل (البوم) فلم يخرج من ذلك كله إلا بالقليل .

كان أحياناً يلوم نفسه على ضلوعه بالعملية ، أفليس من الأفضل له أن يرفع «التأريخ المقدس» و (البعور) إلى جانبه يرفع آخر مثله من أن يضطر إلى حمله من دون صحة ؟

وفى يوم الميلاد سألت سارة أخاها (البعور) بينما كانت تقلب الدجاجة فى الفرن ، وكانت سعيدة منشرحة :

- قل لى روكى ، هل قمت أنت بكتابة رسالة إلى المعلم تخبره فيها اننى أحبه ؟

- كلا سارة ، كلا .

- هل أنت متأكد ؟

- أقسم لك سارة .

ورفعت أصبعها الذى لفحته النار إلى فمها ، وعندما أخرجته قالت :

- كنت أحسب ذلك . ولو أنك قمت بتلك الفعلة لكأنت خير ما فعلت

فى حياتك . هيا انصرف من هنا أيها الماكر .

الفصل السادس عشر

كان دون خوسيه القس ، وهو قديس كبير ، يستخدم من على المنبر كل ضروب الإقناع ، فيعصر قبضتيه ويرفع عقيرته ويعنف فتتصبب جبهته وعنقه عرقا ويتف شعراته البيض القليلة ويتجول بين المقاعد رافعا أصبع الاتهام ، بل لقد شق في إحدى المرات عباءته طولا في واحد من أكثر المشاهد إثارة وعنفا في تاريخ الوداي . مع ذلك فما كان الناس ، والرجال منهم خصوصا ، يعيرونه اهتماما كبيرا . كانوا يستحسنون الصلاة ، لكنهم حين يبدأ الموعظة ، يقلبون الوجوه ويقطبون الجباه . إن تعاليم الرب لاتأمر بالاستماع كل أحد وكل عيد إلى موعظة مطولة . فالقس كان يبائع إذاً في تطبيق شريعة الرب . يقولون إنه يحاول أن يكون بابوياً أكثر من البابا ، وليس هذا بالتصرف المطلوب من راهب ، ولاسيما إذا كان من قدر دون خوسيه المفرط في ورعه والعالم بنقاط الضعف لدى الرجال . كان في رجال الوداي شيء من التجهم والبؤس ، غير أن روحاً رياضية صادقة فيهم كانت تضيء عليهم مسحة إنسانية واضحة . كان متقنوا خطابة دون خوسيه يقولون إنه لايمكن وصف رجل لايكف عن ترديد عبارة «في الواقع» بأنه فصيح . ولكن لماذا لايمكن أن يكون فصيحاً من لايكف عن ترديد عبارة «في الواقع» ؟ الأمران ، في رأى (البوم) ، غير متنافرين ، ولكن بعض الناس لايفهمون الأمر هكذا ، وهم إذا حضروا خطبة دون خوسيه ، فلكى يتراهنوا على عدد المرات التي ينطق فيها بعبارة «في الواقع» من على المنبر : أهو عدد زوجي أم فردي ؟ كانت (الفلفلة) الكبرى تؤكد أن القس يردد هذه العبارة متعمداً ، وأنه يعلم أن الرجال اعتادوا المراهنة أثناء خطبه على العدد الزوجي أو الفردي ، مع ذلك فإنه يفضل الاستمرار

فى ذلك لأنهم ، وإن لم يستمعوا إليه ، فلا بد أن شيئاً ما سيعلق بأذهانهم بين «فى الواقع» و «فى الواقع» ، وبخلافه فإنه يغامر بتركهم يفكرون فى أثناء الخطبة فى العشب والمطر والذرة والبقر ، وسيكون ذلك شراً لا يرتجى له صلاح .

كان سكان الوادى أناساً ذوى نزعة فردانية متأصلة ، وماكان دون رامون العمدة يبالغ عندما يقول إن كل فرد فى البلدة ليموت قبل أن يحرك ساكناً خدمة للآخرين . الناس يعيشون فى عزلة ولاتهمهم إلا أنفسهم . والحقيقة إن هذه النزعة القوية لا تنحسر إلا عصر أيام الأحد عند الغروب ، حين يلتقى الفتيان والفتيات ويذهبون إلى الحقول أو الغابات ، وحين ينحشر الشيوخ فى الحانات للتدخين أو للشرب . وهذه هى المصيبة ، لأنهم لا يتخلون عن تلك النزعة الفردانية إلا إرضاءً لمذاتهم الدنيوية .

وحمل دون خوسيه ذات صباح على أولئك الفتية والفتيات الذين ينسلون إلى الحقول والغابات أيام الأحد ساعة الغروب ، وعلى اللائى يتزاحمن فى حلقات الرقص وعلى الذين يسكرون ويقامرون حتى بشعورهم فى حانة الجانو وعلى كل من يحصد القث أو يحفر البطاطس أو يمشط حقول الذرة أيام الأعياد . إنه اليوم الذى احتد فيه دون خوسيه وشق عباءته طولا . إنه اليوم الذى كشف فيه الجميع ، فالذين لا يمشون عطلتهم أو احتفالاتهم فى الحقول والغابات ، والذين لا يتزاحمون فى حلقات الرقص أو السكر أو اللعب فى الحانة ، والذين لا ينفقون أعيادهم فى حصاد القث أو حفر البطاطس قليلون ويعدون على أصابع اليد الواحدة . لقد أكد القس قائلاً : «إن أناساً قليلين ، فى الواقع ، سيقفون يوم الحساب على ميمنة الرب إذا لم تصلح التقاليد السائدة جذرياً .

وزار وفد ترأسه (الفلفلة) الكبرى القس فى مقر إقامته فى الكنيسة
عقب انتهاء الصلاة :

- أخبرنا ، حضرة القس ، إن كان فى أيدينا تبديل هذه العادات
الفاسدة ؟ - قالت (الفلفلة) .

وتنحى الراهب العجوز وقد بدا عليه أنه فوجئ ، فما كان ينتظر أن
يكون رد الفعل سريعا إلى هذا الحد . وتفحص تباعا تلك الوجوه القريبة
من الرب وتنحى من جديد كسبا للوقت ثم قال :

- فى أيديكن ، بناتى ، إن أردتن ذلك .

وفى فناء الكنيسة كان أنطونيو (الحوصلة) يسدد لاندريس الاسكافى
ببزتين لأن دون خوسيه نطق بعبارة «فى الواقع» أربعا وأربعين مرة بينما
راهن هو على عدد فردى .

وأضاف دون خوسيه فى مكتبه :

- فى إمكاننا أن نقيم مركزا يلهو فيه الشباب دون أن يغضبوا الرب .
فإن توفرت الإرادة الحيرة فلن يكون ذلك صعبا : قاعة كبيرة تحتوى على
كل أنواع التسلية . وفى الساعة السادسة من أمسيات الأحد والأعياد
نستطيع عرض فيلم سينمائى . سنقتصر بالطبع على عرض الأفلام
الأخلاقية والدينية الصرفة .

وصفقت (الفلفلة) الكبرى وقالت متحمسة :

- المكان يمكن أن يكون اسطبل بالمجرى فما عادت لديه أغنام ، وهو يريد
بيع الاسطبل . فى إمكاننا أن نستاجر المكان ، دون خوسيه .

وتدخلت كاتالينا (الأرنبه) :

- لكن هذا الكافر لن يترك لنا الاسطبل ، يا حضرة القس . إنه مكار ملحد ، وأنه ليفضل الموت على أن يتركنا نستخدم الاسطبل لأغراضنا المقدسة .

وكان دانييل (البوم) ، الذى شارك فى إقامة القداس ، يستمع وقد فغر فاه لحديث دون خوسيه مع النسوة . وعزم على الانصراف ، ولكن فكرة إقامة دار للسينما فى البلدة أوقفته . وقال دون خوسيه محاولا تهدئة (الأرنبه) :

- لاتصدري أحكاما متهورة يا بنية . فليس بالبحو فى داخله رجلا سيئا .
وانتفضت (الفلفلة) الكبرى كالملدوغة :

- أبتاه . وهل يمكن أن يكون الإنسان طيبا وهو غير مؤمن ؟

أما (الأرنبه) كاميلا فقد نفخت صدرها العظيم وقالت مقاطعة :

- إن بالبحو على استعداد لبيع نفسه للشيطان مقابل بيزيتة واحدة . إننى واثقة من ذلك .

وتدخلت ريتا (البلهاء) زوجة الاسكافى منفعة :

- بل لقد وهبه إياها هذا المكار ، فليس الشيطان مضطرا إلى أن يعطيه ولا حتى ريالين ثمنا لها . كلنا نعرف ذلك .

وأخيرا قال دون خوسيه كلمته ، فألف لجنة ترأسها (الفلفلة) الكبرى للسعى لدى بالبحو (الملحد) وللذهاب إلى المدينة لشراء جهاز عرض

سينمائي . وبدأ القرار رائعا للجميع ، وأعلن ، بعد انتهائه من كلمته ، أن صدقات الشهرين القادمين ستخصص لشراء عباءة جديدة للراهب . وأيد الجميع الفكرة ، وبأدركت (الفلفة) بدأت حملة التبرعات بمبلغ قدره دور واحد .

بعد ثلاثة أشهر تحول اسطبل بالنجو (الملحد) ، وقد صيغ وطهر ، إلى دار للسينما . ولأقوى العرض الأول نجاحا كبيرا فلم يبق في الجبال وفي الغابات غير متمردين اثنين . ولكن المشكلة ظهرت بعد أسبوعين ، فالأفلام الكاثوليكية الخالصة قليلة . فخففت القيود بعض الشيء وظهرت الحاجة إلى السماح بعرض السفاهات . وصار دون خوسيه القس يعلل نفسه بمبدأ أهون الشرين ، كالغريق الذي يتشبث بلوحة النجاة . كان يقول :

- إن يكونوا مجموعين هنا أفضل من أن يتغزلوا في الحقول .

ومرّ شهر آخر ازدادت فيه الأفلام المرسلة من المدينة تفاهة . ثم إن الفتيان والفتيات الذين كانوا من قبل يذهبون إلى الغابات عند حلول الظلام صاروا يستغلون ظلمة الصالة ليتغزلوا بوقاحة وقلة أدب . وأنيرت الصالة ذات مساء أثناء العرض فشاهد باسكوالون ، عامل الطاحونة ، وقد أجلس صديقته على ركبتيه . وراحت الأمور تتدهور فاستدعى القس اللجنة إلى بيته في نهاية شهر نوفمبر :

- يجب اتخاذ إجراءات سريعة . فلا الأفلام عادت ، في الواقع ، أخلاقية ، ولا المتفرجون ملتزمين بالرصانة واللياقة . لقد وقعنا أسرى ما كافحنه .

- لضع أضواء فى الصالة ولنمارس رقابة صارمة على الأفلام - قالت
(الفلفة) الكبرى .

ويعد مناقشات طويلة أجزيت مقترحات (الفلفة) . وشكلت لجنة
رقابة مؤلفة من دون خوسيه القس و(الفلفة) الكبرى وترينو السادن . كان
الثلاثة يجتمعون أيام السبت فى الاسطبل لمشاهدة الفيلم المقرر عرضه فى
اليوم التالى .

وأوقفوا الفيلم ذات مساء فى لقطة مشكوك فيها :

- ألا ترى ، دون خوسيه ، أن هذه السافلة تبالغ فى الكشف عن
ساقها ؟ - قالت (الفلفة) .

- هذا ما بدا لى - قال القس .

ولما التفت إلى ترينو السادن وجده يتطلع إلى صورة الممثلة بعينين
مفتوحتين وفم فاغر فحذره قائلاً :

- ترينو . إما أن تترك التطلع هكذا أو أن أعزلك من اللجنة .

كان ترينو رجلاً مسكيناً بلا رأى ولا إرادة ، وكان ذا نظرة رقيقة ندية
ومن دون ذقن مما يضيف على وجهه تعبيراً ينم عن بلادة وغفلة . وكانت
تلك البلادة تزداد وضوحاً عندما يمشى ، إذ يبدو وكأن كل خطوة يخطوها
تكلفه كمية الهواء التى يحتاجها جسمه .

بالطبع فإن كل إنسان ينفع فى شيء ، حتى أكثر الناس سذاجة . أما
ترينو السادن فكان عارفاً بارعاً على الأرغن .

ولإزاء توبيخ الراهب خفض ترينو عينيه وابتسم ببلاهة مغتماً . إن القس على حق ولكن ، مألروع ساقى المرأة التى تظهر فى الفيلم ، ساقان من تلك التى لاتشاهد عادة بين الناس .

ويدا لدون خوسيه أن الصعوبات تزداد يوماً بعد يوم . وصار من الصعب الوقوف فى وجه الرغبات الغريزية للوادی كله . فترينو نفسه ، وهو الرقيب والسادن ، اقترف خطيئة الرغبة والتفكير فى تلك النسوة اللاتى يكشفن بمجون فاضح عن سيقانهن فى الشاشة . إنها المهمة شاقة عليه وهو الرجل المسن المتعب .

وقابل أهل البلدة الإنارة الموزعة فى أرجاء الصالة أثناء العرض محتجين بالصيفير ، فى اليوم الأول ، وبالكسر ، فى اليوم الثانى ، بأن قذفوها بالبطاطس . واجتمعت اللجنة من جديد : يجب أن تكون الأضواء حمراء اللون كى لاتؤذى النظر . ولكن الناس تجادلوا حينها حول المشاهد المقطوعة ، وكان باسكوالون ، عامل الطاحونة ، أول من بدأ التمرد :

- ياسيدة لولا إن منع ظهور السيقان والقبل فليس للسينما عندى معنى .

وأيده آخرون :

- إما أن تعرضوا الأفلام دون قطع أو نعود إلى الغابات .

وعاودت اللجنة الاجتماع ، وكان دون خوسيه منفعلاً جداً :

- انتهى أمر السينما وانتهى كل شيء . أقترح على اللجنة أن تعرض الجهار للبيع على بلديات المناطق المجاورة .

وصاحت (الفلفلة) :

- ولكننا سنبيع ماكاد أن يكون خطيئة ، دون خوسيه .

وطأطأ الراهب رأسه مغموماً . ف (الفلفلة) محقة فى كلامها . بل إنها أكثر من محقة هذه المرة ، لأن بيع الآلة السينمائية يعنى المتاجرة بالخطيئة .

- سنحرقها إذا - قال متجهماً .

وأحرق جهاز العرض فى اليوم التالى بحضور أعضاء اللجنة الذين اجتمعوا فى زريبة بيت الراهب . وقرباً من رماده أعلنت (الفلفلة) الكبرى ، فى ذروة حماسها التفتيشية ، عن ولائها للأخلاق وعزمها الأكيد على عدم الرضوخ حتى تسود الأخلاق فى الوادى . قالت وهى تودع القس :

- دون خوسيه ، سأواصل كفاحى ضد الفساد . صدقنى . أنا أعرف كيف أحاربه .

وفى الأحد اللاحق حملت عند الغروب مصباحاً يدوياً وخرجت بمفردها تطوف فى الحقول والجبال . ووجدت خلف أكوام العوسج المعزولة الكثيفة عاشقين يتغزلان . وسلطت حزمة الضوء على الوجهين المرتبكين :

- باسكوالون وألينا . إنكما ترتكبان خطيئة كبيرة .

ماكانت تقول أكثر من ذلك ثم تنسحب . وهكذا طافت دون كلل وهى تردد تحذيرها المروع :

- فلان وفلانة . إنكما ترتكبان خطيئة كبيرة .

وكانت تقول فى نفسها : «مادامت ضمائرهم غائبة ، فسأحل أنا مكانها» .

وهكذا حملت على عاتقها تلك المهمة الشاقة التي لم تكن تخلو ، مع ذلك ، من متعة . واحتمل شباب البلدة الثلاثة آحاد متتالية تدخل (الفلفلة) فى شئونهم ، ولكنهم تحركوا فى الأسبوع الرابع : أحاطوا بها فى أحد الحقول ورأى فريق أن تضرب ، ورأى فريق آخر أن تجرد من ملابسها وأن تترك فى رطوبة الليل مربوطة إلى جذع شجرة . ولكن فريقا ثالثا فرض رأيه بالإلقاء بها فى النهر على رأسها . وسقط المصباح من يد (الفلفلة) المرتاعة التى استعدت للدخول فى قوائم شهداء المسيحية الطويلة ، وإن بكت بين حين وحين وطلبت بين شهقة وأخرى قليلا من الرحمة .

وقادوها وهى تصرخ وتشتم إلى الجسر حيث يصب النهر بشدة فى بركة الانكليزى .

كان يخيم على ليل الوادى جو كثيب قاتم . وبدا الحشد وكأن به مسا ، وبدا كل شئ معدا لقدرة المحتوم ، وصارت (الفلفلة) تصلى فى ذهنها صلاة التوبة .

ولكن (الفلفلة) لم تبت ليلاتها تلك فى قاع النهر بفضل كينو (الاقطع) على الرغم من أنها قالت فى حقه وحق المرحومة ماريوكا إنها أكلا الطيخ قبل الثانية عشرة ، إذ يبدو أن (الاقطع) كان لا يزال فى صدره بقية من حمية وجذوة من مروءة متوهجة . فلقد حال بين الشبان و (الفلفلة) ودافع عنها دفاع الرجال حتى بلغ به الغضب مبلغه فلوح بفضلة يده المقطوعة فى الهواء فبدت مثل سارية علم منكس . أما الفتیان فقد بدا لهما ، وقد هدأت سورة غضبهم أثناء الطريق ، أن يكتفوا بما بشوه فى قلبها من رعب ، وانسحبوا .

وبقيت (الفلفلة) وحيدة ، وجهاً لوجه مع (الأقطع) . ماكانت تدري ماتفعل . كان الوضع صعباً بالنسبة إليها . وأطلقت ضحكة واعدة ثم بدأت تنظر إلى أطراف قدميها . وعاودت الضحك ثم قالت :
- حسنا .

وأخيراً ، ودون أن تعي جيداً ماتفعل ، انحنت وقبّلت بقوة فضلة طرف كينو . ثم انطلقت راكضة خائفة نحو أعلى الطريق العام كالمجنونة .
وفي اليوم التالي اتجهت (الفلفلة) الكبرى إلى كرسى الاعتراف قبل الصلاة :

- السلام عليك يا مريم الطاهرة . أبتاه .
- يامن ولدت دون خطيئة . بنيتى .
- أبتاه إننى أنهم نفسى ... أنهم نفسى بأننى قبلت رجلاً فى ظلمة الليل .

ورسم دون خوسيه علامة الصليب على صدره وريع عينيه إلى سقف كرسى الاعتراف مستسلماً :
- تعاليت أيها الرب . - غمغم وأحس بألم شديد لحال تلك البلدة .

الفصل السابع عشر

إن غفر دانييل (البوم) للفلقلة كل شئ فإنه لن يغفر لها حادثة فرقة الإنشاد ، لن يغفر لها تلك الطريقة القاسية التى فضح بها أمام أنظار جميع أهل البلدة بعد أن اقتنعت بافتقاره للوضوح فى جنسه . إنه لن يغفر لها ذلك وإن عاش ألف سنة .

كانت تلك الحادثة وصمة عار ، بل كانت أكبر إهانة يمكن أن تلحق برجل . وكان لابد له ، بإزاء تلك التهمة المعيبة ، من إجراءات مضادة للبرهنة على رجولته التى لاجدال حولها .

كان مع أولاد المدرسة ويناتها فى الكنيسة ينتظرون ، وكان ترينو السادن ساعة وصولهم يتزعج من الأرغن نواته الحادة المتأهية . ووقفت كذلك (الفلقلة) المقرقة وهى تحمل عصا ، ثم مالبت أن اتخذت هيئة المديرية المشرفة . فصفت التلامذة لدى دخولهم حسب الطول ثم رفعت العصا فوق رأسها وقالت :

- هيا . أريد أن أتمرن معكم على نشيد «الراعية الإلهية» كى ننشده فى يوم العذراء . فلتتدرب .

وأشارت إلى ترينو ثم خفضت العصا ، وغنى الأولاد والبنات كل على هواه :

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

وعندما بدأت الأصوات الاثنان والأربعون بالإنشاد أبدت (الفلفلة)
الكبرى إيماءة يأس مضحكة وقالت :

- كفى ... كفى . ليس هكذا . ليس «را» بل «راااا» وأنشدت :

آيتها الرااااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

وراء آثارك .

هيا .

وضربت على غطاء الأرض بالعصا ليتبه إليها الجميع ثانية . واهتزت
جدران المعبد للنبرات الطفولية الحادة . ولكن (الفلفلة) أبدت من جديد
استياءها وخاطبت (البعور) مشيرة إليه بالعصا :

- روكى . بإمكانك الانصراف . لا أحثاجك . ولكن ، متى تغير
صوتك ؟

ونخفض (البعور) رأسه :

- وما أدراى أنا . يقول أبى إننى كنت أناغى بصوت رجل منذ
ولادتى .

ومع أن (البعور) قال ذلك وهو مطأطئ الرأس ، إلا أنه قال ما قال
متبجحا ، فالرجل الحقيقى عنده هو من تحدثت رجولته منذ ولادته .

وقابل المتفوقون فى الدراسة رده بضحكات متعالية ، بينما نظرت البنات إليه بإعجاب كبير . واستغنت السيدة لولا ، بعد تمرين آخر ، عن ولدین آخرين كانا ينشزان ، وبعد ساعة من الوقت أبعد من الفرقة جيرمان (الأقرع) لأنه صوته كان يمر فى مرحلة تحول وانتقال ، ولأن (الفلفة) كانت تريد تشكيل فرقة من أصوات حادة وحسب . وفكر دانييل (البوم) فى مكانه بين أعضاء الفرقة وتمنى مخلصا أن يبعد هو الآخر عنها . إنه لا يريد أن يكون له صوت حاد رفيع كصوت النساء أو كصوت الأطفال . ولكن تمارين اليوم الأول انتهت دون أن تقرر (الفلفة) الاستغناء عنه . وعادوا فى اليوم الثانى ولكنها لم تستغن عنه كذلك . كان الوضع يزداد سوءا لأن البقاء فى الفرقة كل هذا الوقت يشكل وصمة عار ، إنه ضرب من التشكيك برجولة المرء ، ولأن دانييل (البوم) يحسب للرجولة حسابها ، فإنه لا يستطيع تجاهل ذلك الانتقاء . ولكنه بقى عضوا فى الفرقة على الرغم من أمنياته وعلى الرغم من أن الفرقة خلّت إلا منه ومن خمسة ذكور سواء . وتلك كانت الكارثة . وقالت (الفلفة) الكبرى فى اليوم الرابع وعلامات الرضى بادية عليها :

- لقد تمت عملية الاختيار . وبقيتم أنتم أصحاب الأصوات الصافية : خمس عشرة بنتا وستة أولاد . وأرجو - وتوجهت بالكلام للذكور الستة - ألا يغير أى منكم صوته من الآن حتى يوم العذراء .

وابتسم الأولاد والبنات فخورين بامتلاك «أصوات صافية» ، إلا دانييل (البوم) الذى لم يفلح فى إخفاء خيبة أمله ، ولكن (الفلفة) ضربت فى تلك اللحظة على غطاء الأرغن لتنبيه ترينو السادن بينما راحت الأصوات الصافية الإحدى والعشرون تشيع فى المكان صلوات العذراء :

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

وراء آثارك .

كان دانييل يعرف ماذا سيقع ذلك المساء عند الخروج من الكنيسة . كان الأولاد المبعدون من الفرقة ، يرأسهم روكي (البعور) ، ينتظرون في الباحة ، وما إن شاهدوا الأصوات الصافية الستة يخرجون حتى تحلقوا حولهم وراحوا يصرخون مرددين ساخطين :

- يابنات ، يامختون . يابنات ، يامختون ...

ولم يجد نفعا تدخل (الفلفلة) ولا جهود ترينو المتواضعة وهو السادن المعجور ، كما لم تنفع في شيء نظرات دانييل المتوسلة إلى صديقه (البعور) لقد نسي هذا حتى أبسط قواعد الصداقة ، فقد كان يفور في أعماقه وأعماق مجموعته الباغية غيظ متفجر سببه إبعادهم من الفرقة التي ستتشد في يوم العذراء . ولكن لا أهمية لذلك في الوقت الحاضر ، ما يهم إنقاذه الآن هي رجولة دانييل (البوم) التي بدت موضع شك . وخطرت له ، وهو يهم بالنوم فكرة : لماذا لا يغير صوته وهو ينشد «الراعية الإلهية» وهكذا ستبعده (الفلفلة) كما فعلت مع (البعور) و (الأقارع) ؟ . والحق أن أكثر ما كان يؤله هو استبعاد هذا الأخير . ف (البعور) متقدم عليه دائما . أما (الأقارع) فالأمر مختلف . وكيف له أن يحافظ على مرتبته ومقامه إزاء فتى يمتلك صوتا أقوى من صوته ؟ لابد من تغيير صوته للخروج من الفرقة قبل حلول عيد العذراء .

مع بداية التمارين فى اليوم التالى ، تنحنح دانييل (البوم) باحثا عن
نغمة مفتعلة فى صوته وضربت (الفلفلة) على الأرغن بطرف العصا وبدأ
النشيد :

أيتها الرابعية الإلهية

أريد أن أتبعك

ورا ...

ولكنها توقفت فجأة . قطبت أنفها الطويل فكان رائحة كريهة ضايقته .
ثم قطبت جبينها فكانها اكتشفت شيئا ما لا يتفق مع ما كانت تأمله ، شيئا
تعجز عن تحديد مصدره . ولكنها عند التمرين الثانى صويت العصا
نحو (البوم) وقالت محتدة :

- عجا لك دانييل . لاتنفخ صوتك وإلا لطمتك .

لقد افترض أمره . واحمر وجهه لمجرد التفكير أن الآخرين قد يظنون
أنه يحاول أن يكون رجلا بالغش والخداع . إنه غير محتاج أن يتظاهر
بذلك لإثبات رجولته ، وهو ماسيرهن عليه فى أقرب مناسبة .

وأحاط بهم فريق الأصوات غير الصافية من جديد عند خروجهم
ورددوا مع روكى (البعور) :

- يابنات ، يامختون ... يابنات ، يامختون .

كان دانييل (البوم) يحس برغبة فى البكاء ، ولكنه كظم رغبته تلك
مقدرا أن رجولته المترنحة ستتهار إذا ما بكى أمام فريق الناقمين من أصحاب
«الأصوات غير الصافية» .

وجاء يوم العذراء . وفكر (البوم) لدى استيقاظه ذلك الصباح أن امتلاك صوت رفيع فى سن العاشرة ليس بالأمر الباعث على اليأس . وأن أمامه وقتا طويلا لتغييره ، وعليه فلا حق له فى أن يشعر بالحزن وخيبة الأمل .

كانت الشمس تتسلل إلى غرفته عبر النافذة ، بينما بدت قمة الجبل (راندو) أكثر ارتفاعا وأشد جلالا ومهابة . وكانت تصل إلى مسامعه فرقة الألعب النارية وأنغام الموسيقى الصاخبة المنشرة نزولا من العقبة . بينما كانت تسمع من بعيد دقات الناقوس يضربه دون انطونينو (الماركيز) وهو يدعو للصلاة الكبرى . لقد وضع (البوم) عند نهاية السرير بدلته الجديدة مكنية وقميصا أبيض غسل بعناية مازالت رائحة النيل والصابون تنبعث منه . كلا ، فليست الحياة حزينة . إنه يستطيع الآن ، وقد أسند مرفقيه إلى النافذة ، أن يلمس ذلك . إنه لا يشعر بالحزن وأن توجب عليه بعد ساعة أن ينشد «الراعية الألهية» مع مجموعة «الأصوات الصافية» إنه لا يشعر بالحزن وإن دعاهم أصحاب «الأصوات غير الصافية» عند الخروج بالبناات والمخشين .

ثمة غبار مذهب نباتى غزير يلف أرجاء الوادى العريضة المترامية ، ويشيع فى أجوائه رائحة الحقول الندية وإن أنذر سكون الهواء ييوم قافظ شديد الحرارة . كان هناك شحرور يقف على شجرة التفاع القريبة من النافذة ، يزقزق ويطير من غصن إلى آخر . الفرقة الموسيقية الصاخبة تمر الآن فى الطريق العام متجهة صوب النهر وحانة كينو (الاقطع) تتبعها مجموعة من الصبية وهم يصرخون ويؤدون حركات بهلوانية فى الهواء . واستر دانييل (البوم) مصطنعا الانشغال لأن جميع أولئك الصبيان تقريبا هم من مجموعة «الأصوات غير الصافية» .

واستعد (البوم) فى الحال للذهاب إلى القديس . كانت الشموع تتلألأ من على المذبح . وكانت النسوة يرتدين الملابس الملونة المزركشة . وصعد دانييل (البوم) إلى حيث كانت الفرقة . ونظر من مكانه متفحصا إلى عيني العذراء . كان دون خوسيه يقول إن العذراء تنظر أحيانا إلى الأطفال الطيبين . وبدا لدانييل ، ربما بسبب اهتزاز الضوء المتبعث من الشموع ، أن عيني العذراء تتجهان فى ذلك الصباح نحوه وتنظران إليه وأن فمها يبتسم . وأحس برجفة تسرى فى بدنه فخاطب العذراء دون أن يحرك شفثيه قائلا إنه يهديها نشيد «الراعية الإلهية» لتحفظه من استهزاء ذوى الأصوات غير الصافية» به وتندبرهم عليه .

وصعد دون خوسيه ، وهو القديس الكبير ، إلى المنبر بعد الانتهاء من تلاوة الإنجيل وبدأ موعظته . وسمعت نحنحة مطولة من بين مقاعد الرجال وراح دانييل (البوم) ، دون إرادة منه ، يعد المرات التى ينطق فيها القس بعبارة «فى الواقع» وإن لم يكن هو من يراهنون على عددها . ولكن الراهب راح يتحدث فى ذلك الصباح عن أشياء جميلة جدا حتى أن (البوم) غفل عن الحساب وأضاع العد :

- أبنائى . لكل منا ، فى الواقع ، طريق محدد فى الحياة ، فعلينا أن نواصل هذا الطريق دائما وألا نعيد عنه . وقد يظن بعضكم أن ذلك يسير ، وماهو فى الواقع ييسير . فقد يكون الطريق الذى رسمه لنا الرب وعرا وصعبا ، وهذا فى الواقع لايعنى أنه ليس طريقنا . قال الرب : «خذوا الصليب واتبعونى» . «انى أستطيع أن أؤكد لكم شيئا - وأضاف - . إن طريق الرب لايمثل فى اختباء الفتية والفتيات تحت جنح الظلام ، ولاهو فى الواقع موجود فى الحانة حيث يذهب البعض أيام السبت والأحد

للبحث عنه ، ولاهو فى حفر البطاطس أو حصاد الذرة أيام الأعياد ؛ لأن الله ذاته خلق العالم فى ستة أيام ثم استراح ، وهو الله ، فى اليوم السابع . ولأنه الله فإنه ، فى الواقع ، لم يتعب ، ولكنه استراح ، استراح ليعلمنا ، نحن بنى البشر ، أن يوم الأحد هو يوم الراحة .

لاشك أن دون خوسيه كان يتكلم ذلك اليوم بإلهام من العذراء ، فهو يتحدث برقة ونعومة ودونما توتر . وواصل كلامه متحدثا عن طريق كل إنسان ، ثم تطرق إلى الشقاء الذى يورده أحيانا الابتعاد عن الطريق الذى حدده الرب لطموح أو لشهوة أو لغيرها من الأسباب . وقال أشياء وأشياء عويصة وغامضة لم يفهمها دانييل ، أشياء من قبيل أن المتسول ، وهو الذى لا يضمن قوت يومه ، قد يكون أسعد من الغنى الذى يسكن قصرا منيفا يملأه المرمر والحددم : «قد يفقد البعض - قال - نصيبهم من السعادة الذى خصصه لهم الله . قد يفقدونه وهم يبحثون ، لطمع فى نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة لا توجد ، فى الواقع ، فى الأعلى ولا فى الأكبر ولا فى الأرفع ولا فى الأشهر ، بل فى اتفاق خطواتنا مع الطريق الذى حدده الرب لنا على الأرض ، وإن كان ذلك الطريق متواضعا .

وأتى دون خوسيه كلامه وواصل دانييل (البوم) متابعة قوامه الصغير بعينه حتى المذبح . كان يريد أن يملأ عينيه منه ومن حضوره المادى ، فقد كان متأكدا من أن الراهب سيحتل فى مستقبل غير بعيد محرابا فى الأبرشية ، ولكنه لن يكون وقتها هو نفسه بلحمه ودمه ، بل صورة محفورة فى الخشب أو تمثالا معمولا من الجبس سى الطلاء .

وفوجئ (البوم) تقريبا بضجيج أرغن ترينو السادن . كانت (الفلفلة) أمامهم تحمل العصا . وتنحنحت «الأصوات الصافية» للحظة . وضربت

(الفلفة) على الارغن بالعصا . وبدأ ترينو يعزف مقدمة «الراعية الإلهية» .
ثم ارتفعت الأصوات الصافية منعمة دقيقة موجهة بعصا (الفلفة) :

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

وراء آثارك .

* * *

قطيعك البائس

يناشدك متوجعا

استمعى ، أيتها السيدة

الى ندائه الدافئ

* * *

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

وراء آثارك

* * *

وبعد انتهاء القداس هنأتهم (الفلقلة) وأهدت كل واحد منهم مصاصة من الحلوى . أما دانييل (البوم) فقد أخفاها في جيبه وكأنه يخفى مايخجل ويعيب .

وفي الباحة صاح به اثنان من جماعة الخصوم «يا بنت ، يامخنث» لكنه لم يلتفت إليهما ، فقد كان ، من دون (البعرور) يحمى له ظهره ، يشعر ، كالأعزل ، بالضعف . وعند البوابة كان الناس يتحدثون عن خطبة دون خوسيه . ولاحظ دانييل (البوم) ميكا تقف جنباً على جهة اليسار . ابتسمت له وقالت :

- لقد أحسستم الإنشاد . ثم قبلته في جبهته .

ووقفت سنوات عمر (البوم) العشر متلهفة . ولكن ذلك لم يدم طويلاً . صحيح إنها قبلته ولكنها الآن تعاود الابتسام ، الابتسام لغيره . فقد اقترب منها شاب نحيف يرتدى ثياب الحداد ، وأمسك كل منهما بيد الآخر وتبادلا نظرات لم ترق للبوم .

سألته هي :

- مارأيك ؟

فأجاب هو :

- جميل جداً . كان كل شيء رائعا .

وابتعد (البوم) عنهما وقد لارمته غصة لشعور غريب لا يدرك كنهه ، ورأى أن كل واحد من الحضور راح ينبه صاحبه بضربة من كوعه أو بحركة خفيفة ثم ينظر من طرف لآخر خلسة قاتلاً بصوت واطى : «انظر .

إنه خطيب ميكا ، «هاهو خطيب ميكا» ، «أنه شاب وسيم» ، «ليس خطيب ميكا سئ المظهر» . ولم يرفع أحد بصره عن الشاب النحيف الذى يرتدى ثياب الحداد والذى يأخذ بيدى ميكا بين يديه .

وعندها أدرك دانييل (البوم) أن لديه فى يومه ذاك أسبابا كثيرة للإحساس بالحزن وإن سطعت الشمس فى السماء الصافية أو شدت البلابل فى الأحراج أو شقت أجراس البقر صدر القضاة برنينها السوداء أو نظرت إليه العذراء وتبسمت . كان ثمة أسباب للشعور بالحزن واليأس والرغبة فى الموت . كان يشعر بأن شيئا فى داخله يقتلع اقتلاعا .

ونزل عصرا إلى المهرجان ويرفقه صاحبه (البعور) و (الأقرع) . كان لا يزال حزينا ومغموما وفى حاجة إلى الترويح عن نفسه . كانت رائحة المعجنات المقلية وأكادس اللحم البشرى تخيم على جو الاحتفال المشحون برائحة فرح حيوى مزدحم . وارتفعت فى وسط المكان عصا الكوكانيا . إنها أطول من عصا الأعوام الماضية بعشرة أمتار . توقفوا أمامها لمشاهدة صبيين وهما يحاولان عبثا صعود الأمتار الأولى من العصا . ووقف هناك ثمل وهو يشير بأصبعه إلى نهاية عصا الكوكانيا ويقول :

- هنالك خمسة دورات . فمن استطاع الصعود إليها وإنزالها فليدعونى إلى كأس على حسابه .

ثم أطلق قهقهة سرت عدواها إلى الآخرين . ونظر دانييل (البوم) إلى صاحبيه وقال :

- أنا سأصعد .

فقال له روكى مستهزئا :

- أنت لست رجلا .

أما جبرمان (الأقرع) فقد أبدى حذرا غريبا :

- لا . لا تصعد . فقد تقتل نفسك .

ولكن يأس (البوم) وحرصه على منافسة الشاب المسود وأولاد مجموعة «الأصوات غير الصافية» دفعه دفعا قففز على العصا وصعد الأمتار الأولى دون جهد كبير . كان يحتدم فى رأسه شئ شبيه بالنار الملتهبة ، مزيج غريب من الكرامة المجروحة والغرور المسترد واليأس . «ها - كان يقول لنفسه - لن يقدر أحد على فعل ما تفعله» . وواصل الصعود ولكن ساقيه بدأت تنغزان . «سأصعد لأن السقوط لا يهمنى ، سأصعد لأن السقوط لا يهمنى ، كان يردد مع نفسه . وعندما وصل إلى منتصف المسافة نظر إلى أسفل فرأى أن كل الناس يراقبون حركاته ، وأحس بدوار فتشبث بالعصا وواصل التسلق . وبدأت عضلاته تفقد قوتها ولكنه واصل الصعود . وصار فى عيون الواقفين أسفله بحجم صرصور صغير . وراحت العصا تتمايل كشجرة تهزها الرياح ، لكنه لم يشعر بالخوف . كان يريد أن يكون قريبا من السماء ، أن يخاطب قمة جبل (راندو) ندأ لند .

ودب الخور فى ذراعيه وساقيه ، وسمع صرخات عند قدميه فعاود النظر إلى أسفله :

- دانييل ، ولدى .

إنها أمه تتوسل إليه . لقد وقفت إلى جنبها ميكا متألة و (البحرور) ضيلا و (الأقرع) وقد أوشك أن يسترد منه مرتبته السلبية ومجموعة «الأصوات غير الصافية» و (الفلفة) الكبرى ودون خوسيه القس وباكو الحداد ودون انطونيو (الماركيز) . إنه يشاهد كذلك أسطح البلدة المستوية وهى تعرض وجهها المعتم لاشعة الشمس . كان يشعر كالسكران ، تدفعه رغبة غير محدودة إلى التفوق والغلبة .

وواصل صعوده غير مبال بالدعوات القادمة من تحته . إن العصا فى هذا المكان أدق لذلك فهى تتمايل تحت وطأة ثقله وكأنها ثمل . واحتضن دانييل العصا كالمجنون بعد أن أحس بأنها سترمى به صوب الجبال مثل قذيفة منجنيق . وصعد أعلى . إنه يوشك على الوصول إلى الدورورات الخمسة المقدمة من «خيال الأمريكى» ولكن فعليه راحا يوخزانه ويتشقان وماعاد فى ذراعيه شىء من القوة . «انظر لقد جاء خطيب ميكاً» ، «انظر لقد جاء خطيب ميكاً» - ردد فى نفسه مغتاظا . وصعد سبتيمات قليلة أخرى ، وما أقل مابقى أمامه . وكان يخيم تحته سكون متوتر . «يابنت ، يامخنث» ، «يابنت ، يامخنث» تتمم وصعد . هاهو الآن فى القمة . العصا تتمايل بقوة . كان يخشى أن يطلق يده للإمساك بالجائزة ، فقرب فمه وعض على الظرف بشدة . لم ينطلق من تحت تصفيق ولا صياح ، فقد خيم على الناس نذير بوقوع كارثة . وبدأ دانييل (البوم) بالتزول ، وشعر فى منتصف العصا بالإرهاك فخفض من ضغط أطرافه لينساب مسرعا على العصا المطلية بالشمع . كان يحس بساقيه تحترقان ويدمه يتدفق من فعليه المسلوختين .

ووجد نفسه فجأة على الأرض محفوقا بهتافات مدوية وضربات تجرح ظهره وطبطنات على خده وقبيلات تطبعها أمه ودموع ، وجد كل ذلك مخلوطا . واقترب منه الشاب المسود أخذا بيد ميكاً ليقول له مبتسما : «أحسن يافتى» أما مجموعة «الأصوات غير الصافية» فقد ابتعدوا مطاطى الرؤوس . أما أبوه فراح يؤنبه بسيل من الكلمات الغريبة التى لم يفهم لها معنى . وأخيرا شاهد أوكا-أوكا تجرى نحوه وتحيط بساقيه ثم تنفجر فى سيل من الدموع المتدفقة .

وغير دانييل (البوم) من جديد ، وهو فى بيته ، رآيه فى ذلك النهار ،
وأقر أنه ماكان محققا فى شعوره بالحزن والكدر ، فعلى الرغم من كل شيء
فإن النهار كان مشرقا والوادی رائعا ، ثم إن خطيب ميكا قال له مبتسما .
«أحسنّت يا فتى» .

الفصل الثامن عشر

كشأن كثيرات من النسوة فقد زهدت (الفلفلة) الكبرى فى الحب لما لم تجد من يدعوها الى أن تحب وأن تُحَبَّ . وتضحك (الفلفلة) أحياناً لأن الحب الوحيد فى حياتها كان بالذات وليد غيرها على الاخلاق . فلولا حرصها على الطواف فى الجبال أمسيات الأحد لما أثارت حفيظة فتیان البلدة . ولولا أنها أثارت حفيظتهم لما منحت كينو (الأقطع) فرصة الدفاع عنها . ولولا تلك الفرصة لما تحرَّك قلبها الياس والمحشور بين الضلوع . كان حبها الأول سلسلة من المصادفات التى لو فكَّرت بها لأحست بالضيق وبالخجل . فما أكثر طرق الحب .

ولم يشع خبر العلاقة الغرامية بين (الفلفلة) الكبرى وكينو (الأقطع) فى البلدة إلا بعد حين . ثم إنها نمت بطيئة متوترة . لقد كانت خطوة متأخرة جداً ، وإن كان (الأقطع) قد فكَّر من قبل فى (الفلفلة) . فكَّر بها من قبل حادثة فتیان البلدة ، فليست (الفلفلة) صغيرة ولا هو كذلك . ثم إنها ، من ناحية أخرى ، كانت نحيفة ناشفة ، وتمتلك مصلحة مزدهرة وعقلية تجارية واضحة ، وهو بالضبط ما ينقصه بعد أن أغرقته الديون مؤخراً ولم يبق له من ملكية خاصة قدر حشيشة فى البستان . ولأن (الفلفلة) كانت نحيفة معصورة الساقين ، على ما يبدو بالطبع إذا لم يتسنَّ له ولا غيره أن يعاين ساقها ، فقد كانت السيدة لولا تمثل عنده حلاً مناسباً من جميع الجوانب .

لم يكن قصد كينو إذ منع الفتیان عن (الفلفلة) قصداً نفعياً بالطبع ، إنما فعل ذلك لأنه رجل شهم ومحترم ويكره العنف وخاصة مع النساء ،

أما أن تشابك الأمور فتنظر (الفلقة) إليه بطريقة أو بأخرى ، وتطبع قبله حارة على فضلة يده فيشعر هو عندها بديسب على امتداد ذراعه يحرك عواطفه ، فتلك حلقات سلسلة واحدة وحوادث لازمة لصنع نهاية مكتوبة ومقدرة ، إنها أقدار الرب .

لقد بينت تلك القبله التي طبعت على لحم فضلة الذراع المبتورة لكيو (الأقطع) كذلك أنه ما يزال يحتفظ في جسمه بنبض الرجوله وعنفوانها وبأنه لم يحد بعد في رجولته وأنه ما زال يحسب له كل حساب ، وراح يفكر في كل ما يمكن تنفيذه ، وهكذا ولدت في رأسه فكرة إدخال وردة من تحت باب دكان (الفلقة) فجر كل يوم والبلدة في سبات .

كان (الأقطع) يدرك أن عليه أن يتصرف بحذر ، فالبلدة تبغض (الفلقة) لتطرفها في أمور الدين ولأن أختها كانت قطعاً متربصاً . فكان عليه إذا أن يتصرف بتكتم وحذر وحكمة .

كان يغير الوردة كل يوم ، وان كانت الوردة كبيرة ، اكتفى بإدخال واحدة من وريقاتها . كان (الأقطع) يدرك أن الوردة البريئة لاتصمد أمام الريح ، فإن كانت مقصودة فإن لها من قوة الإقناع ما يفوق قوة سبيكة من الذهب . كان يدرك كذلك أن كثرة الطرق تقل الحديد .

وبعد شهر بدأ سيل العواطف هذا يصب كله ، بالطبع ، في دون خوسيه القس . قالت (الفلقة) :

- دون خوسيه . هل من الخطيئة أن تتمنى امرأة إغماءة بين ذراعى

رجل ؟

- هذا يعتمد على النية - قال الراهب .

- لانية غير الإغماءة ، دون خوسيه .

- إعماءة فى هذه السن ياابتنى ؟
- ماذا تقصد ، حضرة القس ؟ وهل يدرى أحد متى تحين الساعة ؟
إنها حال الحب وحال الموت ، يجيثان على حين غرة ، وإذا كانت الإعماءة
بين ذراعى رجل خطيئة فأنى أعيش متمادية فيها ، دون خوسيه . إننى
أقولها لك وليس لما بى من علاج . إننى لا أستطيع أن أتمنى شيئاً آخر وإن
قلت لى إنها أعظم خطايا العالم . إن لهذه الرغبة قوة تفوق قوتى .
ويكت .

وراح دون خوسيه يحرك رأسه من صوب لآخر كرقاص الساعة :
- إنه كينو ، أليس كذلك ؟
- بلى ، إنه هو ، دون خوسيه .
- إنه رجل طيب ياابتنى ، ولكنه معدم فقير .
- لا يهم ، دون خوسيه ، فلكل شىء حل .
- وماذا تقول أنتك ؟
- إنها لا تعرف شيئاً بعد ، ولكنها لا تجرؤ على محاسبتى ، ولكن
تكسب شيئاً إن هى حاولت نصحى . وأخيراً علمت إيرينه ، (الفلفلة)
الصغرى ، بالأمر :

- أكاد لا أصدق ، لولا . هل جنتت ؟
- لماذا تقولين لى ذلك ؟
- ألا تعرفين ؟
- لا . لاتنكرى أننا فى البيت فى حاجة إلى رجل .
- وعندما حدث لى ما حدث مع ديماس ، أما كنا فى حاجة إلى
رجل فى البيت ؟

- الأمر مختلف أختاه .
- الفرق الوحيد هو أن المجنونة هذه المرة هي أنت .
- ولكن كينو رجل ذو حياء .
- وكذلك بدا ديماس .
- ديماس كان طامعاً فى مالك ، وقد بقى معك ما دامت آلافك الخمسة . أنت قلت ذلك .
- وهل تظنين أن كينو يريدك لشخصك ؟
- ونطقت (الفلقة) الكبرى وقد أحست بالإهانة :
- وما هي أسبابك للشك فى ذلك ؟
- وتراجعت الأخت الصغيرة :
- لا أسباب ظاهرة بالطبع .
- ثم إننى لن أحتاج الى الاختباء كما فعلت أنت . بل سأخضع عاطفتى لشريعة الرب .
- ولعل عينا (الفلقة) الصغرى :
- لا تتكلمى عن ذلك . أتوسل إليك بروح والدينا المباركين .
- لم يتضح حينها شئ عن الخطوبة فى البلدة لذلك توجب على كينو و (الفلقة) أن يطوفا شوارعها ذات عصر أحد متلازمين لكى يعلم الناس بالخبر . وعلى العكس مما قدر كينو (الأقطع) فلا ورود الجيرانيو ذبلت فى شرفاتها ولا الأبقار ارتعشت فى حظائرها ولا الأرض انخسفت ولا الجبال تصدعت عندما شاع الأمر ، وإنما حدثت ابتسامات لاذعة وتلميحات متندرة وحسب ، وهو ما لم يكن ينتظر أقل منه .

وبعد أسبوعين ذهبت (الفلفلة) الكبرى لزيارة دون خوسيه ثانية :

- حضرة القس . هل من الخطيئة أن تمنى امرأة أن يقبلها رجل من
فمها وأن يضمها بقوة بين ذراعيه ؟

- نعم . إنها خطيئة .

- ولكنى لا أستطيع على ذلك صبراً ، دون خوسيه ، اننى أخطئ
كل دقيقة من حياتى .

- عليكما أن تعجلا بالزواج - قال القس دون أن يضيف شيئاً آخر .

وعلا صراخ ايرينه عندما علمت بقرار دون خوسيه :

- أنت تكبرينه بعشرة أعوام ، لولا . لقد بلغت الخمسين ، فاعقلنى
وتفكرى . عودى بحق السماء إلى رشدك قبل فوات الأوان .

ولكن (الفلفلة) الكبرى كانت قد اكتشفت لتوها جمال الشمس
الرابضة وراء الجبال ، وحلاوة صبرير العربات المحملة بالعشب وروعة تخليق
الحدآن وهى تطير باتزان وتناسق تحت سماء أغسطس الصافية بل لقد
اكتشفت جمال الحياة ، الحياة وحسب ، فأنى لها وقد اكتشفتها أن تتخلى
عنها .

- لقد قررت ، أختاه . وأمامك الباب مفتوح إن شئت الرحيل .

وانفجرت (الفلفلة) الصغرى بالبكاء وأصيبت بنوبة عصبية ثم رقدت
محمومة . وظلت على تلك الحال أسبوعاً كاملاً ، ولما حلّ يوم الأحد
رالت الحصى . ودخلت (الفلفلة) الكبرى حجرة أختها على رؤوس
أصابعها وسحبت الستائر مبتهجة :

- هيا انهضى ، أختاه . فالיום سيقراً دون خوسيه إعلان زواجى
الاول ، ويجب أن يكون هذا اليوم عندي وعندك يوماً مشهوداً .

ونهضت ايرينه دون أن تنفوه بشيء. ارتدت ملابسها وذهبت مع أختها لسماع الإعلان الأول عن الزواج ، وعند العودة الى البيت قالت لولا لأختها :

- افرحي أختاه ، فستكونين عرابتي يوم عرسى .
وكانت ايرينه ، فعلاً ، عرابة أختها فى العرس ، ولكن دون أن تنفوه بكلمة واحدة ، وبعد أشهر من الزواج أمرت (الفلقة) الكبرى ، وقد راعها إذعان أختها وصمتها ، باستدعاء دون ريكاردو الطبيب :
- الفتاة مصابة بصدمة قوية . إنها لا تعقل . على أية حال فليس الأمر خطراً ، ومرضها لا يوحى بأية حالة عنف - قال الطبيب وانصرف بعد أن وصف لها حقناً . وراحت (الفلقة) الكبرى تبكى بغصّة .
على أن ذلك كله لم يفاجئ دانييل (البوم) الذى صار يدرك أن الحياة مليئة بالحوادث التى تبدو ، قبل وقوعها ، غير ممكنة ثم تبدو ، وقد وقعت ، أن لاشئ فيها غريب ولا مفاجئ ، بل إنها طبيعية كشروق الشمس كل صباح وكالمطر وكالليل وكالرياح ، وتابع (البوم) مسيرة العلاقة بين (الفلقة) و (الأقطع) عن طريق أوكا - أوكا . ومن الغريب أن (البوم) ، حالما علم بتلك العلاقة ، بدأ يحس أن نفوره القديم من الصغيرة زال تماماً وأن شعوراً غامضاً بالشفقة عليها بدأ يحل محله . صادفها ذات يوم تنقّب بين الأحراج على شاطئ النهر :
- ساعدنى ، بوم ، لقد اختبأ هنا زرور لايقوى على الطيران .
واجتهد هو فى العثور على الزرور ، وتمكن أخيراً من العثور عليه ، ولكن الطائر الصغير جاهد للتخلص فسقط فى النهر وغرق فى الحال ، وعندما جلست ماريوكا - أوكا على حافة النهر وغمرت قدميها فى مائه وجلس (البوم) الى جانبها حزنين لموت الطائر ، لكن الحزن لم يلبث أن تبرد :

- هل صحيح أن أباك سيتزوج (الفللفة) ؟ قال (اليوم) .
 - هذا ما يقولونه .
 - من يقول هذا ؟
 - هم .
 - وماذا تقولين أنت ؟
 - لا أقول شيئاً .
- كان دانييل يشعر بمحنة الصغيرة المكبوتة ويفهم صمتها المطبق الشجاع . وسألته الطفلة فجأة :
- هل صحيح أنك ستذهبن الى المدينة ؟
 - نعم ، بعد ثلاثة أشهر ، فقد بلغت الحادية عشرة وأبى يريد لى أن أتقدم .
 - وأنت ماذا تقولين ؟
 - لا أقول شيئاً .
- وأدرك (اليوم) ، بعد انتهائه من الكلام ، أنهما تبادلا الأدوار ، إنه هو ، هذه المرة ، من لا يقول شيئاً . ووجد أن بينه وبين أوكا - أوكا نقطة مشتركة ذات شبه غريب ، فكل منهما مضطر الى القبول بما يلائم أباه دون أن يطلب اليه رأى فى ذلك . ولاحظ كذلك أنه لا يتضابق وهو يحدث الطفلة ، بل انه كان مرتاحاً وهو يتحدث عن أشياء وأشياء وأن ميكا لا يخطر على باله فى شيء ، خصوصاً أن فكرة السفر الى المدينة تترأى له من جديد صعبة لا تطاق ، ولاشك أن ميكا ستكون عندما يعود هو من المدينة فقد فقدت نعومة بشرتها بل وأنجبت ذريرة من الأولاد .

وصار (اليوم) يلتقى بالصغيرة مرات أكثر ، وما عاد يعرض عنها عابساً كما كان يفعل من قبل .

- متى العرس ، أوكا - أوكا ؟

- فى يوليو .

- وماذا تقولين ؟

- لا أقول شيئاً .

- وهى ماذا تقول ؟

- تقول إنها عندما ستصبح أمى ستأخذنى الى المدينة ليزيلوا النمش

عن وجهى .

- وأنت ، هل تريدين ذلك ؟

وارتبتك الطفلة وخفضت عينيها :

- بالطبع .

ولم تظهر أوكا - أوكا نهار يوم العرس فى أى مكان . وعند حلول المساء ترك كينو (الاقطع) عروسه وكل شىء قائلاً أن عليه أن يبحث عن الطفلة مهما كلف ذلك ، كان دانييل (اليوم) يتابع مستمتعاً التحضيرات من حوله ويتأمل الرجال وهم يحملون العصى والقناديل والمصابيح اليدوية ويرتدون الأحذية الضخمة المسطرة التي تحدث عند السير بها على الطريق ضجيجاً وصرياً .

ولما رأى دانييل (اليوم) أن الوقت يمضى دون أن يعود الرجال من الجبال بدأ القلق يساوره . كانت أمه تقف الى جانبه وهى تبكى وتردد بلا انقطاع « يا للطفلة المسكينة » ، فيما بدا أنها لم تكن تؤيد أن يكون للطفلة زوجة أب . ومرت فى هذه الاثناء رافائلا (الخنزيرة) ، زوجة كوكو ،

مأمور المحطة ، من أمام معمل الجبن وقالت إن من المحتمل أن يكون ذئباً قد افترس الفتاة فتملكت دانييل (البوم) رغبة فى الصراخ من أعماقها وفكر فى تلك اللحظة بأنهم لو أزالوا النمش من وجه أوكا - أوكا فسيزيلون ظرفها ، هو لا يريد أن يزيلوا النمش من وجهها ولا أن يفترسها الذئب .

وفى الساعة الثانية فجراً عاد الرجال وهو يحملون العصي والقناديل والمصابيح اليدوية وقد بدت أوكا - أوكا فى وسطهم شاحبة الوجه شعناء الشعر ، وخفّ الجميع صوب بيت (الأقطع) لرؤية الفتاة وتقيليلها واحتضانها والاحتفاء بالعثور عليها . ولكن (الفلفلة) سبقت الجميع وتلقّت الطفلة بصفتين على وجهها . وكظم كينو (الأقطع) لسانه أن يطلق منكراً ، ولكنه حلّر (الفلفلة) قائلاً إنه لايقبل أن تضرب طفله . ولكن السيدة لولا ردّت عليه قائلة بأنها « صارت منذ الصباح أمّاً لها ، وأن عليها واجب تربيته » ، فما كان من كينو الا أن جلس على إحدى دكك الحانة وأسند ذراعيه على الطاولة فكأنه يوشك على البكاء أو كأن فاجعة أوشكت على النزول به .

الفصل التاسع عشر

رفع جيرمان (الأقرع) أصبعه وأمال رأسه قليلاً متنتصاً وقال :

- ذاك الطائر الذى يغنى فوق السور هو طائر أبو زريق .

وقال (اليوم) معارضاً :

- كلا . إنه طائر الحسون .

وأوضح له جيرمان أن لأبى زريق خواصاً صوتية تمكّنه من تقليد
رقزقات جميع أنواع الطيور وصفيرها . وأنه يقلد أصواتها ليستدرجها
ويقتربها ، لذلك فهو من الطيور المقيمة لحبشها وريائها .

ولكن (اليوم) أصرّ على رأيه قائلاً :

- بل هو طائر الحسون .

كان دانييل يجد متعة فى المعارضة ذلك الصباح . إنه يشعر باندفاعه
فى المعارضة مع أنها معارضة لاتقوم على أساس ، ولكنه كان يحسّ
ارتياحاً وبيلاً وغامضاً إذ يفعل ذلك .

وتدخل روكى (البعور) فجأة وهو يصرخ :

- انظر . إنه أحمرق الماء .

كان يشير الى مكان يقع على يمين البركة ، مسافة ثلاثة أمتار من
مصب النهر . وكانوا فى البلدة يطلقون هذه التسمية على أفعى الماء دون أن
يعرفوا لهذه التسمية سبباً ، إذ ليس من دأبهم البحث عن الأسباب فى ما
يخص مفردات الوادى ، إنهم يتقبلون التسميات وحسب فيدعون تلك
الأفعى التى تصول على ضفة النهر بضربات متشنجة من ذنبها بأحمرق الماء

ونهض الأولاد الثلاثة وألقوا ببعض الحجارات على الأحق الذى كان يحمل سمكة صغيرة بين فكيه .

وصاح (الأقرع) محذراً :

- لا تدعاه يصعد ، لأنه فى الأماكن المرتفعة يلف جسمه كالطوق ويدور متدحرجاً بسرعة تفوق سرعة الأرنب ، وقد يهاجم .

ونظر (البعور) و (البوم) الى الحيوان مفزوعين . وراح (الأقرع) ينط من صخرة الى صخرة وهو يحمل حجارة كبيرة ويحاول الاقتراب من أحق الماء ، ولكن خطوة غير موفقة أو انزلاقاً على الوحل الذى كان يغطى الصخور أو زلة من ساقه العرجاء أطاحت به فسقط بقوة على الصخور ليرتطم رأسه بها ولينساب من هناك كتلة هامدة حتى البركة . وألقى (البعور) و (البوم) بنفسيهما دون تأخر إلى الماء لإنقاذ صاحبهما ، وأفلحا بعد سباحة يائسة مضنية فى انتشال جسده وإخراجه الى ضفة النهر . كان (الأقرع) مصاباً بجرح عظيم فى عنقه وكان غائبا عن الوعي . أما روكى ودانييل فكانا مصعوقين . وحمل (البعور) الجسد الخامد على كتفه وصعد به الى الطريق العام . وفى بيت كينو وضعت (الفلفلة) كمادات الكحول على رأسه ، وبعد قليل مر من هناك استيبان الحَبَّار فحمله بعربته إلى البلدة .

وانفجرت ريتا (البلهاء) صراخاً وتأوها إذ رأت ولدها على تلك الحال . ومرت لحظات من الارتباك . وبعد خمس دقائق كانت البلدة عن بكرة أبيها تحتشد أمام باب الاسكافى حتى إن دون ريكاردو الطبيب شق طريقه الى البيت بصعوبة لشدة ما كان فى الناس من قلق وجزع ، وعندما خرج الطبيب اتجهت العيون صوبه بانتظار ما سيقول :

- إن حالته خطيرة جداً . لقد كسرت قاعدة الجمجمة . اطلبوا سيارة إسعاف من المدينة .

وصار الوادى فى عينى (اليوم) رمادياً كالحا ، وشحب ضوء النهار واكفهر ، ودوت فى السماء قوة أشد حتى من قوة باكو الحداد قال بالنجو (الملحد) انها قوة القدر وقالت (الفلقة) إنها إرادة الرب ، ولما رأى دانييل أنهما لم يتفقا على رأى تسلل الى حجرة صديقه الجريح . كان جيرمان (الأقرع) شديد البياض وكانت شفتاه منغلقتين على ابتسامة رقيقة ناعمة .

وظل (الأقرع) لثمان ساعات ساحة معركة بين الحياة والموت . ووصلت سيارة الإسعاف من المدينة وكان فيها توماس ، أخو (الأقرع) ، وكان موظفاً فى شركة للحافلات . وما إن دخل هذا الى البيت كالمجنون حتى تلقته أمه وقد خرجت للتو مذعورة من حجرة أخيه المصاب ، معانقة فى ما يشبه تماساً كهربائياً وصارخة فى ما يشبه شرارة صاعقة . - وصلت متأخراً يا ولدى . لقد مات أخوك .

وظفرت الدموع من عينى توماس وشدّف مقتظاً فكأنه يحتج على الرب لوقوفه عاجزاً دون حول ولا قوة ، وراحت النسوة يتحبن ويولولن عند باب الدار ، ثم خرج اندريس الإسكافى من الحجرة وقد مال بجسمه فكأنه يود التطلع الى سيقان أصغر قزمة فى العالم . وشعر دانييل (اليوم) برغبة فى البكاء لكنه لم يجزؤ لأن (البرور) كان يصده صارماً مستبداً دون أن يتحرك له رمش ، واستغرب (اليوم) إذ لاحظ أن الجميع صاروا يحبون (الأقرع) ، حتى أن المرء ليظن ، وهو يسمع البكاء والنحيب ، أن جيرمان هو ابن كل واحدة من نساء البلدة . مع ذلك فقد وجد (اليوم) عزاء فى بادرة التضامن تلك .

وذهب (البعور) و (البوم) الى محل الحداد بينما انشغل الآخرون بتكفين (الأقرع) :

- أبى - قال (البعور) - لقد مات (الأقرع) .
 واضطر باكوا الحداد ، على ضخامة جسمه وقوته ، الى الجلوس بعد أن أذهله سماع الخبر ، ثم قال وكأنه يجاهد ضد شيء يسلبه قواه :
 - الرجال يخلقون ، أما الجبال فقد خلقت من قبل .
 - ماذا تقصد بذلك ابتاه ؟ - سأل (البعور) .
 - أن تشربا - قال الحداد بنبرة من الغضب وهو يتناول ولده رق النبيل .

كانت الجبال تكتسى عتمة محزنة ، وكذلك الحقول وشوارع البلدة وبيوتها والطيور وزقزقاتها .

وأشار باكوا الحداد عليهما أن يطلبأ إكليلاً جنازياً من المدينة تكريماً للصديق الفقيد ، فذهبا الى بيت (الأرنيات) وطلبأ ذلك بالهاتف . كانت كاميلأ تبكى هى الأخرى ، ورفضت أن تأخذ منهما نقودا على الرغم من طول مدة المكالمة ، ولما عاد الصديقان الى بيت (الأقرع) طوقت ريتا (البلهاء) بذراعيها عنق (البوم) طالبة إليه أن يسمح لها باحتضانه وضمه إلى صدرها لأنها تواصل هكذا احتضان ولدها ، فقد كان أقرب أصدقائه إليه ، واشتد حزن دانييل وهو يرى أنه ليس أمامه إلا أربعة أسابيع قبل أن يسافر إلى المدينة ليبدأ تقدمه ، وأن ريتا ، التى لم تكن بلهاء بالقدر الذى يزعمون ، ستبقى صفراً من ولدها (الأقرع) ومنه هو بينما تسعى لإرضاء عاطفتها البائسة الشكلى ، ووبت الإسكافى على كتفى الصديقين وشكر لهما أنهما انتشلا ولده من النهر ولكن الموت كان له بالمرصاد وليس من حيلة أمام الموت إن وقف لأحد بالمرصاد .

وواصلت النسوة البكاء عند الجثمان ، ومن حين لآخر كانت تندفع أحدهن لتقبل الجسد الصغير النحيف البارد بينما يرتفع عويل الآخرين وتزداد دموعهن .

وشدّ توماس منشفة على رأس أخيه كى لاتين قرعته فاشتد حزن (اليوم) لأن صديقه بدا ، على ذلك النحو ، وكأنه طفل موري كافر . وتأمل (اليوم) أن يحدث منظر المنشفة الانطباع ذاته فى دون خوسيه القس فيأمر بنزعها ، ولكن الراهب وصل واحتضن الإسكافى وألقى على (الأقرع) المسحة المقدسة دون أن يتوقف عند المنشفة .

وما أقل ما يلتفت الكبار الى معاناة الصغار الدقيقة القاسية ، بل إن أباه الجبان لم يواسه عندما رآه لأول مرة بعد الحادثة ، بل قال له :

- دانييل . لكى تعلم ما تؤدى اليه أعمال الشيطنة . أرجو أن يكون لك فى هذا درس ، فما حدث لابن الاسكافى كان يمكن أن يحدث لك .

ولم يردّ دانييل بشئ لأنه خمن إن هو تكلم فسيتهى به الأمر إلى البكاء . فأبوه لا يريد أن يعرف أنهم ، عندما وقع الحادث ، لم يكونوا يقومون بأى عمل شيطانى ، وإنما كانوا يحاولون وحسب قتل أحرق الماء ، كما أن الأب لا يلاحظ أنه ، يوم اصطادوا الحداة بالدوق الكبير ، كان يمكن أن يصيب ولده فى صدغه فيقتله بدلاً من إصابته بالكرة الرصاصية فى خده فالكبار ينسبون الفواجع الى طيش الصغار وينسون أن هذه الأشياء هى من مقدرات الله دائماً وإن للكبار كذلك أفعالهم الطائشة أحياناً .

وأضى دانييل (اليوم) ليلته بالقرب من الميت ، كان يشعر أن شيئاً كبيراً يسهر فى داخله وإن لاشئ سيبقى على حاله مستقبلاً ، لقد كان من قبل يفكر أن صاحبيه (البعور) و (الأقرع) سيسهران بالوحدة عندما

يذهب هو الى المدينة للتقدم ، ولكنه الآن يرى أنه هو من سيشعر بالوحدة ، بالوحدة الموحشة ، هو وحده ، لقد ذبل شيء ما فى داخله فجأة ، ربما هو اعتقاده بطفولة دائمة ، وأدرك أن الموت هو غاية كل حى ، شيخاً كبيراً كان أم طفلاً صغيراً .

لم يسبق له قط أن توقف للتفكير فى ذلك ، وهو الآن إذ يفكر فى هذه الأشياء يختفه شعور يؤخره ويبعث الضيق فى صدره . فالحياة هكذا مشرقة ولكنها كذلك محزنة ومدمرة . إنها الموت البطيء ، يوماً بعد يوم ، شيئاً فشيئاً . إنها الموت المحتوم ، فالجميع ، على المدى البعيد ، سيموتون : هو ودون خوسيه وأبوه الجبان وأمه والفلفلات وكيكو والأرنبات الخمس وانطونيو (الحوصلة) وميكا وماريوكا - أوكا والماركيز حتي باكرو الحداد سيموت ، فالكل فان وزائل ولن يبقى أثر منهم على أحجار البلدة بعد مائة عام ، كما لا يبقى الآن أثر عن عاشوا قبل مائة عام . ولكن الانتقال يحدث ببطء ، ودون أن نشعر به . سيختفي الجميع من العالم ، جميع من يعيشون الآن على سطحه ، جميعهم إطلاقاً ولن يلحظ العالم التغيير ، فالموت مقتضب وغامض وفظيع .

وعند حلول الفجر ترك (اليوم) صاحبه الميت وتوجّه الى بيته للأفطار ، لم يكن جائعاً ولكنه ارتأى أن يملاً جوفه تحسباً للمواقف المؤثرة المقبلة . كان يخيم على البلدة فى تلك الساعة هدوء راكد جلى ، فكأن برودة الموت الشديدة طافت فى جميع أرجائها وكّبلتها فالأشجار تبدو متيسية وصياح الديكة جنائزياً فكانها تصبح من خلال كاتم للصوت ، وكأنها لا تهرؤ على تعكير جو الحزن والانقباض المخيم على الوادي أما

الجبـال فـبـدت بـأجـسامـها الضـخـمة مـتـشـحـة بـالسـواد تـحـت السـماء الرـمـادـية ،
وكانت مسحة التعب والاسترخاء المعهودة فى الحقول تبدو واضحة حتى فى
الآبقار التى كانت ترعى فى تلك الحقول .

وما إن تناول دانييل (البوم) فطوره حتى عاد إلى البلدة . وبينما كان
يمرّ من أمام سجاج الصيدلية لمح زرزوراً ينقر كرزرة برية على حافة الطريق
العام ، فاضطربت فى نفسه المشاعر تجاه صديقه الفقيد . وبحث عن
المصيدة فى جيبه ثم وضع حجرة فى شريطها ، وصوّب بدقة نحو الطائر
ثم سحب المطاط بقوة ، وعندما ارتطمت الحجارة بصدر الزرور سمع دوى
عظام تنكسر . وركض دانييل صوب الطائر المجتدل والتقطه بيدين
مرتعتين ثم واصل طريقه والزرزور فى جيبه .

وعندما وصل كان جيرمان (الأقرع) قد أودع التابوت ، وهو
صندوق أبيض مطلى بالورنيش كان الإسكافي قد طلبه من أحد محلات
بيع التواييت فى المدينة ، وكان قد وصل كذلك الإكليل الذى طلبه الأولاد
وقد كتب عليه ما أملاه (البعور) : أصدقاؤك (البوم) و (البعور)
لن ينسوك أبداً يا (أقرع) . وعادت ريتا (البلهاء) احتضانه قائلة له
بصوت منخفض إنه إكليل جميل ، ولكن الأخ توماس ، الموظف فى
شركة الحافلات ، غضب عندما قرأ الإهداء وقصّ الجزء الذى كتب عليه
« يا أقرع » وترك بقية العبارة كما هى :

وبينما كان توماس ينظّم الشريط والآخرون يراقبونه حشر دانييل
(البوم) الزرزور خفية فى التابوت الى جانب جثمان صديقه . لقد فكّر
أن جيرمان الذى يعشق الطيور سي شكر له ، وهو فى عالمه الآخر ، تلك
الالتفاتة . ولما عاد توماس لوضع الإكليل عندما قدم الميت لمح الطائر

مطروحاً جنب أخيه . وقرب عينيه ليتأكد من أن ما يراه كان زرزورا
بحق ، وما إن تيقن من ذلك حتى أحسّ بتيار غامض يسرى في بدنه . لم
يجرؤ على لمسه بل صاح :

- ماذا ؟ ... من ؟ ما هذا ؟

ولم يجرؤ دانييل (اليوم) بعد ما رآه من غضب توماس عقب حادثة
الإكليل على الاعتراف بضلوعه في هذه الحادثة الجديدة . وسرت دهشة
توماس بسرعة بين الحضور عندما اقتربوا لتأمل الطائر ، مع ذلك لم يجرؤ
أحد على لمسه :

- كيف وصل الزرزور الى هنا ؟

وراحت ريتا (البلهاء) تبحث عن تفسير معقول في وجه كل واحد
من جيرانها ، ولكنها كانت تقرأ الدهول نفسه في كل الوجوه :

- أتعرف أنت يا (بوم) ؟

- أنا لا أعرف شيئاً ، لم أر الزرزور الا بعد أن أخبر بذلك توماس .
ودخل في تلك اللحظة اندريس الاسكافي ، وما أن شاهد الطير حتى
رقت عيناه وراح ييكى بصمت :

- لقد كان يحب الطيور كثيراً ، وقد جاءت لثموت معه .

ويكى الآخرون لبكائه . وتلى الدهول الأولى اعتقاد عام بتدخل
سماوى . وكان اندريس ، الرجل الذى لا يرى من جانبيه ، أول من ألح
الى ذلك بصوت مرتعش :

- هذه معجزة :

ولم يكن الحاضرون ينتظرون غير أن يصرح أحدهم بما كان يدور في
خلدهم لينفجروا ، لذلك فما إن سمعوا قول الإسكافي حتى انطلقت
صرخة جماعية مدوية مشوبة بتأوهات ويكاء .

- معجزة .

وخرجت مجموعة من النسوة فزعزعات يركضن بحثاً عن دون خوسيه ، وذهب بعضهن للإبلاغ أزواجهن وأقربائهن ليكونوا شهوداً على الأعجوبة ، وحدث هرج ومرج عارمان .

كان دانييل (البوم) يتتبع ريقه دون توقف في ركن من أركان البيت . أن الكائنات الغريبة الخبيثة المحلقة في الفضاء تواصل ، حتي بعد موت (الأقرع) ، تعقيد أفعاله البريئة ونواياه الحسنة . وفكر (البوم) أن من الخير له ، بعد ما وصلت اليه الأمور ، السكوت وإلا فإن توماس قد يقتله وهو في سورة غضبه .

ودخل دون خوسيه على عجل .

- انظر ، دون خوسيه ، انظر - قال الإسكافي :

واقترب دون خوسيه مرتباً من حافة التابوت ورأى الزرور مطروحاً إلى جنب يد (الأقرع) المتخشبة :

- هل هي معجزة أم لا ؟ - قالت ريتا متفعلت وهي تتأمل الدهول الذي بدا على وجه القس .

وسرت همهمة طويلة حولهم . حرك دون خوسيه رأسه من طرف لآخر وراح يتفحص الوجوه المحيطة به .

وتوقفت نظراته لحظات في وجه (البوم) المضطرب . ثم قال :

- اعترف أن الأمر غريب . ولكن ، ألم يضع أحد هذا الطائر هنا ؟

- لا أحد . - صرخ الجميع .

وخفض دانييل (البوم) عينيه ، وعادت ريتا الصراخ مطلقة قهقهات هستيرية ومتحدية بنظراتها دون خوسيه :

- ها ، حضرة القس . هل هي معجزة أم لا ؟

وحاول دون خوسيه تهدئة الخواطر المضطربة :

- أنا لا أستطيع أن أبدي رأياً ازاء شيء من هذا القبيل ، فى الواقع أن من المحتمل جداً ، ياأبنائى ، أن يكون أحد ما قد دس الزرور فى الثابوت مارحاً أو بحسن طوية وهو لايجرؤ الآن على التصريح بفعلته خوفاً من غضبكم وعاود النظر الى دانييل بعينه الجارحتين المديبتين كطرف الدبوس ، واستدار (البوم) الخائف ثم ولى هارباً الى الشارع ، وواصل القس كلامه : - على كل حال سأتولى ابلاغ الأسقف بما حدث ، ولكنى أكرر أن عليكم ألا تفتنوا أنفسكم بالكثير فى الواقع هناك كثير من الحوادث التى لها اعجاز ظاهرى ولكنها لا تمتلك من المعجزة غير ما قلنا : الظاهر - ثم قطع حديثه قائلاً : - سأعود الساعة الخامسة للدفن .

وعند الباب ، عثر دون خوسيه القس ، وهو قديس كبير ، بدانييل (البوم) الذى كان يختلس النظر إليه خجلاً . ولما أيقن القس أن لا أحد موجود بالقرب منهما ابتسم للفتى وربت بحنان على قفاه وقال له هامساً :
- فعلة متقنة ياولدى . فعلة متقنة .

وترك له يده لكى يقبلها ثم ابتعد بخطى بطيئة جداً مستنداً على عصاه .

الفصل العشرون

لأجراس النواقيس لغة معبرة ومستغيرة ، ولذبلذباتها قدرة على إحداث نغمات عميقة وحادة ، رصينة وخفيفة ، قائمة ومعتمدة بالأجراس لا تكرر الشيء نفسه مطلقاً ، ولا تقول ما تقول بالطريقة ذاتها على الإطلاق .

لقد اعتاد دانييل (اليوم) أن يكتيف قلبه وعواطفه على نغمة الأجراس إنه يعرف أن دقات يوم الراحية لها نغمة الألعاب النارية وصوت الهرج والمرج الصاخب وغير المتناسق ، والتي لسماعها يتكور قلبه وهو ينض بشعور من الفرح التام المتجانس . وعندما كانت تنتهي الغارة فى وقت الحرب كانت النواقيس تجلجل بفرح كذلك ولكنه فرح مشوب بالخطر والتربق ، فقد كان من الواجب التسليح بالخطر . فى مرات أخرى كانت الدقات صمء معتمدة كالحلة جوفاء كما كان حالها يوم دفنوا جيرمان (الأقرع) . لقد عمّت الوادى يومها دقات منبعثة من نواقيس الأبرشية ، دقات صمء معتمدة كالحلة جوفاء ، وكانت برودة ذبلذباتها تنفذ الى أعماق الأرض وجذور الزرع ونخاع عظام الرجال وقلوب الأطفال ، فكان قلب دانييل (اليوم) يذوب ويلين كالرصاص المنصهر ، من أثر دقات النواقيس المهيبة فيه . كان المطر يسقط خفيفاً . وكان أولاد الاسكافى الكبار الأربعة يسيرون خلف دون خوسيه ، الذى ارتدى قميصه الكهتوني الأبيض مع الوشاح ، وهم يحملون النعش على أكتافهم ويدخله جيرمان (الأقرع) والزرزور ، يتبعهم أبوهم وبقية العائلة وجميع رجال البلدة ونسائها وأطفالها وقد تجهمت وجوههم وانعكست فى مصارينهم أصداء الأجراس

وهى تتردد فى نغمات بطيئة موزونة ، أما دانييل (البوم) فكان يسمع تلك الأجراس بطريقة خاصة فى ذلك اليوم . كان يرى نفسه مثل واحدة من تلك الحشرات التى دأب راهب بلدة (لاكويرا) على جمعها فى علبة ، إذ كانت كل دقة ، كشأن تلك المخلوقات الصغيرة ، بمثابة إثارة حادة تخترق منطقة حساسة فى كيانة ، انه يفكر فى جيرمان (الأقرع) وفى نفسه وفى المسارات الجديدة التى تفرض على حياته . كان يؤلمه الإحساس بأن لاشئ لاشئ مما مضى يمكن أن يعود . كان إحساساً ثقيلاً بالانقياد والتبعية والخضوع . ان ما يشير أعصابه عدم قدرته على إعادة عقارب الزمن إلى الوراء ووقوفه عاجزاً ازاء حقيقة أن أحداً لن يعود الى التحدث اليه ، بدقة (الأقرع) واحاطته ، عن طائر أبى زريق والحجل والرفراف ودجاج الماء أن عليه أن يتقبل ألا يعود أبداً الى سماع صوت جيرمان (الأقرع) وأن تألف أن عظام صاحبه ستصير ، هى وعظام الزرور ، تراباً ، وأن الدود سينخر الجسدین معاً دون مفاضلة ولا تمييز .

وأحس بشئ من الراحة وهو يتحسس فى جيبه قرشا مشقوباً من وسطه . وفكر : عندما سيتهون من الدفن سيذهب هو الى دكان انطونيو (الحوصلة) لشراء قطعة من السكاكر . ولما كان من غير اللائق تناول الحلوى بعد دفن صديق حميم فعليه إذا الانتظار إلى الغد . وبدأوا بتزول العربة من ناحيتها الشمالية متجهين صوب مقبرة الوادى الصغيرة . وكانت دقات النواقيس تكتسب ، وقد مروا من ناحية الكنيسة ، تأثيراً نافذاً ومؤلماً . واجتاز الموكب منعطف الأبرشية ثم دخل المقبرة ، وصرت بوابتها الحديدية حاملة ساخطة . لم يكن المكان يتسع للجميع . وأسرع قلب دانييل (البوم) النبض وهو يرى الحفرة الصغيرة مفتوحة عند قدميه . كانت مقبرة

البلدة فاترة منزوية مريحة تحتوي على شجرتي سرو معمرتين متجهمتين ترتفعان عند سياج المقبرة الشرقى. لم يكن فى المقبرة مرمر ولا تماثيل ولا أضرحة ولاقبور محفورة فى الجدران ولا قبور مكسوة بالجدران. فالمتى تراب يعود إلى التراب ، يختلط به فى اندفاع مباشر ، بل معيب ، الى الالتحام به والامتزاج معه ، لقد نمت حول الصليبان الكثيرة نباتات السرخس والقراص والنعناع وكل أصناف الحشائش البرية لكى تكون بمثابة عزاء لمن يرقد هناك محفوفاً فى الليل والنهار بروائح الحقل الذكية . كانت السماء متجهمة عابسة . كان المطر الخفى متواصلاً . وكان الحشد ، محتماً بالمظلات ، يشكل بقعة مسودة فى لوحة رمزية باعثة على الرعدة والحزن . وأحسنّ دانييل (البوم) بالبرد عندما بدأ دون خوسيه صلاته على النعش الموضوع عند حافة القبر .

كان يخيم على المكان صمت سمحت به مائة حسرة مكبوتة وألف دمة محبوسة . والتفت (البوم) إذا أحسنّ فوق حرارة يديه بحرارة يد صديقة انها أوكا - أوكا . كانت الطفلة تضيف الى ملامحها الطفولية وقاراً يوحى بعجز وخضوع محزنين . كان سيروق لدانييل (البوم) لو انه كان مع أوكا - أوكا وحيدين عند النعش ليكون فى امكانه أن يصبّ دموعه غزيرة على ضفائرها الذهبية . فكّر فى هذا وهو يحسّ بين يديه بحرارة يد صديقة أخرى . كما أنه يأسف ، وهو ينظر الى النعش عند قدميه ، للجدل الذى نشب بينه وبين (الأقرع) حول صوت طيور الحجل أثناء الطيران وحول زقزقات أبى رريق وحول طعم الندب التى تخلفها الجروح . (الأقرع) الآن لايقدر على الدفاع عن نفسه ، ولكن دانييل (البوم) ، من أعماق روحه ، يرى أنه كان على حق دون قيد أو شرط كان صوت دون خوسيه يهتز ذلك المساء تحت المطر بنبرات حزينة وهو يرتل القدّاس الجنائزى :

- كرياليسون ، كرستياليسون ، كرياليسون . أبانا الذى فى السماوات ..

ويعد هذا كان صوت الراهب يتحول الى همس غير مفهوم . وأحس (اليوم) برغبة شديدة بالبكاء وهو يتأمل الاسكافى مدعنا مستسلما . إنه لايشك ، وهو يراه على تلك الحال ، أن اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، لن يعود أبدا الى النظر الى سيقان النساء ، فقد أصبح فجأة عجوزاً مرتعشاً منهكاً غير معنى بالجنس ، وعندما أتم دون خوسيه الصلاة الثالثة بسط ترينو قطعة من الخيش الى جانب النعش فرمى اندريس فيها ببيزته . وارتفع صوت دون خوسيه من جديد :

- كرياليسون ، كرستياليسون ، كرياليسون . أبانا الذى فى السماوات ..

وجاء دور (البيدق) فرمى بقطعة نقدية على رقعة الخيش فرتل دون خوسيه من جديد ، ثم تقرب باكوا الحداد ووضع عشرين ستاً أعقبه كينو (الأقطع) فساهم بمبلغ طفيف ثم تتابع بعد ذلك كوكو ، مأمور المحطة ، وباسكوالون ، عامل الطاحونة ، ودون رامون العمدة وانطونيو (الحوصلة) ولوكاس (الأبتز) والأرنبات الخمس والقيمة على منزل (الماركيز) والجانو وكل رجال البلدة ونسائها ، وراحت رقعة الخيش تمتلئ بالقطع بالنقدية خفيفة الوزن قليلة القيمة بينما راح دون خوسيه ، وهو القدیس الكبير ، يردد على كل عطية بصلاة فكأنه يقدم لهم الشكر :

- كرياليسون ، كرستياليسون ، كرياليسون . أبانا الذى فى السماوات ..

أما دانييل (البوم) فكان يتشبث بقطعة نقوده ويحشر يده في جيب بنطاله . كان يفكر لا ارادياً في حلوى الليمون التى سأكلمها فى غده . ولكنه ربط فجأة بين طعم حلواه ورقدة صاحبه الأخيرة ، وبدأ يقول لنفسه أن لا حق معه إذا يريد أن يتمتع هو بحلوى الليمون بينما صديقه يتفسخ فى حفرة الأرض . وبدأ يسحب قرشه ببطء من جيبه وهو عازم على الالتقاء به الى رقعة الخيش ، ولكن صوتاً فى داخله أوقفه : « كم من الوقت ستحتاج للحصول على قرش آخر يا بوم ؟ » فألقى به ثانية فى جيبه مدفوعاً بغريزة البخل البذيئة . ثم تذكر حديثه مع (الأقرع) حول صوت الحجل عند الطيران فعاوده الألم من جديد . وجثا ترينو على رقعة الخيش وأمسك بها من زواياها الأربع لحملها لكن دانييل (البوم) تقدم صوب النعش ، بعد أن تخلص من يد أوكا - أوكا المسكة بيده قائلاً :
- انتظر .

وتوجهت إليه كل العيون وتلك دانييل (البوم) لتلك النظرات ، شعور من تتساقط عليه قطرات المطر . ولكنه لم يابه لذلك بل شعر باعتزاز كبير كذلك الذى غمره يوم تسلفه عصا الكوكانيا . أخرج من جيبه قطعة نقوده اللماعة المثقوبة من وسطها وألقى بها إلى رقعة الخيش ثم تابعها بعينه وهى تدرج مسافة قبل أن تنضم إلى الأخريات محدثة عند ارتطامها بهن رنة طروباً . ومع صوت دون خوسيه القس ، وهو القديس الكبير ، بلغته ابتسامة (الأقرع) صادرة من قاع تابوته الأبيض المطفى بالوريش .
- كرياليسون ، كرستياليسون ، كرياليسون . أبانا الذى فى السماوات ..

وبعد انتهاء دون خوسيه أنزلوا التابوت في القبر وأهالوا عليه تراباً كثيراً . ثم راح المشيعون يغادرون المقبرة ببطء . كان الظلام يهبط والمطر يشتد ، وقد علت أصوات نعال الناس العائدين الى البلدة يجرّونها جرّاً . وعندما وجد دانييل (اليوم) نفسه وحيداً اقترب من قبر صاحبه ، رسم علامة الصليب ثم قال :

- لقد كنت على حق يا (أقرع) ، فالجمل عند الطيران تصبح « برررر » وليس « يرررر » .

وهمّ بالانصراف لكن فكرة أخرى عادت به من جديد ، فعاود التصليب وقال :

- ومعدرة عن الزررور .

كانت ماريوكا - أوكا في انتظاره عند بوابة المقبرة . أخذت بيده دون أن تقول له شيئاً ، فأحسّ (اليوم) برغبة شديدة بالبكاء تحتأحه من جديد ، ولكنه احتوى ألمه ودموعه فقد كان (البحرور) يسير أمامه على بعد عشر خطوات منه ويلتفت بين الحين والحين ليتحقق إن كان صاحبه يبكي .

الفصل الحادى والعشرون

راح الضوء يحف بدانييل (البوم) من دون أن يشعر هذا به ، وراحت النجوم تتمحى من قطعة السماء المحددة بإطار النافذة ، وعلى خلفية الأرض البيضاء راحت قمة جبل راندو تكتسب لوناً أخضر فى الوقت الذى راحت فيه الشحارير والبلابل وطيور أبى زريق والخضيري تردد أنغامها الصباحية بين الأحراج . كانت الأشياء تكتسب فى المحيط حدودها ، وترسم تدريجياً أحجامها وألوانها ومقابلاتها وكان الوادى يستقبل يومه الجديد بهجة زكية الرائحة ويفرح نباتى أخضر وكانت الروائح تشتد وتزداد كثافة وحضوراً فى محيط الجو الساكن الهادئ .

وانتبه دانييل (البوم) عندها الى أنه لم تخمض له عين طوال الليل والى أن حكاية الوادى القصيرة والقريبة تسطر فى ذهنه بترف تفصيلى عجيب . ألقى بنظرة من خلال النافذة ، ثم حط بها على قمة جبل راندو الحادة الموحشة . وأحس لحظتها أن حيوية الوادى تتغلغل فيه كاملة غير منتظمة وأنه يهب حيويته الى الوادى فى رغبة شديدة بالانصهار وبالتداخل المتكامل الحميم . كانا متعاهدين مع بعضهما فى تطلع محموم لحماية متبادلة ، فقد كان دانييل (البوم) يدرك أن شيئين تكيف كل منهما على طريقة الآخر ومقياسه يجب ألا يفترقا أبداً . مع ذلك فان قناعته بفراق قريب كان يقض مضجعه فيسكن من تعب جفنيه . فبعد ساعتين ، وربما أقل ، سيقول وداعاً للوادى ، سيركب القطار ويهرب الى المدينة البعيدة ليبدأ التقدم . انه ليأسف على أن رحيله يجب أن يحدث الآن ، جيل

يتحلى الوادى بسوداوية الخريف الناعمة ، وحين يمنح كوكو ، مأمور المحطة ، برنيطة حمراء رائعة . وما أقل ما تتوافق التغيرات الكبيرة مع الحالة المعنوية الخاصة التى نعيشها .

كان ذلك الوداع يؤلم دانييل (البوم) ، وهو ما لم يشك فيه أبداً . وما ذنبه فى أن يكون عاطفياً مرهف الإحساس ؟ وما ذنبه فى أن يرتبط الوادى به على ذلك النحو الطاغى المؤلم ؟ إنه غير معني بالتقدم ، والتقدم عنده لايساوى فى الحقيقة قرشاً . تهمة ، بالمقابل ، القاطرات ، يتأملها ضئيلة من بعيد ، والبيوت البيض والحقول ومزارع الذرة المجزأة ، وبركة الإنكليزى وتيارات النهر الصاخبة المجنونة ، وملعب البولو ودقات أجراس النواقيس فى الأبرشية ، وقط (الفلقة) ورائحة قوالب الجبن الملوثة الحامضة ، وصياغة قطعة الروث بعناية ووقار وفن ، وتهمة الزاوية الكئيبة الموحشة التى يرقد فيها وإلى الأبد صديقه جيرمان (الأقرع) ، وكذلك نقيق الضفادع الرتيب من تحت الأحجار فى الليالى الرطبة ، ونمش أوكا - أوكا وحركات أمه البطيئة وهى تقوم بأعمال المنزل ، وخضوع أسماك النهر الصغيرة واستسلامها واثقة مطمئنة ، وغيرها وغيرها من الأشياء . ولكن عليه الآن أن يترك كل هذا من أجل التقدم ، لأنه ما يزال غير مستقل ولا قادر على اتخاذ القرار ، ولأن القدرة على اتخاذ القرار تتوفر للانسان عندما لا يكون فى حاجة اليها ، وعندما لا يستطيع أن يتخلى ، ولو ليوم واحد ، عن عربة يجرها أو حجارة يتقراها دون أن ينام ليلته جائعاً . فما قيمة القدرة على القرار إذا ؟ إن الحياة لشئ من عرف من الطغاة ، لأنها عندما تأخذ بتلابيب أحدها فلا معنى لقدرة على اتخاذ القرار أما هو فمازال فى وضع يسمح له باتخاذ القرار ، ولكن سنواته الإحدى عشرة

تعطى الحق لأبيه بأن يقرر نيابة عنه . فلماذا ، يا الهى ، لماذا ينظم العالم على هذا النحو الردى ؟ أما الجبان فقد كان يشعر ، بعيداً عن حالة ولده المعنوية ، بالفخر لاتخاذ القرار وتمكنه من تحقيقه ، وهو ما لا يقدر عليه آخرون غيره . لقد طاف بولده ، عشية ذلك اليوم ، البلدة لوداع أهلها :

- سيذهب الولد الى المدينة غداً ، فقد بلغ الحادية عشرة وحن الوقت لبدأ الشهادة .

وتسمّر الجبان ينظر الى ولده فكأنه يقول له : « وماذا على الطالب ان يقول ؟ » ولكن (اليوم) كان ينظر محزوناً الى الأرض ، فما كان لديه ما يقول ، وأن عليه أن يطيع وحسب .

كان جميع أهل البلدة يبدون عاطفة ووداً ، بل إن بعضهم بالغ فى التعبير عن ذلك فكأنه ارتاح كثيراً وهو يسمع بأن دانييل (اليوم) سيفرب ، بعد ساعات قليلة ، عن أنظارهم ولوقت طويل . لقد ربت الجميع تقريباً على قفاه ، وأعربوا صراحة عن أملهم وأمانهم الطيبة :

- لنر إن عدت إلينا وقد صرت رجلاً .

- حسناً يافتي ، ستصبح وزيراً ، وحينها سنطلق اسمك على أحد شوارع البلدة أو على الساحة ، وستأتى أنت لراحة الستارة عن اللوحة التذكارية ثم سنأكل معا فى البلدة ، سنشرب ، يومها ، حد السكر .

وغمز له باكوا الحداد بعينه بينما كان شعره الأحمر يصدر بريقاً لامعاً . وكانت (الفلقة) الكبرى واحدة من أشد الفرحين لسماع خبر سفر دانييل .

- من المناسب جداً أن تؤدب وتهذب قليلاً يا ولدى . هذه حقيقة ، وأنت تعرف اننى صريحة . ولنر ان كانوا سيعلمونك فى المدينة ان تراف بالحيوان والأتسير فى شوارع البلدة بجلدك وأن تنشدها « الرعاية الإلهية » على الأصول . - وتوقفت عن الكلام ثم نادى : - كينو ، دانيل مسافر إلى المدينة وقد جاء ليودعنا ، ونزل كينو (الأقطع) ، وعندما نظر (اليوم) عن كلب إلى فضلة يده تأججت فى داخله الذكريات وأحس بانقباض خائف مؤلم فى صدره . أما كينو فقد شعر هو كذلك بالحزن لفقدان ذلك الصديق وراح يضرب حنكه بفضلة يده مداراة لآله وتبسم قائلاً :

- حسناً أيها الفتى ، ومن يبلغ ما بلغت ؟ ... المهم ... أكرر ما قلت . - ولم يلحظ كينو (الأقطع) ، الغارق فى همه ، أنه لم يقل شيئاً - حالفك التوفيق .

وجادل بانجو (الملحد) الجبان لارساله ولده الى مدرسة يديرها الرهبان ، ولكن الجبان لم يمنحه الفرصة لينفس عما فى قلبه :

- لقد جئت بالولد ليودعك أنت وأهلك لا لأناقشك حول إن كان الواجب أن يدرس على يد راهب دينى أم على يد معلم دنيوى .

وضحك بانجو وأطلق كلمة بذئبة وثمنى على دانيل لو أنه درس ليصبح طبيباً ويعود الى البلدة ليأخذ مكانا دون ريكاردو والذى عاد بليداً هراً ، ثم توجه بالكلام الى الجبان وهو يضربه على كتفه :

- ما أسرع ما يمضى الوقت يا فتى .

ورده الجبان قائلاً :

- وما فرقنا عن الآخرين ؟

وكان (البندق) هو الآخر لطيفاً معهما ، فقال للأب ان بانتظار دانييل مستقبلاً كبيراً لو أنه انكب على الدراسة بجد ، وأضاف طالباً منهما أن يتأملا سيرته ، فقد خرج هو الآخر من العدم ، ولم يكن شيئاً مهماً ، ولكنه بكده واجتهاده أكمل تعليمه وتفوق . وبلغ من الزهو بنفسه انه بدأ يلوى فمه بانفعال وتشنج ، ولما أوشك على أن يبلغ بغمه سالفته الطويلة السوداء تركاه ، مودعين ، لحركات فمه ولزهو نفسه ولاحتدام انفعالاته .

أما دون خوسيه ، وكان قديساً عظيماً ، فقد زوده بنصائح مفيدة وتمنى له نجاحات أكبر . وكان يلاحظ على القس من بعيد أنه كان متألماً لفراق الصبي . أما دانييل (البوم) فقد تذكر موعظته يوم العراء ، عندما قال بأن لكل شخص طريقه المرسوم في الحياة ، وبأن الطموح والشهوات قد تحرفه عن هذا الطريق ، وأن بإمكان المتسول أن يكون أغنى من المليونير في قصره المرمرى الذى يعج بالخدم .

وفكر دانييل ، وهو يتذكر ذلك ، فى أنه انحرف عن طريقه مدفوعاً بطموح أبيه ، وكظم رعشة فى داخله . ولفه الحزن عندما خطر على باله أنه قد لايجد ، لدى عودته ، دون خوسيه فى كرسى الاعتراف ، وهو يدعو بالـ « غجرى » بل فى إحدى زوايا الأبرشية وقد تحول الى قديس ذى أكليل ومنصة ، أما جسده ، فى هذه الحالة ، فسيتمسح الى جنب جسد جيرمان (الأقرع) فى مقبرة السروتين المجاورة للكنيسة . ونظر يامعان الى دون خوسيه وقد أعياه الإحساس بأنه لن يراه ثانية وهو يتكلم أو وهو يحرك عينيه الغمضاوين الحادثين أو وهو يصوبهما . وأوشك ، حين مرّاً بعربة (الأمريكى) ، أن يحزن ، وهو يفكر فى ميكى التى ستزوج قريباً فى المدينة ، لكنه لم يشعر بالضيق لعدم تمكنه من رؤيتها ، بل بالحاجة الى مغادرة الوادى دون أن تراه وتشفق عليه وتحسبه بائساً شقياً .

أما (البعور) فلم يشأ أن يودعه لأنه سيراه في المحطة صباحاً .
سيعانقه بحرارة وسيراقبه ان كان قادراً على أن يكون رجلاً حتى النهاية .
وما أكثر ما نبّهه (البعور) الى ذلك :

- عند السفر ، عليك ألا تبكى . فالرجل لا يبكى وإن مات أبوه في
بحر من الآلام المبرحة .

كان دانييل (البوم) يتذكر بحنين ليلته الأخيرة في الوادى . ولما
تقلّب على سريريه لمعت من جديد قمة راندو التى أضاءتها خيوط الشمس
الأولى . وارتعشت أرنبات أنفه إذ شعر برائحة عشب ندى وروث .
وانتفض فجأة . فالوادى لم يستيقظ بعد ، مع ذلك فقد طرق سمعه
صوت آدمي . وأنصت فجاءه الصوت ثانية بعد أن تعمد صاحبه أن يكون
خافتاً :

- بوم .

وقفز من سريريه مضطرباً ، وأطلّ على الطريق العام ، انها أوكا -
أوكا ، تقف هناك على الإسفلت حاملة بيدها دلوأ صغيراً فارغاً . كانت
عينها تبرقان بغرابة :

-بوم . أنا ذاهبة الى كويرا لأجلب اللبن . لن أستطيع أن أودّعك في
المحطة .

وأحسّ دانييل (البوم) ، وهو يسمع صوت الطفلة الحلو الجاد ،
بنياط شيء حميم جداً في صدره تنقطع . كانت تحرك دلو اللبن كالرقاص
دون أن تكف عن النظر الى (البوم) ، وكانت جدائلها تلمع لنور
الشمس :

- الى اللقاء أوكا - أوكا - قال (البوم) وفي صوته رعشة غريبة .

- هل ستذكرنى ، يوم ؟
وأسند هذا كوعيه على إفريز النافذة ممسكاً رأسه بيده ، كان يخجل
أن يقول لها ذلك ، ولكنها فرصته الأخيرة :
- أوكا - أوكا . لاتسمحى للفلقة أن تزيل النمش من وجهك . هل
سمعت ؟ لا أريد أن يزيلوه من وجهك .
وارتدّ عن النافذة لأنه شعر انه سييكنى ، وهو لا يريد أن تراه أوكا -
اوكا وهو ييكنى . وعندما بدأ بارتداء ملابس ، غزاه احساس واضح متوقد
بأنه يسلك طريقاً غير الذى قدّره له الرب . ويكنى .

إيضاحات معنوية

= عملات إسبانية ذات أقيام بسيطة .

دورو
كوارتو
بيزته

الحرب : يريد بها الحرب الاهلية لإسبانية التي جرت بين أعوام ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ .
الموس : لعبة من ألعاب القمار .
ديماس الآخر : ويعرف أيضاً باللص الصالح . وقد صلب وعلق جسده على عرين جسد السيد المسيح .
مودى : هي كلمة تطلق عموماً على المسلم وخصوصاً على مسلمى الشمال الأفريقى .
الامريكى : وهى فى الاصل الـ indiano وهى كلمة تطلق على من هاجر من الإسبان إلى المكسيك أو الى أمريكا وعاد ثرياً .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانتيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علام الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إيفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنلكى
٨ - مشعل الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التفريعات البيئية	أندرو س. جوى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد مقصم وعبد الجليل الأذى وعمر طحى
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرائك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميت	ت : عبد الوهاب طوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان ثويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميت	ت : أشرف ربيع عفيفى
١٦ - إثنية السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركن	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يعنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : هاجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة من المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارنذر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الدين
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانتيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطنجى / عبد الوهاب طوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصه إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب. ديكسون	ت : خليل كلفت

- ٣٦ - نظريات السرد الحديثة
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها
٣٨ - نقد الحداثة
٣٩ - الإغريق والحسد
٤٠ - قصائد حب
٤١ - ما بعد المركزية الأوروبية
٤٢ - عالم ماك
٤٣ - اللهب المزدوج
٤٤ - بعد عدة أصياف
٤٥ - التراث المغدور
٤٦ - عشرون قصيدة حب
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية
٤٩ - الإسلام في البلقان
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية
٥٢ - العلاج النفسي التبعي
٥٣ - الدراما والتغاييم
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح
٥٥ - ما وراء العلم
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)
٥٨ - مسرحيتان
٥٩ - الحيرة
٦٠ - التصميم والشكل
٦١ - موسوعة علم الإنسان
٦٢ - لغة النص
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)
٦٥ - هي مدح الكسل ومقالات أخرى
٦٦ - خمس مسرحيات أنطولوجية
٦٧ - مختارات
٦٨ - تتأشأ العجوز وقصص أخرى
٦٩ - العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي
- والاس مارتن
بريجيت شيفر
ألن تودين
بيتر والكوت
أن سكستون
بيتر جرآن
بنجامين باربر
أوكتايفيو پاٹ
ألدوس هكسلي
روبرت ج دنيا - جون ف ١ هالين
بابلو نيرودا
رينيه ويليك
فرانسوا دوما
م . ت . نوبيس
جمال الدين بن الشيخ
داريو بيانوفيا وخ . م بينياليستي
بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج .
روجرسيفيتز وروجر بيل
أ . ف . ألنجلون
ج . مايكل والتون
جون بولكنجهوم
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
كارلوس مونيهيت
جوهانز اوتين
شارلوت سيمور - سميث
رولان بارت
رينيه ويليك
آلان وود
برتراند راسل
أنطونين جالا
فرناندو بيسوا
فالنتين راسبوتين
عبد الرشيد إبراهيم
أوخيني تشانغ وروبرجت
داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مغيث
ت : متيرة كروان
ت : محمد عبد إبراهيم
ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / مصدح ملحد
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تادرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد علي
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جويجاتي
ت : عبد الوهاب طريب
ت : محمد برادة وعشاني المليلو ويوسف الأملاك
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفي طعيم وعادل دمرdash
ت : مرسى سعد الدين
ت : محسن مصيلحي
ت : علي يوسف علي
ت : محمود علي مكي
ت : محمود السيد ، ماهر البطولي
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهييم
ت : صبري محمد عبد الغني
مراجعة وإشراف ، محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاعي ،
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض ،
ت : رمسيس عوض ،
ت : عبد الحفيظ عبد الحليم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمالوك في مصر
٧٥ - فن التراجم والسيرة الذاتية
٧٦ - جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣
٧٨ - العولمة: الفكرة الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»
٨١ - الجماعات المتخيلة
٨٢ - مسرح ميغيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والتقدم
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالترتيب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - وسم السيف (قصص)
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح
الإسباني الأمريكي المعاصر
٩٣ - محادثات العولمة
٩٤ - الحب الأول والصحة
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث زنيقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)
٩٨ - الهم الإنساني والانتزاع الصهيوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مسالة العولمة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوبرا ماهوجني
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأداسي
١٠٧ - مبرة اللذائني في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . ، البيوت
چين . ب . ، تومكينز
ل . ا . ، سيمينوتا
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
بوريس أوسبشسكي
ألكسندر بوشكين
بنديكت أندرسن
ميغيل دي أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكي أقطاي
جمال مير صادق
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنثوني جينز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
باربر الاسوستكا
كارلوس ميغل
مايك فيذرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بويزو بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روبنسون
بول هيرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليت
عبد الكريم الخطيب
عبد الوهاب المؤيد
برتول بريشت
جيرار جينييت
د. ماريا خيسوس روبيرامتي
نخبة
- ت : فؤاد مجلي
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومي
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الخانمي وناصر حلاوي
ت : مكارم الغمري
ت : محمد طارق الشرقاوي
ت : محمود السيد على
ت : خالد المالحي
ت : عبد الحميد شحبة
ت : عبد الرزاق بركات
ت : أحمد فتحي يوسف شتا
ت : ماجدة الغناني
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب طوب
ت : فوزية العشماوي
ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
ت : إدوار الخراط
ت : بشير السباعي
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحي
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعدي

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الألباني
١٠٩ - حروب المياه
١١٠ - النساء في العالم النامي
١١١ - المرأة والجريمة
١١٢ - الاحتجاج الهادئ
١١٣ - راية التمرد
١١٤ - سرخيتا حماد كوني وسكان المستنقع
١١٥ - غرفة تخمس المرء وحده
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شليق)
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام
١١٨ - النهضة النسائية في مصر
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
١٢٣ - إسرائيلية العشائرية وملائمتها الدوابة
١٢٤ - الفجر الكاذب
١٢٥ - التحليل الموسيقي
١٢٦ - فعل القرامة
١٢٧ - إرهاب
١٢٨ - الأدب المقارن
١٢٩ - الرواية الإنسانية المعاصرة
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)
١٣٢ - ثقافة العولة
١٣٣ - الخوف من المرايا
١٣٤ - تشريح حضارة
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)
١٣٦ - فلاحو الياشا
١٣٧ - مذكرات ضابط في الصلة الفرنسية
١٣٨ - عالم الفيزيائي بين الجمال والعنف
١٣٩ - باريسغال
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار
١٤١ - اثنتا عشرة مسحية يونانية
١٤٢ - الإسكندرية: تاريخ ودليل
١٤٣ - فضائل التنظير في البحث الاجتماعي
١٤٤ - صاحبة اللوكاندا
- مجموعة من النقاد
جون بولوك وعادل درويش
حسنه بيجوم
فرانسيس هيندسون
أرلين علوي ماركليود
سادى بلانت
ويل شوينكا
فرچينيا وولف
سينثيا نلسون
إيلي أحمد
بث بارون
أميرة الأهمري سنيل
إيلي أبو لغد
فاطمة موسى
جوزيف فوجت
نيل الكسندر وفنادولينا
جون جرائ
سيدريك ثورپ ديفي
فولجانج إيسر
صفاء فتحي
سوژان باسنيث
ماريا دولورس أسيس جاروته
أندريه جوند فراتك
مجموعة من المؤلفين
مايك فينرستون
طارق على
باري ج. كيمب
ت. س. إليوت
كينيث كوني
جوزيف ماري مواريه
إيفلين تاروني
ريشارد فاچنر
هربرت ميسن
مجموعة من المؤلفين
أ. م. فورستر
ديريك لايدار
كارلو جولدونو
- ت : محمود على مكي
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : لميس النقاش
ت : بشاروف / رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد الحنّدى ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بلبح
ت : سمحة الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعي
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقي جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحي
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبوري
ت : نديم عطية
ت : حسن بيومي
ت : عدلى السامى
ت : سمنة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث
١٤٦ - الورقة الحمراء
١٤٧ - خطة الإدارة الطويلة
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
١٤٩ - النظرية الشعرية عند البيت وأفونيس
١٥٠ - التجربة الإغريقية
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)
١٥٢ - عدالة الهند وقصص أخرى
١٥٣ - غرام الفراغة
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر
١٥٦ - المدارس الصغالية الكبرى
١٥٧ - خسرو وشيرين
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)
١٥٩ - الإيديولوجية
١٦٠ - آلة الطبيعة
١٦١ - من المسرح الإسباني
١٦٢ - تاريخ الكنيسة
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)
١٦٥ - حكايات الشعب
١٦٦ - العلاقات بين اللغتين اللاتينية والإسبانية
١٦٧ - في عالم ملاغور
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة
١٦٩ - إبداعات أدبية
١٧٠ - الطريق
١٧١ - وضع حد
١٧٢ - حجر الشمس
١٧٣ - معنى الجمال
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية
١٧٦ - نحو مفهوم للاهتمامات البيئية
- ت : أحمد حسان
ت : على عبد الرؤوف البعبي
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : أسامة إسبر
ت : منيرة كروان
ت : بشير السباعي
ت : محمد محمد الخطابي
ت : فاطمة عبد الله محمود
ت : خليل كلفت
ت : أحمد مرسى
ت : مى التلمسانى
ت : عبد العزيز بقوش
ت : بشير السباعي
ت : إبراهيم فتحي
ت : حسين بيومي
ت : زيدان عبد الحليم زيدان
ت : صلاح عبد العزيز محجوب
ت : مجموعة من المترجمين
ت : نبيل سعد
ت : سهير المصادفة
ت : محمد محمود أبو غدیر
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : سام ياسين رشيد
ت : هدى حسين
ت : محمد محمد الخطابي
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : أحمد محمود
ت : وجيه سيمان عبد المسيح
ت : جلال البنا
- كارلوس فوينتس
ميجيل دى لنييس
تاتكريد دورست
إنريكي أندرسون إمبرت
عاطف فضول
روبرت ج. ليتمان
فرنان برودل
نخبة من الكتاب
فيوليه فانتويك
فيل سليتر
نخبة من الشعراء
جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو
النظامى الكتوجى
فرنان برودل
ديفيد هوكس
بول إيرليش
البيخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
يوحنا الأسويى
جوردن مارشال
جان لاکوتير
أ. ن. أفانا سيفا
يشعيا هو ليتمان
رابندراناث طاغور
مجموعة من المؤلفين
مجموعة من المبدعين
ميفيل دالبيس
فرانك بيچو
مختارات
ولتر ت. ستيس
ايليس كاشمور
لورينزو فيلنيس
توم تيتنبرج

(نُحِت الطبع)

النقد الأدبي الأمريكي	الجانب الديني للفلسفة
موت الأدب	الولاية
عن الذباب والفئران والبشر	مختارات من الشعر اليوناني الحديث
العولة والتحرير	جان ككتو على شاشة السينما
علم اجتماع العلم	الأرضة
الكلام رأسمال	العنف والنبوة
محاورات كينغوشيسوس	العمى والبصيرة (مقالات في بلاغة النقد المعاصر)
رحلة إبراهيم بيك	أنطون تشيخوف
قصص الأمير مرزيان على اسان الحيوان	تاريخ النقد الأدبي الحديث (الجزء الرابع)
شتاء ٨٤	الإسلام في السودان
الشعر والشاعرية	العربي في الأدب الإسرائيلي
ديوان شمس	ضحايا التنمية
عامل المنتج	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر
مصر أرض الوادي	فن الرواية
الدرافيل أو الجيل الجديد	ما بعد المعلومات
سحر مصر	علم الجنائية وعلم اجتماع الفن
أسفار العهد القديم	المهلة الأخيرة
	الهيولية تصنع علماً جديداً
	مختارات من النقد الأنجلو - أمريكي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٥٩٧ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي (4 - 204 - 305 - 977 - I. S. B. N.)



EL CAMINO

« أبنائي ، لكل منا في الواقع طريق محدد في الحياة علينا أن نواصله دائماً وآلا نعيد عنه ... قد يفقد البعض نصيبهم الذي خصّسه الله لهم من السعادة . قد يفقدونه وهم يبحثون ، طمع في نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة ، في الواقع ، لا تكمن في الأعلى ولا في الأكبر ولا في الأرفع ولا في الأشهر ، بل في اتساق خطواتنا مع الطريق الذي حدّده الرب لنا على الطريق ، وإن كان ذلك الطريق سهلاً متواضعاً . »

هذا هو مفهوم « الطريق » الذي جعله الروائي الإسباني ميغيل دليبيس (١٩٢٠) عنواناً لروايته التي ظهرت عام ١٩٥٠

تعد هذه الرواية هي البداية الحقيقية لأدب ميغيل دليبيس الروائي ، وصنفت ضمن قائمة أفضل الروايات الإسبانية المعاصرة ، وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية ، وصدرت في الولايات المتحدة الأمريكية طبعة خصّصت لطلبة المدارس ، كما جرت محاولة لنقل الرواية إلى السينما . أما ميغيل دليبيس فقد صار - بعد صدور هذه الرواية - واحداً من أبرز روائيي إسبانيا المعاصرين .

Biblioteca Alexandria



0270848